الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
MINISTERE DE L'ENSEIGNEMENT SUPERIEUR
ET DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE

جامعـة الشـهيـد الشيخ العربي التبسي – تبسة
كلية الآداب واللغات



Université echahid cheikh Larbi Tebessi – Tébessa
Faculté des lettres et des langues

قسم اللغة والأدب العربي

التطور المصطلحي في الرسائل الديوانية خلال العصرين الأموي والعباسي

أطروحة معدّة لنيل شهادة دكتوراه ل م د في اللغة والأدب العربي

تخصص: المعجمية العربية

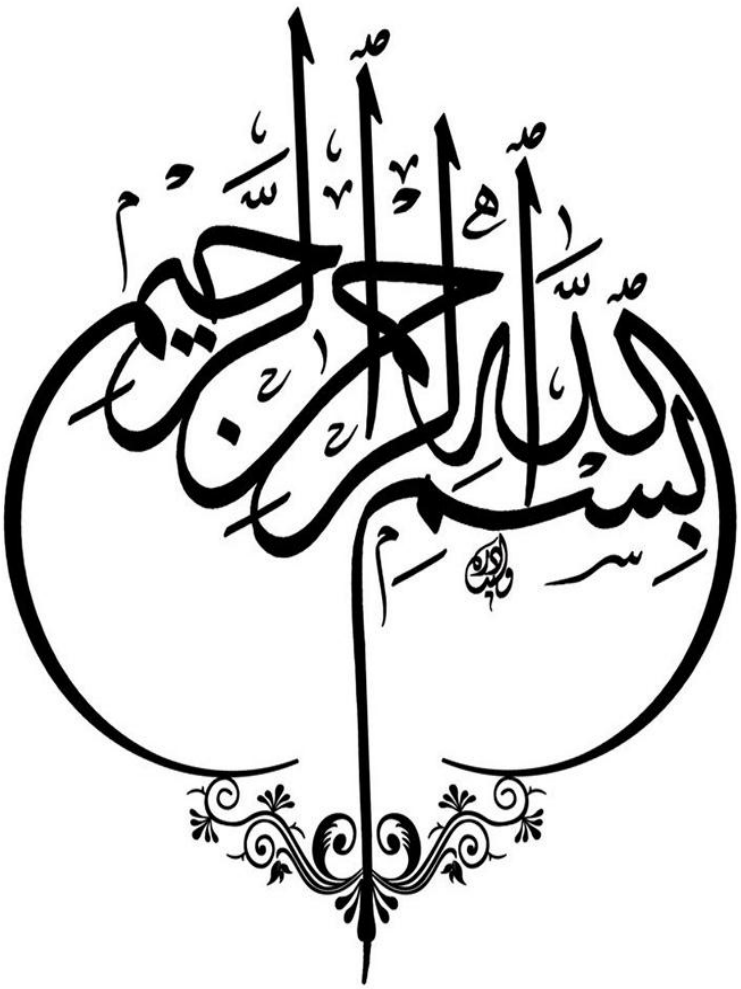
إعداد الطالبة: حاج إيمان

إشراف الأستاذ: د. عبد القادر خليف

أعضاء لجنة المناقشة

الرقم	الاسم واللقب	الرتبة العلمية	المؤسسة الجامعية	الصفة
01	الطيب جبايلي	أستاذ	جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي ـ تبسة	رئيسا
02	عبد القادر خليف	أستاذ	جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي ـ تبسة	مشرفا ومقررا
03	رشيد وقاص	أستاذ محاضر أ	جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي ـ تبسة	ممتحنا
04	عبد الرحمن بن عطيا الله	أستاذ محاضر أ	جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي ـ تبسة	ممتحنا
05	محمد رضا بركاني	أستاذ	جامعة الشاذلي بن جديد ـ الطارف	ممتحنا
06	هشام صويلح	أستاذ	جامعة 20أوت ـ سكيكدة	ممتحنا

السنة الجامعية: 2024/2023


بسم الله الرحمن الرحيم

الشكر والعرفان

أتقدم بجزيل الشكر والامتنان لكل أستاذ كان سببًا في وصولي لهذه المرحلة، حيث وضع في طريقي نور العلم الذي قادني نحو النجاح. أخص بالذكر أستاذي القدير عبد القادر خليف، صاحب العلم الغزير والأخلاق السامية. كان دومًا مشجعًا وداعمًا، وأتمنى له كل التوفيق في مساره العلمي. كما أتوجه بالشكر العميق لأستاذتي ربيعة برباق، التي بأدائها العلمي المتميز واستراتيجيتها التعليمية الفريدة حبب مقياس المعجمية، وفتحت أمامي آفاقًا لمتابعة دراستي والبحث في هذا المجال. لولا أسلوبها الملهم، ربما لم أكن لأواصل مسيرتي البحثية. فشكري لها نابع من أعماق قلبي، ممتنة لكل ما زرعته في مسيرتي العلمية.

الإهداء

إلى روح أبي الغالي الذي بذل أقصى جهده وتحمل مشاق عديدة، ليزرع في نفسي بذور النجاح ويرى ثماره. رحل عني بجسده، لكن أثره باقٍ في قلبي وروحي، يرشدني يوميا ويظل مصدر إلهامي الذي لا ينتهي.

وإلى أمي الحبيبة، سَندي وأساس صمودي، التي احتضنتني بقوة أكبر بعد رحيل أبي، فكانت لي الأب والأم، القوة والسند. بفضلها نهضت من جديد، ولها أهدي كل خطوة نحو النجاح أخطوها.

وإلى كل من كان لي دعماً صادقًا ووجدته سندًا قويًا في رحلتي؛ كل من شاركني فرحة الإنجازات الصغيرة قبل الكبيرة، وكانوا حاضرين بأفعالهم أو كلماتهم، شكرا لكم لأنكم لم تكونوا دعمًا معنويًا فقط، بل كنتم النور الذي أضاء لي طريق النجاح.

حاج إيمان

مقدمة

مقدمة:

يعد النثر جزءًا أصيلا من التراث الأدبي العربي، وقد بدأ قبل الإسلام بشكل عفوي ليعبر عن حاجات العرب في التواصل، مثل والحكم، والأمثال، والخطب، والوصايا. كان الهدف منها نقل الحكمة وتوجيه الأفراد. امتاز بالإيجاز والوضوح، إذ اعتمد العرب في العصر الجاهلي على الرواية الشفوية لنقل هذه الفنون النثرية، مما ساهم في انتشارها بين القبائل وحفظها عبر الأجيال.

مع مجيء الإسلام، تغيرت الأحوال الاجتماعية للعرب، وبدأت الدعوة الإسلامية على يد الرسول صلى الله عليه وسلم. برزت فنون أدبية نثرية مكتوبة لم تحظَ بالانتشار في العصر الجاهلي، بسبب انتشار الأمية التي كانت سائدة آنذاك. ومع نشوء الدولة الإسلامية بقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم، برز فن نثري يُعرف بفن الرسائل.

وهكذا، بدأت أولى خطوات الاهتمام بالرسائل، وخاصة السياسية منها، حيث اصطلح عليها الدارسون تسميتها "الرسالة الديوانية". وقد حافظت هذه الرسائل على تاريخ ثقافي وأدبي لعصور مختلفة. ازداد الاهتمام بتطوير هذا النوع من الكتابات لما لها من دور محوري في جهاز الدولة في تلك الفترات. انتشرت في العصر الأموي وازدهرت في العصر العباسي وما بعده. وقد أثارت مصطلحات الرسائل الديوانية إشكالات متعددة حول مفهومها وتاريخها وتطورها، مما يجعلها مصدرًا للعديد من الأسئلة التي يمكن أن تُعتمد منطلقا لبحوث لغوية رصينة.

يمكن صياغة الإشكالية في ضوء ما تقدم كالتالي: ما الكيفيات التي تطورت بها مصطلحات الرسائل الديوانية خلال العصرين الأموي والعباسي، وما العوامل التي

أسهمت في هذا التطور ضمن السياقات الإدارية والثقافية لتلك الفترات؟ تنبثق عن هذه الإشكالية تساؤلات مهمة منها:

ـ ما الزمن الذي يمثل البداية الفعلية لظهور الرسالة الديوانية في الفكر الإسلامي، وما المراحل التي مرت بها مصطلحاتها حتى تطوَّرت؟

ـ ما الخصائص المميزة التي تفردت بها الرسالة الديوانية مقارنة بأنواع الرسائل الأخرى؟

ـ ماهي العوامل الثقافية الرئيسية التي ساهمت في صياغة مصطلحات الرسالة الديوانية وتطويرها؟

ـ ما المرجعيات الفكرية والأدبية التي ساعدت في تأطير مصطلحات الرسالة الديوانية وتحديد هويتها؟

تبلورت لدينا دوافع اختيار هذا الموضوع للدراسة من خلال هذه التساؤلات وغيرها، مما دفعنا إلى التركيز على مجال المصطلح وتطوره. لذا، وقع اختياري على **التَّطور المصطلحي في الرسائل الديوانية خلال العصرين الأموي والعباسي**. ليكون عنوانًا لهذا البحث. للتوضيح، اخترنا مصطلح "التطور المصطلحي" بدلاً من مصطلح "التغير المصطلحي"، لأن التطور يدل على تقدم تدريجي ومقصود في بنية المصطلحات أو معانيها، بينما التغير يكون جزئيًا دون ارتباط بسياق تطوري، مما يعكس دقة في المعنى والغرض البحثي.

تتجلى أهمية هذا الموضوع في الدور الحيوي الذي أدته الرسائل الديوانية في بناء الدولة الإسلامية خلال العصرين الأموي والعباسي. لذا، فإن دراسة مصطلحاتها تُعد

أمرًا ضروريًا لفهم تطور الفكر الإداري والسياسي في تلك الفترات، كما تُقدم فرصة لدراسة تطور اللغة واستعمالاتها في سياقات متنوعة.

والقصد من هذه الدراسة هو استكشاف وتحليل تطور مصطلحات الكتابة الديوانية خلال العصرين الأموي والعباسي مع فحص المرجعيات الثقافية التي ساهمت في تشكيل وتطوير هذه المصطلحات.

من الأسباب التي دفعتنا لاختيار هذا الموضوع، دور الرسائل الديوانية في بناء الدولة الإسلامية خلال العصرين الأموي والعباسي، إذ احتلت مكانة كبيرة في تنظيم الشؤون الإدارية والسياسية. مما يجعل دراسة مصطلحاتها أمرًا ضروريًا لفهم تطور الفكر الإداري والسياسي في تلك الفترة، ويُقدم فرصة لدراسة تطور اللغة واستخداماتها في سياقات مختلفة.

لإنجاز هذا البحث اتبعنا المنهج الوصفي في دراسة المصطلحات، مع الاستفادة من آليات التحليل والمقارنة، كما استعنت بالمنهج التاريخي في تتبع تطور المصطلحات عبر عصرين مختلفين، فبعد وصف المصطلحات ورصد تطورها، أقارن التغير الذي طرأ عليها خلال العصرين الأموي والعباسي.

سعينا للإلمام بأغلبية جوانب هذ الموضوع نظريًا وتطبيقيًا، وخصوصًا تطبيقيًا، حيث أن الدراسات السابقة التي تناولت الرسائل الديوانية ركزت بشكل كبير على الجانب النظري من تعريف ونشأة وأنواع الرسائل. وحتى حينما تناولت الجانب التطبيقي، لم تتجاوز تقديم بعض النماذج وتحليلها من حيث مضمونها وأفكارها، دون الخوض في دراسة المصطلحات الخاصة بالرسائل وتطورها. لذلك تطرقنا لرصد كل المصطلحات الخاصة بالرسالة الديوانية وتطورها خلال العصرين الأموي والعباسي.

من بين هذه الدراسات أذكر: الرسائل في العصر العباسي أنواعها وخصائصها الفنية لعبد الرؤوف عطية الله، التي ركزت بشكل رئيسي على الجانب الأدبي والفني للرسائل، لكنها أغلت دراسة المصطلحات الخاصة بها وتأثيرها في تطور الفكر الإداري والسياسي. الرسائل الديوانية في مملكة غرناطة في عصر بني الأحمر لعبد الحليم حسين الهروط، حيث تناولت الرسائل الديوانية في سياقها التاريخي والسياسي والمحلي، لكنها لم تقدم تحليلاً عميقًا لتطور المصطلحات أو ارتباطها بالمرجعيات الثقافية والفكرية العامة. الرسائل الديوانية في الأندلس حتى نهاية عصر المرابطين لأسامة محمد أحمد مرزوق. التي اهتمت بجمع النصوص وتقديم نماذج منها، لكن الدراسة افتقرت إلى منهجية تحليلية للمصطلحات ودورها في صياغة بنية الرسائل. وقد سعينا في هذا الموضوع إلى رصد المعلومات التي لها علاقة بالرسالة الديوانية، وحاولنا قدر الإمكان تجاوز التكرار في أغلبية الدراسات الخاصة بالرسالة الديوانية، فلم ننظر لها باعتبارها نصوصا تناقلتها الكتب والتعريف بها وتقديم نماذج لها؛ بل تجاوزنا ذلك ودرسناها باعتبارها فنا مستقلا ببنيته وأسلوبه ومصطلحاته.

عرضت لنا أسبابًا أدت إلى الإطالة في العمل نوعا ما، إذ اعترضتنا مجموعة من الصعوبات، لعل أهمها تكرار المعلومات نفسها في مختلف المراجع التي تناولت موضوع الرسائل الديوانية، خصوصًا الجانب النظري. كان ذلك يتطلب منا إعادة تحليل المعلومات وتحديد المهم منها، مما استغرق وقتا إضافيًا في تنظيم الأفكار وتجميعها بشكل متسق. كذلك الجانب التطبيقي المتمثل في مصطلحات الرسائل الديوانية والبحث عن تعريفاتها في المعاجم وأصولها وكيف تطورت خلال العصرين الأموي والعباسي، قد تطلب منا جهدا في جمعها، تعريفها وتقسيمها إلى حقول مصطلحية، وتتبع تطورها بين الكتاب في هذين العصرين.

اعتمدنا على مجموعة متنوعة من المصادر والمراجع، ومن أهمها أذكر: جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت، رسائل البلغاء لمحمد كرد علي، الوزراء والكتاب للجهيشاري، أدب السياسة في العصر الأموي لأحمد محمد الحوفي، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، شوقي ضيف العصر العباسي الثاني، وكذا المعاجم اللغوية كمعجم العين للخليل ابن أحمد الفراهيدي، لسان العرب لابن منظور، والقاموس المحيط للفيروزآبادي.

وقد قسمنا البحث إلى فصل تمهيدي وخمسة فصول رئيسة:

جاء الفصل التمهيدي بعنوان: "**نشأة التدوين منذ العصر الجاهلي حتى العصر العباسي**"، وفيه رصدنا كيف بدأ التدوين في تاريخ الفكر العربي، محاولة الوقوف على أهم المدونات في كل عصر على حده، من بينها بداية تدوين الرسائل محور هذا البحث.

أماَّ الفصل الأول فاخترنا له عنوان: "**الرسالة الديوانية ـ دراسة لغوية واصطلاحية ـــ** وخصصنا له المباحث التالية:

المبحث الأوَّل: نشأة النَّثر الفني القديم من العصر الجاهلي حتى العصر العباسي، واخترنا البدء بهذا المحور لكون فن الرسائل من أشهر فنون النثر العربي القديم، فأردنا إعطاء لمحة موجزة عنه.

المبحث الثاني: مفهوم مصطلح الرسالة الديوانية من خلال المعاجم اللغوية والاصطلاحية، تناولنا فيه مفهوم الرسالة والديوان كلٌّ على حدة، لغةً واصطلاحًا، ثم تعريف مصطلح الرسالة الديوانية كما ورد في معاجم مختلفة.

المبحث الثالث: نشأة الديوان عند العرب، بدايةً من عصر النبوة، مرورًا مع نشأته الفعلية على يد عمر بن الخطاب، ثمَّ تطرقنا إلى نشأته وأنواعه خلال العصر الأموي، مركزة على ديوان الرسائل الخاص بإصدار الرسائل الديوانية.

أمَّا الفصل الثاني خصصته بعنوان: "**الرسالة الديوانية من البداية الأموية إلى النضج العباسي**": قسمناه إلى المباحث التالي:

المبحث الأول: تطور الدواوين في العصر العباسي، تناولنا فيه تطور الدواوين في العصر العباسي نتيجة التغيرات السياسية التي طرأت في نظام الحكم.

المبحث الثاني: الرسالة خلال العصرين الجاهلي وصدر الإسلام، قدمنا فيه موجزًا حول أدب الرسائل، ثم تتبعنا التطور التاريخي لهذا النوع من الرسائل لدى العرب، بدءًا مع العصر الجاهلي، ودراسة إذا ما كانت موجودة فيه أم لا، وصولاً إلى عصر صدر الإسلام ودراسة ما إذا كتب الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم هذا النوع من الرسائل.

المبحث الثالث: الرسالة الديوانية خلال العصرين الأموي والعباسي: ناقشنا فيه نشأة الرسالة الديوانية في العصر الأموي كظهور رسمي، مع تتبع التطورات التي طرأت عليها خلال العصر العباسي. ركزنا على خصائص هذا النوع من الرسائل، أسلوبها، وأنواعها، مع اختيار نماذج مثل رسائل ابن العميد الكاتب الذي قيل أن الكتابة انتهت معه. بهذا نكون قد انتهينا من الجانب النظري المتعلق بالرسالة الديوانية خلال العصرين الأموي والعباسي، مما يزيل اللبس أمام القارئ أثناء قراءة الأطروحة. خصصتُ الثلاثة فصول التالية للجانب التطبيقي من الموضوع، حيث درست في كل فصل رسالة ديوانية محددة وتحليل المصطلحات المرتبطة بها على النحو التالي:

الفصل الثالث فأخصصه بعنوان:" **التطور المصطلحي في رسالة عبد الحميد الكاتب خلال العصر الأموي**": في هذا الفصل اخترت دراسة رسالة تعود إلى العصر الأموي تُعدُّ من أوَّل الرسائل التي نظَّرت للكتابة في هذا النوع من الرسائل، وهي رسالة عبد الحميد الكاتب، التي تعتبر أشهر رسالة ديوانية في ذلك العصر. قسمنا هذا الفصل إلى مباحث وفق الحقول المصطلحية، وهي:

المبحث الأول: حقل مصطلحات الرسالة الديوانية: جمعنا كل المصطلحات الخاصة بالرسالة الديوانية كما وردت في الرسالة.

المبحث الثاني: حقل مصطلحات بنية النظام السياسي: ركزنا على المصطلحات التي تحدد النظام السياسي في العصر الأموي.

المبحث الثالث: حقل مصطلحات كاتب الخراج: ركزنا على المصطلحات التي تحدد النظام السياسي للعصر الأموي.

المبحث الرابع: المرجعية الفكرية لعبد الحميد الكاتب في وضع مصطلحات خاصة بالرسائل الديوانية، تناولنا فيه مرجعيته الفكرية في تأسيس مبادئ الكتابة الديوانية للكتاب، ووضع المصطلحات.

الفصل الرابع: "**التطور المصطلحي في الرسالة العذراء لابن المدبر خلال العصر العباسي**": تناولنا دراسة الرسالة العذراء، وهي من أبرز الرسائل الديوانية في العصر العباسي. قسمناه إلى المباحث التالية:

المبحث الأول: حقل مصطلحات صنعة الرسالة الديوانية: جمعنا فيه المصطلحات المتعلقة بالرسالة الديوانية.

المبحث الثاني: حقل مصطلحات أنواع الرسالة الديوانية: تناولنا أنواع الرسائل كما صنفها ابن المدبر.

المبحث الثالث: حقل مصطلحات صُنَّاع الرسائل الديوانية: رصدنا الكتاب المتخصصين في كتابة هذا النوع من الرسائل.

المبحث الرابع: حقل مصطلحات أدوات الكتابة الديوانية: درسنا المصطلحات المرتبطة بالأقلام، الورق، والخط.

المبحث الخامس والأخير: "المرجعية الفكرية لابن المدبر في وضع المصطلحات الخاصة بالرسالة الديوانية"، تناولنا مرجعيته الفكرية في تأسيس مبادئ الكتابة الديوانية للكتاب، ووضع المصطلحات.

الفصل الخامس والأخير بعنوان: " **قراءة القلقشندي للتطور المصطلحي في الرسائل الديوانية خلال العصر العباسي** "، على الرغم من أن القلقشندي لم يكن من العصر العباسي، إلا أنه اهتم بشكل كبير بدراسة وتوثيق الرسائل الديوانية عبر العصور، بما في ذلك العصر العباسي. وقد حرصنا على الاستفادة من موسوعته صبح الاعشى في كتابة الانشا لما تحتويه من مواد غنية تتعلق بالرسائل الديوانية. ركزنا في تحليلينا على ما ذكره بخصوص العصر العباسي، نظرًا لارتباطه الوثيق بموضوع الأطروحة. اخترنا نماذج من المصطلحات التي وردت في موسوعته خلال فترة الحكم العباسي، وقمنا بتقسيمها إلى حقول مصطلحية، كما فعلنا في الفصلين الثالث والرابع، بهدف إحداث تناسق بين الفصول. على هذا النحو:

المبحث الأول: حقل مصطلحات كتابة الإنشاء: جمعنا المصطلحات المتعلقة بكتابة الإنشاء.

المبحث الثاني: حقل مصطلحات المكاتبات: رصدنا مصطلحات الكاتب والمكتوب إليه.

المبحث الثالث: مصطلحات الخط وأدوات الكتابة الديوانية: جمعنا المصطلحات المرتبطة بالخط وأدوات الكتابة.

المبحث الرابع: حقل مصطلحات أنواع المكاتبات في العصر العباسي: ركزنا على الأنواع المختلفة للمكاتبات.

المبحث الخامس والأخير: المرجعية الفكرية للقلقشندي في وضع مصطلحات خاصة بالرسائل الديوانية. درسنا مرجعيته الفكرية في تأسيس مبادئ الكتابة الديوانية للكتاب، ووضع المصطلحات.

ختمنا البحث بمجموعة من النتائج. مع ملحق خاص بمعجم مصطلحات الرسالة الديوانية، مرتب ترتيبا ألفبائيًا، يشمل الشكل، المضمون، الكُتاب، وأدوات الكتابة.

الفصل التمهيدي:

نشأة التدوين عند العرب

من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي.

أولا: تعريف التدوين.

ثانيا: نشأة التدوين عند العرب.

ثالثا: الفرق بين الكتابة في العصر الاموي والكتابة في العصر العباسي.

الفصل التمهيدي: نشأة التدوين عند العرب من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي:

تملك كل أمة تاريخًا وحضارة، حافظت عليهما بواسطة الكتابة منذ أقدم العصور، عن طريق تدوينه على شكل نقوش ورسوم على الصخور، تعبر عمَّا كانوا يعيشونه. برغم من كونها لم تتعدَ الرسوم والنقوش، وليست كتابة بالحروف التي نعرفها، كتبوها بوسائل بدائية جدا؛ لكن ما يهم أنَّهم استطاعوا أن يتركوا أثرًا على طبيعة ونمط حياتهم، استطاع من خلالها العلماء بعد العصور أن يدرسوا هذه الرسوم والنقوش ويعرفوا تاريخ وثقافة كل دولة عبر العصور. من بين الشعوب التي كانت سباقة في اختراع الورق المصريون، حيث أسهمت ابتكاراتهم في توفير المادة الأساسية للكتابة، وهو ما أثَّر بشكل غير مباشر في تطور التدوين عند العرب، الذي شهد تاريخهم أولى محاولات التدوين المنظم مع بزوغ الإسلام وازدهار الثقافة العربية والإسلامية خلال العصرين الأموي والعباسي.

أولا: تعريف التّدوين:

بالنسبة للتعريف اللغوي لمصطلح التدوين، فورد تعريفه في العديد من المعاجم العربية نذكر منها: لسان العرب لابن منظور، الصحاح للجوهري، تاج العروس للزبيدي وغيرها أجمعت على أن التّدوين بمعنى الجمع و الترتيب. نخض بالذكر معجم أساس البلاغة للزمخشري (ت538هـ):

حيث أورد تعريفه : "دوَّن الكتب : جَمَعها"[1].

أمَّا المعاجم السياقية، نذكر منها:

معجم اللُّغة العربية المعاصرة لأحمد مختار عمر(ت2003م) مادة دوَّن بأنها تحمل معنى: "دوَّن الشيء سجَّله، أثبته بالكتابة حفظًا له من الضياع"[2].

أمَّا من المعاجم المعاصرة نذكر :

في المعجم الوسيط تمَّ تعريفه على هذا النحو : "(دوَّن) الديوان : أنشأه – وجمعه، والكتب جمعها ورتَّبها"[3].

انطلاقا من التعريفات السابقة، القديم منها والحديث فإنَّ التَّدوين: هو تسجيل للمعلومات والحقائق للحفاظ عليها من الضياع ولتبقى مسَّجلة عبر التاريخ، تتناقلها الأجيال عبر العصور.

ثانيا: نشأة التدوين عند العرب:

قبل الخوض في التدوين ومظاهره في العصرين الأموي والعباسي، سنتطرق للتدوين في كلٍّ من العصرين الجاهلي والإسلامي، هل عرفوا تدوينا بمعناه الحقيقي أم لا:

[1] الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي ، أساس البلاغة، (مادة دون)، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1419هـ /1997م، 204/1.

[2] أحمد مختار عمر، معجم اللُّغة العربية المعاصرة، مادة (د و ن) مكتبة لسان العرب، ط1، 1429هـ/2008م 791/1.

[3] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مادة(دون)، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 1425هـ/2004م، ص305.

1. الكتابة في العصر الجاهلي:

في مستهل الحديث، يجب أن ننوه إلى أنَّ أوَّل من خطَّ بالقلم كانوا العراقيين بما عُرف بالكتابة السومرية (المسمارية)، للتوضيح السومريون ليسوا من العرب ولغتهم لا تنتمي إلى العائلة السامية المعرفة. "قد قدَّم الشرق الأدنى القديم للعالم أوَّل كتابتين هامتين وهما: الكتابة السومارية والكتابة الهيروغليفية المصرية"[1]. فهذا يدل بالضرورة على معرفتهم بالكتابة التي تجسدت على شكل نقوش ورموز ورسوم. أمّا بالنسبة لموضوع التدوين، سنحاول تتبع تطوره منذ العصر الجاهلي، الذي حصل بخصوصه تناقض في الآراء حول وجوده من عدمه؛ إلاَّ أنَّه من المعلوم وحقيقة مثبتة أنَّهم دونوا أشعارهم التي تفننوا في نظمها على جدران الكعبة بماء الذهب، فاستطاعوا من خلالها تدوين أخبارهم وأيَّامهم وأنسابهم وحروبهم وتاريخهم. كذلك وُجدت العديد من النُّقوش قديمة الزمن في منطقة حمير الموجودة باليمن مما يعني أنَّهم عرفوا قيمة الكتابة في تسجيل تاريخهم وحضارتهم رغم البداوة المنتشرة في أغلب المناطق التي كانوا يعيشونها وانعدام وسائل وأدوات الكتابة من ورق وأقلام وغير ذلك.

وجدير بالذكر أنَّه انتشر بين الناس أنَّ العرب في جاهليتهم كانت أمة منعزلة عن العالم، موغلة في البداوة، لم تتصل بغيرها بأي شكل من الأشكال، وفسروا ذلك أنَّ الصحراء تحيطهم من جانب والبحر من جانب آخر، فبتالي جعلها منحصرة منعزلة لا تتصل بغيرها لا ماديا ولا أدبيا. والحق أنَّ هذه الفكرة خاطئة، وأنَّ العرب كانوا على اتصال بمن حولهم ماديًا وأدبيًا، وإن كان هذا الاتصال أضعف مما كان بين الأمم المتحضرة لذلك العهد، نظرا لموقعها الجغرافي ولحالتها الاجتماعية. وكان هذا الاتصال بين العرب وغيرهم كان من طرق عدة، أهمها: التجارة، إنشاء المدن العربية

[1] يوهانس فريديريش، تاريخ الكتابة، تر: سليمان أحمد الضاهر، وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتَّاب، دمشق، ط1، 2004م، ص55.

المتاخمة لفارس والروم، البعثات اليهودية والنصرانية التي كانت تتغلغل في جزيرة العرب، تدعو إلى دينها وتنشر تعاليمها[1].

إذا مما لا يدع مجالاً للشك، أنَّ الجزيرة العربية كانت ذات حضارة، خالطت الأعاجم لم تكن منعزلة كما يظن الأغلبية. ولعله من المفيد أن نؤكد أنَّ مكة كانت من المدن التجارية، فمن البديهي أنَّهم تواصلهم مع الأمم المجاورة لهم من فرس ويونان وغيرهم. في هذا الصدد قال حسين نصَّار: "وكان لمكة مركز خاص في التجارة، إذ كانت على مفترق عدة طرق تجارية تسير إلى أنحاء شبه الجزيرة المختلفة، ومنها إلى أقطار العالم القديم"[2]، مضيفا: "نستطيع أن ننكر العزلة المدعاة إنكارا شديدا دون أن نخاف لوم أحد"[3]. وعليه، فالعرب كأي أمة عرفوا المدينة بحضارتها وعرفوا البدو بعزلته، لذلك الادعاءات التي نُسبت للعرب بأنَّهم أمة بدوية عاشوا منعزلين عن الأمم المجاورة لهم لا أساس لها من الصحة.

حول التدوين في العصر الجاهلي، اختلف الدارسون بين مؤيدين لفكرة وجوده ومعارضين لها، ومدى معرفة العرب به. سيتِمّ توضيحهما من خلال ما يلي :

1.1 المؤيدون لفكرة التَّدوين في العصر الجاهلي:

سنحاول من خلال الأقوال التي سيتم ذكرها، توضيح أو إثبات معرفة العرب التَّدوين في العصر الجاهلي محاولين الوقوف على أهَّم مظاهرها:

عرَف العرب الكتابة منذ العصر الجاهلي، حيث جعلوا منها وسيلة لتدوين عقود البيع والتجارة، وتوثيق المعاهدات والدُّيون؛ هذا ما ذهب إليه الجاحظ (ت255هـ) في

[1] ينظر: أحمد أمين، فجر الإسلام، موسوعة أحمد أمين الإسلامية، ط10، 1969م، ص12.
[2] حسين نصَّار، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، مكتبة الثقافة الدينية، ط01، 2002م، ص22.
[3] المرجع نفسه، ص24.

كتابه الحيوان قائلا: " لولا الخطوط لبطُلت العقود والشروط والسَّجلات والصكاك، وكل إقطاع وكل إنفاق وكل أمان وكل عهد وكل عقد، وكل حلف، ولتعظيم ذلك والثِّقة به والاستناد إليه كانوا يدْعون في الجاهلية من يكُتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيما للأمر وتبعيدا من النسيان"[1]. وعليه، حسب قول الجاحظ، الكتابة في عصرهم ارتبطت بأغراض اجتماعية، لا بأغراض فنية أو تعبيرية، اتَّخذوا منها وسيلة لتدوين حاجاتهم فقط.

ذكر عز الدين إسماعيل(ت1973م) في كتابه المصادر الأدبية واللغوية في التراث: "قد عرَفوا الكتابة منذ العصر الجاهلي، بخاصة في مراكز التحَّضر المختلفة آنذاك، في الشمال الشرقي لشبه جزيرة العرب، وفي شمالها الغربي، وفي اليمن جنوبا، وفي الحجاز أيضا، وفي مكة والمدينة"[2]. وتأسيسًا على قوله، ارتبطت فكرة التَّدوين بالتَّمدن؛ فالمناطق التي ذكرها كانت مناطق تجارية منفتحة ومجاورة للأمم الأعجمية، أما القبائل البدائية فلم تعرف التَّدوين نتيجة لانغلاقها على نفسها، فكلما تمدنت المناطق، كلما تحضرت.

يمكننا إثبات معرفة العرب بالتَّدوين في العصر الجاهلي من خلال عرض وسائل التدوين التي ذكرها العرب في أشعارهم: عسب النخل، اللحاف (حجارة بيضاء رقيقة يصلح للكتابة عليها)، عظام الكتف العريضة والأضلاع، والقماش. بالإضافة إلى نوع من الورق يُعرف باسم المهارق: قماش من الحرير، كان يُطلى أو يُسقى بالصمغ ثم يُصقل بالخزرة، ثم يُستخدم في الكتابة. حيث قال الحارث بن حلزة :

---

[1] الجاحظ عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي البصري، الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، ط2، 1384هـ/1965م، 69/1.

[2] عز الدين إسماعيل، المصادر الأدبية واللغوية في التراث، مكتبة غريب، دط، دت، ص 13.

لمن الديار عَفَون بالحُبس آياتها كمهارق الفرس"[1]

من الطبيعي، كونهم عرفوا هذه الوسائل، خاصة أنها تحتاج جهدًا لصناعتها وليست جاهزة الصنع، أنهم عرفوا التَّدوين حتى لو كان بنسبة بسيطة، مما يعني أنهم أدركوا الحاجة إلى التَّدوين في وقت مبكر. و" من أشهر من عرف الكتابة في الجاهلية الشاعران المعروفان لبيد والمرقش الأكبر؛ فقد كانا، إلى جانب اعتمادهما على الرواة لحفظ شعرهما، يعمدان أحيانًا إلى كتابته، فلبيد يقول في معلقته ذاكرا الكتب والأقلام :

وَجَلاَ السيُّول عن الطلولِ كأنَّها زُبرٌ تُجِدُّ مُتُونها أقلامُها.

ويقول المرقش الأكبر مشيرا إلى نفس الموضوع :

الدارُ قَفْرٌ والرسومُ كما رقّش في ظهرِ الأديمِ قَلَمْ[2].

بالنسبة للكتابات التي وُجدت منذ العصر الجاهلي، فهي على شكل نقوش مرتبطة بأمور شخصية وهذا ما ذهب إليه جوادَّ علي (ت1987م): "وأغلب الكتابات الجاهلية التي عثر عليها وهي ويا للأسف في أمور شخصية "[3]. وبناءً على قوله، ارتبطت الكتابة بالأمور الشخصية مثلا نقشهم لبعض أسماء الملوك أو بعض الأخبار عن الحروب أو أنسابهم وغير ذلك، مما يدل أنَّها ليست كتابة فنية أو علمية. أو كتابة عهود الأمان مثلما ذكر الجاحظ.

[1] عز الدين إسماعيل، المصادر اللغوية والأدبية في التراث، ص 41.

[2] مصطفى الشكعه، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، كتاب النثر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط02، 1974م، 2/ 07.

[3] جواد علي، المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط2، 1413ه/1993م، 44/1.

كذلك نجد أنَّ شوقي ضيف (ت 2005م) قد خطى تقريبا نفس الاتجاه حيث قال: "كان العرب في الجاهلية أميين، لا يعرف القراءة والكتابة إلاَّ القليل منهم"[1]؛ في قوله تأكيد أن العرب في الجاهلية عرَفوا الكتابة، لكن حصرها بفئة معينة قليلة، وذلك طبيعي نظرا للمحيط والبيئة آنذاك لا تسمح للجميع بالكتابة والتدوين. لأنه من المعروف أن العصر الجاهلي الذي انتهى بظهور الإسلام تغلب عليه الأمية فلم يعرف الكتابة من أهله إلاَّ أفراد قلائل ولا عجب ويعود هذا لأسباب منها: قيامه على النظام القبلي وأكبر همه تربية الإبل والشاه والتجارة والسلاح للدفاع عن النفس. اعتمادهم في حفظ أخبارهم وأنسابهم على الرواية الشفوية أكثر من اعتمادهم على الكتابة[2].

فيمكن القول إن العربي في العصر الجاهلي اعتمد على حفظ أخباره و أنسابه عبر الرواية الشفوية. وهذا أمر طبيعي نظرًا لطبيعة الحياة التي كان يعيشونها، وكون غالبيتهم أميين لا يعرفون الكتابة. كانت الكتابة في ذلك الوقت موجودة، لكنها كانت مقتصرة على فئة قليلة من الناس. وكان نطاق استخدامها محدودا، كون الكتابة بالحروف التي نعرفها اليوم بدأت تتطور تدريجيا. كما كان هناك استخدام محدود للكتابة، كما رأينا مع قول الجاحظ. بشكل عام، كانت الرواية الشفوية هي الوسيلة الرئيسية لحفظ ونقل المعلومات والأخبار بين العرب في ذلك العصر.

ما يجب أن نتطرق إليه، معرفتهم لوسائل التدوين يعني بالضرورة أنهم استعملوا خطًا للكتابة والتَّدوين، مما يقودنا لمعرفة أين نشأ الخط العربي. في هذا الصدد ذكر شوقي ضيف في كتابه تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي : "الخط العربي نشأ وتطور شمالي الحجاز، وأنه لا يرجع في نشأته وتطوره إلى بلاد العراق، نشأ من الخط

[1] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، دار المعارف، ط7، دت، ص 451.

[2] ينظر: ياسر سهيل، تصميم الخط العربي الابتكار والابداع، دار الكتاب الحديث، دط، 1435هـ/2014م، ص20.

النبطي وتطور حتى أخذ صيغته النهائية في أوائل القرن السادس الميلادي في تلك البيئة الوثنية العربية الخالصة "[1]. فأكد بقوله أن أصل الخط العربي من الخط النبطي، هذا أمر منطقي نتيجة قيام مملكة النبط في شمال الحجاز. نضيف، قول حسين نصَّار:" لهذا نقول أنَّ الخط العربي لم يؤخذ من الحيرة أو اليمن أو غيرهما، و إنما ولد ونشأ في بلاد العرب الشمالية "الحجاز، لأنَّ الكتابة من الأشياء الضرورية للتجارة "[2]. بذلك فهو يقر أن الميلاد الحقيقي للخط العربي في شمال الحجاز، فيتفق برأيه مع رأي شوقي ضيف، وينكر رأي أنَّ الخط العربي مأخوذ من اليمن، وربط الكتابة فكرة الكتابة بالتجارة لكون بلاد الحجاز عُرفت بالتجارة.

وعليه، فإن الخط العربي من المؤكد أنَّه ظهر في شمال الجزيرة العربية حيث مملكة "النبط"، وقد تكونت من قبائل عربية نزحت من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى شمالها حيث المدينة، ويقال بأن أول من أدخل الكتابة إلى مكة هو "بشر بن عبد الملك" الذي تعلم الكتابة بالحروف النبطية من الأنبار[3]. بهذا، اتضح لنا أن العرب في العصر الجاهلي عرفوا التَّدوين، لكن كان على شكل نقوش وُجدت في مناطق محددة. أمَّا الآن سننتقل للرأي المخالف للرأي السابق.

1.2 المعارضون لفكرة التدوين في العصر الجاهلي:

لا يفوتنا أن ننوه أنَّ الدارس لتاريخ العرب قبل الإسلام لا يكاد يجد أي كتاب مدوَّن، الأمر الذي جعل عديدا من الدَّارسين ذهبوا يتبنون فكرة أنَّ العرب في العصر الجاهلي لم يعرفوا التَّدوين إطلاقا، بل اعتمدوا في نقل أخبارهم على الرواية الشفوية.

---

[1] ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف، ط11، دت، ص37.

[2] حسين نصَّار، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص25.

[3] ينظر: ياسر سهيل، تصميم الخط العربي الابتكار والابداع، دار الكتاب الحديث، دط، 1435هـ/2014م، ص20-21.

سنذكر فيما يأتي أهَّم الأقوال حول هذه المسألة لنتمكن من بيان صحة هذه الآراء من خطئها: من أشهر الدارسين الذين طعنوا في حياة العرب الجاهلية وأنكروا حتى شعرهم طه حسين(ت1973م) في كتابه في "الأدب الجاهلي"، حيث أكدَّ على ذلك بقوله: "فإذا أردت أن أدرس الحياة الجاهلية فلست أسلك إليها طريق امرئ القيس والنابغة والأعشى وزهير وقس بن ساعدة وأكثم بن صيفي لأني لا أثق بما يُنسب إليهم، فحياة العرب الجاهليين ظاهرة في شعر الفرزدق وجرير وذي الرُّمة والأخطل والرَّاعي أكثر من ظهورها في هذا الشعر الذي يُنسب إلى طرفة وعنترة وبشر بن أبي خازم"[1]، في قوله تصريح بأنَّ الشعر الجاهلي لا وجود له، من خلال قوله: لا أثق بما يُنسب إليهم، فهو يؤكد أنَّ العرب ينسب إليهم إلاَّ الشعر الإسلامي أو المخضرم. لكن في قوله مبالغة، صحيح، يمكننا القول أنَّهم لم يعرفوا الكتابة الفنية؛ إلاَّ أنَّهم أجادوا وصنَّفوا أجود الأشعار وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها. وقد توارثوا هذه الأشعار مشافهة في العصر الجاهلي، نظرا لغياب ثقافة التدوين، لربما هذا السبب الذي جعل طه حسين يشكك في وجود شعر أو أدب جاهلي.

قال عمر الدقَّاق (ت 2020م) في كتابه مصادر التراث العربي:" لم يكن للعرب في فترة الإسلام ثقافة مدوَّنة وعلوم مسجلة، فقد غلبت عليهم البداوة، واستغرق حياتهم التَّنقل، ولم يتركوا خلال هذه الحقبة المديدة الغامضة من فجر حياتهم سوى نقوش قليلة تنبئ عما كان لهم من دور حضاري"[2]. من خلال قوله، هناك إشارة صريحة أنَّ العرب لم يعرفوا التدوين في هذه الحقبة من حياتهم. يعود ذلك في نظره لغلبة الطابع البدوي على حياتهم، الذي لم يتح لهم سوى النقش على الصخور. لكن لا

[1] ينظر: طه حسين، في الأدب الجاهلي، مطبعة فاروق القاهرة، ط3، 1352هـ/1933م، ص69.

[2] عمر الدقاق، مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم، بيروت، ط3، 1972م، ص 07.

يمكن أن نعدَّ النقش على الصخور نوعا من التَّدوين الفعلي، فلم تتجاوز هذه النقوش كما قلنا رسوما أو إشارات.

في نفس الاتجاه ذهب شوقي قال: "لا نكاد نجد للعرب في الجاهلية تاريخا مدوَّنا باستثناء بعض النقوش على المباني القديمة في اليمن التي تحكي أخبار بعض ملوكهم وشؤونهم العامة "[1]. لذلك، "ظلت الكتابة في العصر الجاهلي بعيدة عن المستوى الفني، حيث ظلت المرويات الشِفاهية ممثلة لقياس النقل عبر أجيال البيئة حتى مجيء عصر التدوين، إلى أن يشهد القرن الثاني الهجري مستويات نشطة من جمع علوم الأوائل تصنيفها وترجمة علوم الأجانب والتأليف حولها"[2]. فالعصر الجاهلي تم فيه اتخاذ الرواية الشفاهية الوسيلة الأولى للحفاظ على أشعارهم، وتاريخهم، وأمثالهم، حتى مجيء صدر الإسلام، البداية الأكيدة لتدوين العلوم والمعارف ونفسِّر غياب التدوين في العصر الجاهلي بـ" غيبة فكرة الدولة ورموز المواطنة وفيما قبل تبلور النظم السياسية لم تكن بحاجة إلى الكتابة على المستوى الفني الذي بدأت طلائعه في الظهور الفعلي مع مجيء عصر صدر الإسلام "[3]. بطبيعة الحال، ركز العرب في العصر الجاهلي على السماع والحفظ وتناقل أشعارهم ونثرهم مشافهة. وعليه، " فانحصرت آثار العرب النثرية في أبواب من المناظرات والمحاورات والمنافرات والمشاورات والخطابة، جاءت إلينا كلَّها مروية على ألسنة الرواة، مسجلة في كتب الأدب عند أبي عبيدة وابن قتيبة

[1] شوقي جمل، علم التاريخ نشأته وتطوره ووضعه بين العلوم الأخرى ومناهج البحث فيه، المكتب المصري، دت، دط، ص 26.

[2] ينظر: مي يوسف خليف، النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي دراسة تحليلية، دار قباء، القاهرة، دط، دت، ص26.

[3] المرجع نفسه، ص26.

والجاحظ والمبرّد والثعالبي وأصحاب الأمالي وغيرها ثمَّ تجمعت في كتب الموسوعات"[1].

من خلال الآراء سابقة الذكر بين مؤيد ومعارض لوجود التَّدوين في العصر الجاهلي من عدمه، سألخصها في الجدول التالي:

وجود التدوين في العصر الجاهلي.	لا وجود لتدوين في العصر الجاهلي.
بالنسبة لهذا الاتجاه، دليلهم: ـ الخط العربي أول خط عرفته البشرية. ـ النقوش والرسوم التي وُجدت في شمال الجزيرة العربية واليمن وحمير. ـ أدوات الكتابة التي ذكرها شعراء العصر الجاهلي في أشعارهم.	بالنسبة لهذا الاتجاه، دليلهم: ـ اعتماد العرب في الجاهلية على الرواية الشفوية في حفظ أنسابهم وأيامهم وأخبارهم. ـ غلبة الطابع البدوي على حياتهم. ـ الأمية التي كانوا يعيشونها، ومعرفة عدد قليل جدا للكتابة.

جدول رقم 01: يوضح آراء حول وجود التدوين أو عدمه في العصر الجاهلي.

قراءة تحليلية للجدول:

انطلاقا من الجدول، وصلت لرأي وسط بين الرأيين : أنَّ العرب بالتأكيد عرفوا الكتابة في العصر الجاهلي، والدليل على ذلك معرفتهم لوسائل الكتابة أولاً، ثمَّ النقوش التي تركوها ثانيًا. لكن هذا لا يعني أنَّهم عرَفوا الكتابة الفنية أو التدوين في العلوم والمعارف. فأغلب ما وصل لنا من تلك المرحلة الأشعار التي حُفظت مشافهة عبر الأجيال والفنون النثرية المختلفة من خطابة ومناظرات إلى غير ذلك. إلا أنه من المؤكد معرفتهم للكتابة من خلال المصطلحات الخاصة بأنواع الورق وأدوات الكتابة

[1] مصطفى الشكعه، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، كتاب النثر، 08/2.

التي ذكرها الشعراء في أبياتهم الشعرية، بالإضافة للنقوش والرسوم التي وُجدت كما رأينا في شمال الحجاز وبعض المناطق التي عرفت الحضارة. وعليه، فالدارسون الذين أنكروا أنَّ العرب لم يعرفوا تدوينا في العصر الجاهلي على حق، لأنَّه لم يصلنا ولا كتاب مدون من تلك الحِقبة؛ فالتدوين كما رأينا يُقصد به الجمع والترتيب والتصنيف، فهو بذلك يختلف عن الكتابة التي يُقصد بها كل ما يخط بالقلم. وبناءً على ذلك، فالعرب في العصر الجاهلي عرفوا الكتابة، أمَّا بالنسبة للتدوين بمفهومه الحقيقي، بدأ مع العصر الإسلامي وهذا الذي سنبينه.

2. التدوين في العصر الإسلامي:

من المعلوم بل من المؤكد أنَّ الإسلام أحدث تغييرا جذريًا في حياة العرب من جميع الجوانب والنواحي المختلفة، فمع نزول القرآن الكريم المقدَّس الذي أخرجهم من جهلهم ومن عبادتهم للأصنام وحرَّر العبيد وأعطى قيمة كبيرة للعلم حيث كانت أول الآيات التي نزلت على سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم قوله تعالى : ﴿**ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥**﴾(سورة العلق: الآية 05). لذلك، نظرا لقيمته العظيمة ومكانته بالنسبة للمسلمين خشوا عليه من الضياع، ففكرُّوا أنَّ الحفظ والرواية الشفوية ليست كافية فتوصلوا لضرورة تدوينه، ومن هنا بدأت نشأة التدوين بصفة رسمية.

هذا ما ذهب إليه العديد من الدَّارسين، نذكر منهم :

شوقي ضيف في كتابه "العصر الإسلامي" قال : "وقد أخذوا يتحوَّلون سريعا من أمة أمية لا تعرف من المعارف إلا ما حواه الصدر ووعته الآذان إلى أمة كاتبة، تدون معارفها العربية والإسلامية واضعة بعض المصنفات ومضيفة إلى ذلك بعض المعارف الأجنبية"[1]. فأكدَّ على حقيقة لا شك فيها، تكمن في التَّغيير الذي أحدثه

[1] شوقي ضيف، العصر الإسلامي، ص 451.

الإسلام فبمجرد نزول القرآن نقل أمَّة كانت عبر سنين أمية جاهلة للقراءة والكتابة إلى أمَّة تكتب وتقرأ، من أمَّة تنقل أخبارها مشافهة إلى أمَّة تدون علومها ومعارفها. وبذلك "إنَّ المتتبع لسيرورة تدوين التاريخ العربي يمكن أن يقر أنَّ الدور الحقيقي للعرب في التدوين بدأ بتدوين القرآن الكريم فعملية جمع آيات القرآن شكلت أهم خطوة بها العرب وكانت أعظم دليل على بداية التدوين "[1]. بهذا كان القرآن الكريم من أهم الأسباب الداعية للتَّدوين بالإضافة إلى عوامل أخرى، منها:

احتاج المسلمون في تفسير الآيات القرآنية إلى معرفة مناسباتها، أعني سبب نزولها، والموضع الذي نزلت فيه، والحادثة التي تشير إليها، وما إلى ذلك وهكذا كان التَّفسير من العوامل التي أدت إلى التدوين التاريخي.

كان الحديث أيضا من عوامل تدوين التَّاريخ، إذ عنى المسلمون بجمع الأحاديث ليفسروا بها القرآن، ويستنبطوا منها أحكام الدين.

كان نظام الحكومة الإسلامية، وخاصة النظام المالي، من العوامل التي أدَّت إلى قيام الحركة التاريخية وانتشارها –حركة التَّدوين– فانتشار المعاملات السياسية والإجتماعية أدَّت لظهور الدَّواوين المختلفة وانتشار الرَّسائل الديوانية بين الملوك في تلك الحقبة.

استمرار العناية برواية الأخبار والأمم والأنساب شعرًا أو نثرًا إلاَّ أنَّ الفرق بين العصرين الجاهلي رووا أما الإسلاميون دوَّنوا[2].

اعتنى الرسول صلى الله عليه وسلم بتدوين القرآن الكريم ويظهر ذلك من خلال:

[1] محي الدين عبد حسين عرَّاب، التدوين التاريخي في العصر اليوناني وصدر الإسلام، الإعصار العلمي، مكتبة طريق العلم، ط01، 2016/1437، ص141.

[2] ينظر: حسين نصار، نشأة التدوين التاريخي عند العرب، مكتبة النهضة المصرية، دط، دت، ص 9-10-11.

حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على كتابة القرآن دون ما سواه. اتخذ لنفسه كتبة يقومون بمهمة تدوين القرآن بين يديه، منهم زيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان.

كان يكتب على أي شيء توفر إليه، نظرا لكون الإمكانات المادية لم تكن في بداية الدعوة الإسلامية متاحة كما أتيحت للخلفاء الراشدين بعده، من العسب والأكتاف والرقاع إلى غير ذلك من وسائل الكتابة البدائية.

حرص حرصا شديدا على كتابة كل القرآن، فسهل بذلك عملية جمعه ممن جاء بعده[1]. فيبدو من حرصه الشديد على تدوين القرآن، كونه أدرك أنَّ الرواية الشفوية والحفظ غير كافيان للمحافظة عليه، فاهتم بتسجيله دون أن ينقص منه شيء، برغم من الوسائل البدائية المتوفرة، فمهَّد وسهل الطريق لمراحل جمعه وتدوينه بعد وفاته عليه السلام. تمثلت هذه المراحل في:

المرحلة الأولى: في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم: كما رأينا اعتنى الرسول عليه الصلاة والسلام عناية خاصة بالقرآن الكريم، وكان كلما نزل عليه الوحي يُحضر كُتَّابا ويملي عليهم، فبذلك دونه كُلَّه.

المرحلة الثانية: في عهد الصحابة: بعد حروب الردة التي استشهد فيها عدد كبير من حفظة القرآن، أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه جمع الصُحف وتدوينها وترتيبها خِشية ضياعها، فاستجاب الخليفة أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ لطلب

[1] ينظر: حمزة عوَّاد، الجمع النبوي للقرآن الكريم، مجلة الحضارة الإسلامية، ع2، 2018، مج19، ص26-27.

عمر وكلف زيد بن ثابت وعمر بجمعها، ودام ذلك مدة النقل عن السنتين، ثمَّ سُمي بالمصحف[1].

المرحلة الثالثة: في عهد عثمان رضي الله عنه:

نتيجة اتساع الفتوحات الإسلامية وتفرق المسلمين في عهد عثمان بن عفان، وقع اختلاف وجوه قراءة القرآن الكريم من مكان لآخر، فخشيَ عليه عثمان رضي الله عنه من اللحن فيَحدث بذلك فساد كبير، لذلك وجَّه عثمان بن عفان إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنهما، وسأل منها إرسال الصُحف التي جمع فيها القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه. صادق عثمان ـ رضي الله عنه ـ مع الكُتَّاب ـ رضي الله عنهم ـ منهجا جديدا في نسخ المصاحف العثمانية يتضمن: التأكد من صحة النص القرآني، حين اختلاف الكتبة في شيء من القرآن يكتبوه بلغة قريش مع الالتزام بالقراءات المتواترة دون غيرها، الكلمات التي لا تختلف فيها وجوه القراءات تُكتب بصورة واحدة أمَّا الكلمات التي لا تتغير فيها وجوه القراءات فتُكتب بالوجوه المحتملة لها لكون القرآن لم يكن مُنقطا في ذلك الوقت[2].

بعد ذلك، انطلقت مرحلة تنقيط القرآن وضبط شكله، وتوجد روايات كثيرة تؤكد بأنَّ أبا الأسود الدؤلي (المتوفى 69هـ/688م) أوَّل من وضع أوَّل علامات تدُّل على الحركات والتنوين، بناءً على أمر من زياد بن أبيه (المتوفى 35هـ/673م)[3].

---

[1] ينظر: محمد بن عزوزي، أصل الكتابة العربية ودور القرآن الكريم في الارتقاء بها ـ دراسة فنية تاريخية ـ مجلة الدراسات الإسلامية، ع03، سبتمبر 2013، ص 425.

[2] ينظر: عوض أحمد الناشري الشهري، المصحف العثماني توصيفه ـ تاريخه ـ هل كتبه عثمان بيده؟ ـ هل موجود الآن؟، المعيد بكلية الشريعة وأصول الدين ـ جامعة الملك خالد بأبها، ص 2-3، https://quranpedia.net .

[3] ينظر: فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي في علوم القرآن، تر: فهمي حجازي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، دط، 1411 هـ/1991م، ص20.

أمَّا، بالنسبة لتدوين الحديث، فقد نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم، فعن أبي سعيد الخدري أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " لا تَكْتُبُوا عَني غيرَ القُرآنِ، ومَنْ كَتَبَ عَني غَيْرَ القُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ". فاكتفى الصحابة بحفظه واستمرت بذلك الرواية الشفوية، والدليل على هذا كون أنَّها أُقيمت رحلات كثيرة من العلماء بغية منهم في جمع الحديث النبوي، فكانوا يجتازون مسافات شاسعة لسماع حديث أو التأكد من صحته وضبطه، أو مقابلة صحابي ومرافقته، للأخذ عنه، نظرا لأنَّ الصحابة في عهد التابعين تفرقوا في البلدان وحملوا في صدورهم الحديث النبوي، مما اضطرهم إلى السفر من بلاد لأخرى لجمع الأحاديث حتى تمَّ توثيقه في مراجعه الكبرى[1]. وبذلك، فالحديث لم يُدَّون فعلا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ويعود ذلك لسببين: الأول الحرص التام على تدوين القرآن الكريم، والثاني خِشية أن يختلط الحديث بالقرآن الكريم. وهناك من قال إنَّ عليً رضي الله عنه كتب بعض الأحاديث من الرسول صلى الله عليه وسلم فاقت السبعين ذراعا، بالتالي دُون الحديث أو البعض منه، هذا أمر شائك قليلا لسنا بصدد للتفصيل فيه، أردنا فقط التنويه كيف تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع الحديث.

تأسيسا على ما سبق، نلاحظ أنَّ القرآن الكريم كان السبب الرَّئيسي للتَّدوين. ومع رغبة الرسول صلى الله عليه وسلم في تبليغ رسالته إلى مختلف الأمم، بدأ بكتابة الرَّسائل وإرسالها للأمم المجاورة. هذا ما ذهب إليه شوقي ضيف بقوله: " الكتابة أخذت تستخدم استخداما واسعا لا في كتابة القرآن الكريم فحسب بل في كتابة كثير من شؤون المسلمين، وكان الرسول عليه السلام يكتب كثيرا من عهود الأمان ومن المعاهدات،

[1] ينظر: محمد عجاج الخطيب، السنة قبل التدوين، مكتبة وهبة، ط02، 1988م، ص176.

كما كان يُكاتب الأمراء والملوك من العرب وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام[1]. بهذا عرف العرب نوعا جديدا من الكتابة وهي– الرَّسائل –، كانت بدايتها مع الرسول صلى الله عليه وسلم؛ إلا أنَّ غرضه لم يكن التحبير الفني بل كان يؤدي غرضا سياسيا في صورة موجزة، لا يعمد إلى التزويق؛ إنما يعمد إلى فكرته وتبليغ دعوة الإسلام ورسالته في غير إسهاب. وفي ذلك تبعه الصحابة– رضي الله عنهم – في كتابة المعاهدات والرسائل[2]. بهذا، بدأت الرَّسائل لأغراض سياسية ودينية، وليس لأغراض فنية جمالية؛ لكن هذا لا يعني أنَّها لم تتطور وأصبحت فنًا قائما بذاته. هذا الذي سنوضحه من خلال العصرين الأموي والعباسي محاولين الوقوف على أهم التغيرات بين رسائل الرَّسول عليه السلام وبين رسائل هذين العصرين.

كخلاصة لما تمَّ عرضه في هذا العصر، نصل لحقيقة لا شك فيها تكمن في أن الإسلام أخرج العرب من البداوة ومن الجهل وأدخلهم في التحضر والعلم، نقلهم من الرواية الشفوية إلى التدوين والكتابة، جعل منهم أمَّة منفتحة على غيرها من الأمم بعد أن كانوا أمَّة منغلقة على نفسها لا تخالط العجم إلا للضرورة كالتجارة.

3. التدوين في العصر الأموي:

نتيجة الفتوحات الإسلامية، أصبح للمسلمين دولة تملك نظامًا إداريًا يسعى لتنظيم شؤونها، بعدما كانت فكرة الدولة غائبة في العصر الجاهلي. إضافة إلى الصراعات السياسية بين الأحزاب في هذا العصر، كلُّ هذه الظروف أثرت على الحياة الأدبية والفكرية. أدَّى ذلك بالضرورة للاهتمام بالكتابة التي بدأت معالمها تتشكل كما رأينا مع الرسول صلى الله عليه وسلم في تدوين القرآن الكريم واقتصر التدوين عليه.

[1] شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، مكتبة الدراسات الأدبية، ط10، دت، ص12

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص98.

أمَّا؛ "إذا انتقلنا إلى عصر بني أميَّة وجدنا الكتابة ترقى رقيًا عظيما إذ تحضَّر العرب، وأخذوا يستعيرون كثيرا من النظم الأجنبية ومواد الثقافات لدى الأمم المفتوحة"[1]. وهذا أمر طبيعي أن يأخذوا من الأمم الأجنبية لكونها عرفت التدوين في مختلف العلوم قبل العرب. لذلك سنرصد أهم مدونات هذا العصر، أو مجالات الكتابة:

الكتابة السياسية: نتيجة الصراعات السياسية، وتوسع الدولة وأصبحت لها علاقات داخلية وخارجية، ظهر ما عُرف بالكتابة الديوانية نسبة لديوان الرسائل الذي أنشأه معاوية بن أبي سفيان في هذا العصر.

الكتابة الدينية: مثلما رأينا، لم يُدون الحديث في العصر الإسلامي، وتُجمع مختلف المصادر على كونه جُمع ودُوِن في العصر الأموي، رغم وجود بعض الآراء التي تذهب لفكرة أنَّه جُمع من طرف الصحابة في الرقاع والعظام تماما كما كان حال القرآن الكريم. إلاَّ أن الجمع والتدوين الفعلي له كان مع عمر بن عبد العزيز حيث" خشي عمر بن عبد العزيز اندراس السنة، وتسرب الوضع إليها، فأمر بجمعها على أيدي كبار علماء التابعين، وأمر المسؤولين في مختلف أقاليم الدولة الإسلامية بالإعتناء بالحديث الشريف، وشجيع العلماء على عقد حلقات دراسته في المساجد، وشارك عمر بن عبد العزيز نفسه العلماء في ذلك، ووزع قبل وفاته ما كتبه الإمام الزهرى، فلعمر الفضل الكبير في تحميل الدولة مسؤولية حفظ السنة رسميا"[2]. إضافة لعلوم مرتبطة بالقرآن والحديث ظهرت في العصر الأموي، سنوجزها في:

[1] شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص99.

[2] محمد عجاج الخطيب، السنة قبل التدوين، ص341.

1. التفسير: أول تفسير دُون هو تفسير ابن عباس رحمه الله في عام 68هـ في الطائف وطُبع في مصر في المطلعة الأميرية عام 1290م في سفر واحد، وهو مجموع روايات دونها ابن عباس.

2. الفقه: وقد اشتغل به في العصر الأموي جلة الصحابة والتابعين، ويُقال إنَّ زيد بن علي الحسين أملى كتابًا في الفقه وأنَّه أقدم كتاب في هذا العلم في الإسلام.

3. أصول الدين: يُقال إن واصل بن عطاء ألَّف كتابا في المرجئة وآخر في التوبة وآخر في معاني القرآن[1].

4. الكتابة التاريخية: كانوا في السابق، ينقلون أخبارهم وأيامهم وحروبهم مشافهة، لكن في العصر الأموي يعدون من" أوائل ما عُنوا به من معارفهم العربية الخالصة أخبار آبائهم في الجاهلية وأنسابهم وأشعارهم، ومن ثم كثُر بينهم علماء النسب وأصحاب الأخبار ومن أشهرهم دَغْفل بن حنظلة السَّدوسى المتوفي سنة 70 للهجرة، وله مجالس عند معاوية دُونت في كتاب له اسمه « التضافر والتناصر » بجانب ذلك نجد القبائل تُعنى بأخبارها في الجاهلية وأشعارها فتدونها"[2]. و" يقال إنَّ معاوية استكتب رجلا من أهل اليمن اسمه عبيد ابن شرية الجرهمي، بعض أخبار الأوائل فكتبها له. فكان هذا أول كتاب دُون في التاريخ. وعني الأمويين كذلك بعلم الأنساب"[3].

[1] ينظر: محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام، دار الجيل، بيروت، دط، 1410هـ/ 1990م، ص343-344.

[2] ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي ـ، دار المعارف، مصر، ط07، دت، ص341، 342.

[3] محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام، ص344.

5. الكتابة الرسائلية: نتيجة الظروف السياسية التي عاشها عصر بني أمية، من خصومات وجدال بين الأحزاب السياسية المختلفة، ظهرت أنواع رسائلية فرضتها الظروف السائدة آنذاك، نقسمها لأربع أنواع:

6. الرَّسائل الوعظية: يطلق عليها الرَّسائل الدينية وهي: "ما أرسله كبار رجال الدين والوعَّاظ والزهَّاد إلى الخلفاء والأمراء، والأصدقاء أحيانا، لوعظهم، وتوجيههم الوجهة الدينية التي يريدون، وإظهار رأي الدين في المشكلات التي أمامهم"[1]. مما يعني أنَّ الغرض من هذه الرسائل هو: الوعظ والإرشاد لأجل إصلاح حالهم وأمورهم وردعهم عن الخطأ، أي أنَّها تقريبا نفسها الرَّسائل التي كان يرسلها الرسول صلَّى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء لأجل دعوتهم إلى الدين الجديد وإخراجهم من الجهل الذي كانوا يعيشونه. لذلك أطلق على هذا النوع من الرسائل بالرَّسائل الدينية. تتميز بالإيجاز، بعيدا عن الاسهاب والتنميق الفني لأنَّ غرضها الأساسي النصح والارشاد.

في نفس هذا النوع من الرسائل، تفرعَّ منها فرْع آخر عرف بالرَّسائل الجدلية، سيتم توضيحها من خلال مايلي:

1. الرسائل الجدلية: "الرَّسائل التي تجادل فريقا من الفرق الدينية، أو مذهبا خاصا من المذاهب الاسلامية" [2]. وعليه، فيقصد بها الرسائل التي كانت بين الفرق الدينية في ذلك العصر من المعتزلة والخوارج بينهم، فكل منهم يسعى لإثبات رأيه بالأدلة والحجج، فاتخذوا هذا النوع من الرسائل وسيلة لذلك.

2. الرَّسائل الإخوانية : " الرَّسائل التي تصور عواطف الأفراد ومشاعرهم، من رغبة ورهبة ومن مديح وهجاء ومن عتاب واعتذار واستعطاف، ومن تهنئة واستمناح ورثاء

[1] حسين نصَّار، نشأة الكتابة الفنية، ص 105.

[2] المرجع نفسه، ص 121.

أو تعزية"[1]. بالتالي، فهي رسائل شخصية بين الأصدقاء والأهل، تتنوع أغراضها حسب مشاعر الشخص تجاه الآخر. قد تكون رسالة اعتذار بين صديقين أو رسالة حب، أو رسالة توبيخ . . . لذلك سُميت بالإخوانية لأنها بين أشخاص ليست بينهم صفة رسمية. أمَّا النَّوع الثالث من الرَّسائل وأهمُّها المعروفة باسم **الرَّسائل الديوانية**.

ما يجب أن ننوه عليه، بخصوص موضوع حركة الترجمة، هو أن الرأي الغالب أنَّها نشأت في العصر العباسي، لكن بوادرها الأولى ظهرت في عهد الخلافة الأموية. لكن؛ "لم يكن لترجمة الكتب إلى العربية حظ كبير في عهد بني أمية. وكان خالد بن يزيد بن معاوية أول من عني بنقل علوم الطب والكيمياء إلى العربية: فدعا جماعة من اليونانيين المقيمين في مصر وطلب إليهم أن ينقلوا له كثيرا من الكتب اليونانية والقبطية التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية"[2]. إضافة إلى حركة نقل الدواوين وتعريبها في عهد عبد الملك بن مروان، سنفصل الحديث فيها الفصل الأول.

تأسيسا على ما سبق، شهد العصر الأموي حركة في التدوين في شتى العلوم والمعارف. فأول ما تمَّ تدوينه هو الحديث النبوي الشريف، ثمَّ تدوين تاريخ العرب وحروبهم ومغازي الرسول صلى الله عليه وسلم، والتدوين في تفسير القرآن وأصول الفقه. فنلاحظ استمرار التدوين لغاية أغلبها دينية، سياسية؛ أمَّا الترجمة، فبدأت نواتها الأولى في هذا العصر من خلال الاهتمام بحركة النقل عن علوم الفرس واليونان وتعريب الدواوين، التي استمرت واكتملت فعلا في العصر العباسي الذي تجاوز حركة التدوين لغاية دينية، إلى التدوين لغاية علمية معرفية، هذا الذي سنبينه من خلال التدوين في العصر العباسي.

---

[1] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي –العصر العباسي الأول–، دار المعارف، ط8، دت، ص 491.

[2] حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، بيروت، ط14، 1416هـ/1996م، ص 282.

4. التدوين في العصر العباسي:

تطوَّرت الكتابة بشكل كبير في العصر العبَّاسي، ويعود ذلك لأسباب كثيرة، أبرزها صناعة الورق. وقد أشار إلى ذلك عمر الدقَّاق بقوله: "ولم تلبث حركة التَّأليف أن ازدهرت ازدهارًا رائعًا في أواخر القرن الثاني وطوال القرنين التاليين، يدفعها ويُمدُّها بأسباب الخصب والنماء إقامة صناعة الورق في بغداد، ابتداءً من عصر الرَّشيد وظهور طبقة جديدة في المجتمع العربي تعرف بطبقة الورَّاقين التي تنتمي إليها الكثير من العلماء من أمثال الجاحظ وابن النديم "[1].

من خلال القول الآنف الذكر، نلاحظ ظهور مصطلح جديد لم يرد ذكره في العصور التي سبقته، وهو **الوراقة**. سنحاول الوقوف على مفهومها وأهم مظاهر تطوُّر الكتابة في هذا العصر.

تعدُّ الوراقة مهنة في هذا العصر، نتجت عن الوعي بأهمية الكتابة مما جعل الكُتَّاب يتهافتون لتأليف الكتب وبيعها وأصبحوا يتنافسون في ذلك. ليس هذا فقط، بل أقاموا لهذا سوقًا عرف باسم **سوق الورَّاقين**، الذي يقع في بغداد، أول دولة عربية تولَّت صناعة الورق. كان هذا السوق "ذلك المكان الذي يباع فيه جميع ما يحتاجه الكاتب من أدوات وورق، ونسخ ما يحتاج لنسخه، فكان الكِتاب يعرض في السُّوق من طرف المشتغلين عند الورَّاقين، فكانت عملية البيع تتم على شكل نداء علني ويقوم بعرض اسم الكتاب ويقرأ بعض من عباراته لتشجيع النَّاس على شرائه"[2]. بالنَّظر إلى طريقة بيع الكتب في هذا العصر، يبدو أنَّهم أدركوا قيمة الكِتاب والعلم وأصبحوا

[1] عمر الدقاق، مصادر التراث العربي، ص 199.

[2] خير الله سعيد، موسوعة الوراقة والوراقين في الحضارة العربية الإسلامية، مؤسسة الانتشار العربي، ط01، 2011، 381/2.

يتنافسون في ذلك، مما ساهم في ازدهار الحياة العلمية والثقافية. وكأنَّ سوق الوراقين يُشبه بيوت النشر في عصرنا الحالي، مما يقودنا للقول إن صناعة الورق وظهور مهنة الوراقة وكثرة الوراقين من أهم مظاهر تطور الكتابة في العصر العباسي. عرف العصر العباسي، نتيجة لتطور وسائل الكتابة والورق، لنوعين من التدوين:

4.1 التدوين الرسائلي:

استمرت العناية بكتابة الرسائل حتى في العصر العباسي، ووصل منها الكثير، تختلف في خصائصها عن رسائل العصرين السابقين، إلا أنها شهدت تطورًا كبيرًا في هذا العصر. الجديد الذي ظهر في هذا العصر كما ذكر شوقي ضيف "أخذ بعض الكُتَّاب ينمون الرَّسائل الإخوانية حتى غدت رسائل أدبية بديعية، وكان ابن المقفع – كما أسلفنا – قد ترجم عن الفارسيَّة كثيرا من الرَّسائل الأدبية التي تتصل بالأخلاق وسلوك النَّاس"[1]. نلاحظ من قوله أن الرسائل الاخوانية في العصر العباسي، قد تطورت عن الرسائل في العصر الأموي، حيث انتقلت من كونها رسائل شخصية تمتاز بالايجاز بعيدًا عن الاسهاب والتنميق الفني إلى رسائل فنية إبداعية، حيث اعتُبرت فنًا نثريًا قائمًا بذاته له خصائصه ومقوماته. لم يقتصر التطور على الرسائل الاخوانية فحسب، بل تطورت الرسائل الديوانية وكثرت الدواوين والكتاب.

4.2 التدوين في العلوم والمعارف:

شهد العصر العباسي نوعًا جديدًا من التدوين لم يكن معروفًا في العصور السابقة، يتمثل في حركة التدوين في مختلف العلوم والمعارف. بدأ ذلك مع **حركة الترجمة**، حيث انتقل العرب من الكتابة السياسية والدينية، إلى الكتابة والتأليف في

[1] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، ص505.

العلوم والمعارف. فلما تولى المنصور، عني بترجمة العلوم عناية فائقة، وخاصة الطب والهندسة والنجوم، فاتخذ لذلك أمهر التراجمة، فترجموا من اليونانية واللاَّتينية والفارسية والهندية، وهكذا حتى جاء عصر الرشيد، العصر الذي انفتحت فيه العقول لقيمة العلم والترجمة، فأحدث نهضة علمية من خلال إنشائه لدار الحكمة في بغداد، التي كانت تحتوي نفائس الكتب من شتَّى اللغات. من أبرز المدونات في هذا العصر الكتب المترجمة، كليلة ودمنة من الفارسية، وكتاب السند هند من الهندية، كتاب المجسطى في الفلك[1].

انطلاقًا مما سبق، نتأكد لماذا سُمي العصر العباسي بعصر العلوم والمعارف، لكونه العصر الذي أُلف فيه الكتاب بشروطه الكاملة، تجاوز مرحلة الجمع والترتيب. وتوفرت لهم الأسباب لهذا التطور المعرفي نتيجة توفر مادة الورق، عكس العصور الأخرى. كذلك، الامتزاج الثقافي الذي عاد لهم بالفائدة، فترجموا من علومهم وكتبهم واستفادوا من خبرتهم حتى في تسيير شؤون الدولة، خاصة الفرس منهم.

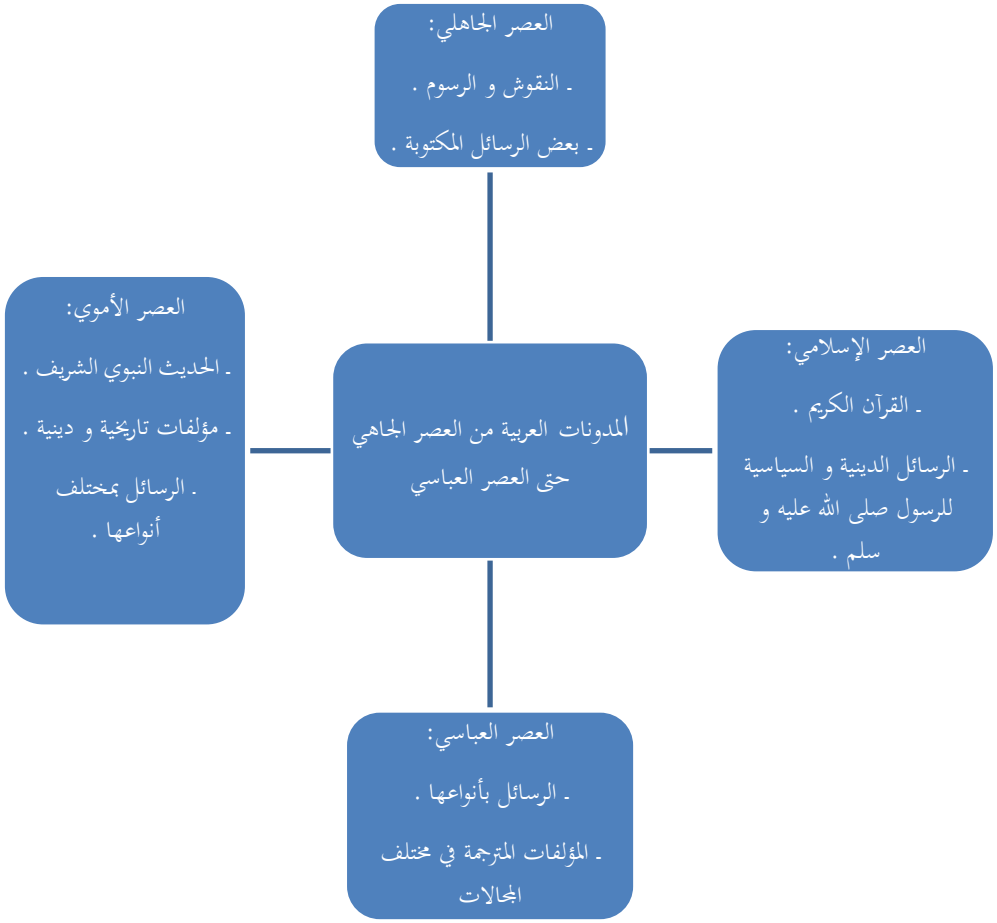
ثالثا: مقارنة بين الكتابة في العصر الأموي والكتابة في العصر العباسي:

كانت الكتابة في العهد الأموي نوعًا واحدًا هو، كتابة الرسائل، إذ لم تكن في ذلك العصر علوم تستحق أن تنفرد بنوع من الأسلوب. إنما كانت علوم هذا العصر جملة روايات ضمَّ بعضها إلى بعض، لا أثر لقلم المؤلف فيها. أمَّا في العصر العباسي فقد تنوعت الكتابة، وتعددت أساليبها، واختلفت خصائصها، وانقسمت إلى جذرين عظيمين: هما كتابة الإنشاء وكتابة التأليف. مازال هذان النوعان يتمايزان،

[1] ينظر: عبد المنعم خفاجي، الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي و العباسي، دار الجيل، بيروت، دط، دت، ص 54-55.

وتختلف مظاهرهما حتى كان لكل نوع أسلوب خاص به، وحتى صارت أساليب التأليف في علم غيرها في علم آخر[1].

كنتيجة لما تمَّ ذكره، سنوجز مراحل التدوين عن العرب من خلال المخطط التالي:



شكل رقم 01: يوضح تطور المدونات العربية من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي.

قراءة تحليلية للشكل:

[1] ينظر: محمود مصطفى، الأدب العربي تاريخه في العصر العباسي، مطبعة مصطفى البابا الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1937م، ص79.

أردنا من خلال هذا المخطط أن نبين أهَّم المدَّونات التي عرفها العرب، حيث يعتبر هذا المخطط بمثابة ملخص لما تم شرحه في المباحث السابقة، لكي يسهل على القارئ الوصول لمراحل تطور التَّدوين لدى العرب بكل بساطة. فكما هو واضح من خلال المخطط فالمدَّونات في العصر الجاهلي اقتصرت على بعض النقوش التي تروي بعض أخبار الحروب والأيام والأنساب السائدة في ذلك الوقت. أما في العصر الاسلامي أوَّل ما دُون فيه هو القرآن الكريم، وهو أوَّل كتاب عرفه العرب، تلاه رسائل الرسول صلَّى اللّه عليه سلم لنشر الإسلام. في العصر الأموي، بدأ التدوين الفعلي لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، بالإضافة إلى التدوين التاريخي والديني، والرسائل بمختلف أنواعها. أما في العصر العباسي، فقد شهد التدوين تطورا في شتى مجالات المعرفة، مستفيدين من حركة الترجمة من علوم الأمم الأخرى، خاصة الفرس.

وعليه، من خلال معرفة تاريخ التدوين عند العرب في العصرين الأموي والعباسي ورأينا كيف ظهرت الرسائل والدواعي لنشأتها، بهذا سننتقل في الفصل الأول إلى التعرف على الرسالة الديوانية من حيث المفهوم والفن الذي تنتمي إليه.

الفصل الاول:

الرسالة الديوانية – دراسة لغوية واصطلاحية–

المبحث الاول: نشأة النثر الفني العربي القديم.

المبحث الثاني: تعريف مصطلح الرسالة الديوانية.

المبحث الثالث: نشأة الديوان في الحضارة العربية.

الفصل الأول: الرسالة الديوانية ـ دراسة لغوية واصطلاحية ـ

عرف العرب فن الرسائل وتفننوا في صناعتها، فبدأت كتابة الرسائل مع الرَّسول صلى الله عليه وسلم، كانت عبارة عن كتابات موجزة بعيدة عن التحبير الفني أو التنميق، رسائل مباشرة المعنى والقصد، هدفها ديني يسعى من خلالها صلى الله عليه وسلم لنشر معالم الدين الإسلامي الجديد. ثمَّ مع مجيء العصر الأموي تطورت صناعة الرسائل وأصبحت فن قائم بذاته بل أصبحت كتابة الرسائل مهنة لكسب العيش ويتنافس فيها الكتاب، فكاتب الرسالة بذلك أصبح يعادل منصب وزير في وقتنا الحالي. تطورت الرسائل وتعددت أنواعها وأغراضها فنجد الرسائل الإخوانية، الدينية، الجدلية، كما ذكرنا في الفصل التمهيدي، وأهمها الرسائل الديوانية محور بحثنا هذا. نجد هذه الرسائل حتى في العصر العباسي مع اختلاف في الأسلوب والمضامين. تندرج الرسائل ضمن فن عرفه العرب منذ عصرهم الجاهلي " النثر" وأجادوا فيه مثلما أجادوا في الشعر الذي يفرق عنه في كونه كلام لا يتقيد لا بوزن ولا قافية. فالنثر في الغالب ما تكون لغته واضحة يفهمها الجميع بغض النظر عن معرفته، ليست كلغة الشعر التي تحتاج لمعرفة الألفاظ العربية صعبة المعاني والتمكن من النحو لفهم المعاني المختلفة. فالعرب اهتموا بالشعر كثيرا وهذا أمر غني عن التعريف؛ لكن لا يعني أنَّهم عرفوا إلاَّ اللغة الشعرية فقد عرفوا الخطبة منذ عصرهم الجاهلي وكان لديهم أمهر الخطباء لغة وأداءً إضافة للأمثال التي كانوا يتغنون بها في سمرهم والرسائل أيضا كان لها وجود. لكن قبل ذلك أردت أخذ لمحة عن النثر العربي القديم وفنونه المختلفة في كل عصر وصولا لفن الرسالة المنتمية لفن النثر الفني.

المبحث الأول: نشأة النثر الفني العربي القديم:

أولا: التعريف والأنواع:

1. تعريفه:

النثر ـ أو المنثور ـ هو الكلام الفني الجيد، يرسله قائله أو كاتبه إرسالا، بلا وزن، وبلا قافية. وهو بهذا المعنى الاصطلاحي، يقابل فنًّا قوليًّا آخر هو النظم أو الشعر المنظوم بالأوزان والقوافي"[1]. هذا ما يعرف بالنثر العادي الذي يُعرف بلغة التخاطب. أمَّا النثر الفني فيُعرف بكونه اللغة الذي يتخلى به أصحابه عن لغة التخاطب العادية ولغة العلم الخالية من الفن إلى لغة فيها فن ومهارة، فيختارون ألفاظه، وينسقون جمله، وينمق ومعانيه. فيكون النثر الفني بهذا المعنى: فنا جميلا من الإنشاء العالي للتعبير عن أحاسيس النفس، وومضات الفكر[2]. وعليه، يتميز بالأسلوب الأدبي الراقي والتعبير الجمالي، ويهدف إلى إثارة الإحساس الفني لدى القارئ.

2. فنون النثر:

قسَّم الدارسون النثر إلى أقسام؛ كل قسم منها يضم مجموعة من الأنواع، فأمَّا التقسيم الأوَّل فضم أشهر الأنواع النثرية التي تفننَّ فيها العرب تمثلت في فن الخطابة. قبل تعريف كل فن على حده سنوضح أولا أنواع النثر العربي القديم بصفة عامة.

2.1 الخطب والرسائل:

[1] محمد يونس عبد العال، في النثر العربي قضايا وفنون نصوص، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، دط، دت، ص 07.

[2] ينظر: عبد الحكيم بلبع، النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، مكتبة الأنجلو المصرية، دط، دت، ص01.

أشهر هذه الفنون النثرية دون منازع الخطب والرسائل، لم يختلف عليهما أحد، ولم يغفل عن ذكرهما أو الإشارة إليهما المتحدثون عن النثر أو ملامحه النقدية سواء كانت لغوية أو بلاغية أو جمالية أو غيرها.

2.2 الاحتجاج والحديث:

أضاف ابن وهب(ت272هـ) إلى فني الخطابة والرسائل، ما يسميه الاحتجاج والحديث، أمَّا الاحتجاج فيعني به الجدل وإقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين، يندرج تحت هذه التسمية الفنون النثرية: المناظرات والمنافرات والنقائض النثرية في السياسة والفلسفة والفقه واللغة والنحو وغيرها. أمَّا الحديث فيعني ما يسميه آخرون الكلام المنثور سوى الخطب والرسائل.

بالإضافة، إلى أقسام أخرى قسَّمها محمد عوض محمد تتمثل في: المقالات والخطب، التاريخ والتراجم، القصص بأنواعه، الفلسفة، النقد الأدبي، المكاتبة والترسُّل. تقسيمات تدرج ضمن تقسيمات المحدثون [1]. بالنسبة لتقسيم ابن وهب فنرى كيف أنَّه جمع العديد من الأنواع النثرية تحت مصطلح خاص بها ويضمها، فبدل ذكر كل من المصطلحات المناظرة، المنافرة، وغير ذلك نكتفي بذكر مصطلح الاحتجاج آت من الحجة لكون هذا النوع من النثر يُقام على الجدل والحجة، لذلك وَضع لها هذا المصطلح. أما مصطلح الحديث فخصصه لكل من الخطب والرسائل ويتضح سبب اختياره لهذا المصطلح نظرًا لطبيعة كل من الخطابة والرسالة التي تقوم على الحديث والمخاطبة بغض النظر عن خصائص كل منهما. أمَّا التقسيم الثاني لمحمد عوض محمد فضمَّ فيه جميع الأنواع النثرية القديم منها والحديث، أمَّا الحديث منها فشمل كل

[1] ينظر: يونس عبد العال، في النثر العربي قضايا وفنون ونصوص، ص9–10.

من القصص والمقالات والتراجم، كذلك اختار مصطلحي الترسل والمكاتبة مقابلا لمصطلح الرسالة.

2.3 الخصائص العامة لفن نثر الرسائل:

يتميز نثر الرسائل بخاصتين هما:

الخاصية الأولى: الوضوح، لكونه يخاطب الرعية، فتفهم ما يُراد دون لبس أو غموض.

الخاصية الثانية: الجمال الفني وجودة التعبير؛ لكونه يُكتب عن الكُتَّاب الذين ينبغي عليهم أن يجيدوا الكتابة بفن ومهارة، وبما كلفهم السلطان به وسياسة النَّاس"[1].

وعليه، النثر أيضا لديه أهمية في الثقافة العربية وثراءه بأشكال وأنواع متعددة، تطور مع الزمن فشمل مجموعة واسعة من الأساليب والأغراض الأدبية.

ثانيا: نشأة النثر الفني القديم:

كما ذكرنا في السابق، عرف العرب النثر على أشكال متعددة ذكرنا منها: المناظرات والمحاورات والمنافرات والمشاورات والخطابة كلها تمَّ نقلها عن طريق الرواية وسُجلت في كتب الأدب. سنحاول عرض تعريف كل نوع منها.

1. النثر في العصر الجاهلي:

كما ذكرنا، عرف العرب النثر في العصر الجاهلي وأجادوا فيه، لذلك سنقف على أهم الأنواع النثرية في هذا العصر، نذكر منها:

[1] ينظر: يونس عبد العال، في النثر العربي قضايا وفنون ونصوص، ص169.

المناظرات: عرفها العرب قبل الإسلام، كانت تجري بينهم وبين من يترفع عليهم بقومه، ويحاول التقليل من قيمة آدابهم وعاداتهم وسلوكهم، اتسمت بـ: البلاغة، البيان، الحكمة، القول المقنع.

المنافرات: لون من ألوان المناظرات عرفها العرب قبل الإسلام وتفننوا فيها، وسميت بالمنافرات أنَّ المناظر كان يقول لغريمه أنا أعز منك نفرا ويظل يذكر الدليل إثر الدليل وكذلك يفعل غريمه إلى أن يحكم القاضي الذي اختاره لواحد منهما. تعد من العادات الذميمة التي نهى عنها الإسلام وحرمها.

الخطابة: فن أصيل عند العرب أصالة الفصاحة والبيان عندهم، تعددت أغراضها وموضوعاتها فالخطابة لازمة لهم في المفاخرات والمنافرات وفي حياتهم الاجتماعية من نصح وإرشاد وإصهار وزواج، وفي حياتهم السياسية من حض على الحرب أو ذم لها وتحذير منها، وقد حظي الخطيب بمكانة تعادل مكانة الشاعر[1].

الأمثال: خلَّف لنا عربُ الجاهلية تراثا كبيرا من الأمثال، وهي عبارات تُضْرَبُ في حوادث مشبهة للحوادث الأصيلة التي جاءت فيها"[2].

وعليه، يمتاز النثر في هذا العصر بجزالة الألفاظ، وكثرة الغريب. وقصر الجمل المسجوعة وضعف الرابط بينهما. أمَّا العبارة فتفيض بالحكم والأمثال تتخللها الكنايات القريبة التي لا تند عن الأفهام[3].

1.1 النثر في العصر الجاهلي بين الوجود والغياب:

[1] ينظر: مصطفى الشكعه، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، 2/ 15–42.

[2] شوقي ضيف، النثر الفني ومذاهبه، ص20.

[3] ينظر: زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ص52.

ممن أكدَّ على وجود النثر في العصر الجاهلي طه حسين، واعترف وجوده؛ لكن لم يصل إلينا لضعف الذاكرة، هذا النثر هو الخطابة، نظرا لكون طبيعة حياة العرب في العصر الجاهلي وما كان يجري بينها من خصومات كان يحتاج إلى كلام غير منظوم[1]." إن النثر الذي وصل إلينا من الجاهلية نَزْرٌ جدا(فلقد كان احتفال الرُّواة بالشعر أعظم، مع أن الشعر الذي وصل إلينا من الجاهلية أيضا لم يكن كثيرا)"[2]. عبَّر طه حسين عن قلة النثر الذي وصل إلينا بمصطلح نَزْر، فالنزير في معاجم اللغة العربية ورد بمعنى القليل التافه وفسَّر سبب ذلك، لكونهم تفننوا في نظم الشعر برغم أنه لم يصل إلينا كلَّه. المسيو مرسيه يؤمن بوجود الخطب في العصر الجاهلي، وينكر إنكارا مطلقا أن يكون هناك نثر فني كالذي يلجأ إليه الرجل لإذاعة فكرة، أو دفع شبهة، أو إيضاح مشكلة، وحجته لهذا أنه لو كانت هناك مؤلفات نثرية لدونت وحفظت ونقلت إلينا كلها أو بعضها كما هو الشأن في آثار الهند والفرس والروم[3]. فبالتالي، يعترف بوجود النثر العادي في العصر الجاهلي ويرفض رفضا تاما وجود فكرة النثر الفني وحجته في ذلك أنَّه لا يوجد أي مدونات حوله. أمَّا زكي مبارك فله رأي معاكس لمرسيه أكدَّ على ذلك بقوله: " وخلاصة ما أراه أنَّه كان للعرب قبل الإسلام نثر فني يتناسب مع صفاء أذهانهم، سلامة طباعهم، ولكنه ضاع لأسباب أهمها شيوع الأمية، وقلة التدوين، وبُعدُ ذلك النثر عن الحياة الجديدة التي جاء بها الإسلام ودوَّنها القرآن".[4]

فمن خلال الآراء السابقة، نصل إلى أن قضية وجود النثر في العصر الجاهلي تتباين بين ثلاث آراء مختلفة. إلاَّ أنَّ الرأي الجامع بينها حقيقة وجود النثر في هذا

[1] طه حسين: من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، ط01، دت، ص25–26.

[2] عمر فرُوخ، تاريخ الأدب العربي، ص254.

[3] ينظر: زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ص36.

[4] المرجع نفسه، ص36.

العصر سواءً أكان فنيا أو عاديا. يمكنني القول أنَّه لا يمكن إنكار وجود النثر الفني، إذ يعتبر فن الخطابة مثالا واضحا على ذلك، فلا يمكن اعتبارها كلاما عاديا، لأن من كان يخطب كان يتطلب فصاحة وتمكنا في اللغة. وقد وصلتنا العديد من النماذج من هذه الخطب، التي جمعها الدارسون في مؤلفاتهم أشهرها "جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة" لزكي مبارك.

2. النثر في صدر الإسلام :

نشأت الدَّولة الإسلامية الأولى في المدينة، وكان رائدها وراعيها والمسؤول عنها الرسول الذي جاء، الذي جاء لنشر رسالته لهدايتهم للدين الجديد وقد احتاج الرسول إلى كُتَّاب كلٍّ منهم اختصَّ بكتابة ما كلفَّه به الرسول صلى الله عليه وسلم. بذلك، كان هناك كاتب يسجل له الوحي، وكاتب يكتب في الشؤون العامة، وكاتب يكتب الرسائل إلى الملوك والأقيال، وكاتب يدون المعاهدات، إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة التي دعت الحاجة إليها في هذا المجتمع الجديد الآخذ بأسباب، ولذلك فقد اتخذ الرسول كُتَّابا من صحابته[1]. بذلك، كانت الرسائل أول نثر عرفه العرب في صدر الإسلام أو لنقل اهتموا به نظرا لكون الرسالة وُجدت حتى في العصر الجاهلي. ويرجع الاهتمام بها لتحقيق غرضين أولهما ديني بالدرجة الأولى والثاني سياسي كلها تسعى لخدمة الدين الإسلامي.

في كتب النبي إلى عماله، وإلى رؤساء القبائل، وإلى الأمراء والملوك، ومنها ما أملاه بنفسه أو كتبه له كتابة فأقرهم عليه، كان ينكر على من يسجعون الكلام وينهى عن السجع على نحو سجع الكهان، وكانوا يسجعون للأغراب والتأثير والزينة. كان إذا خاطب قبائل من غير قريش أو كاتبهم يستعمل ألفاظا مألوفة لا يعرفها القرشيون، ذلك

[1] ينظر: مصطفى الشكعه، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، 194/2.

لأنَّ مقصدهم الإفهام والبليغ من الكلام ما فُهم وأبقى في النفس أثرا[1]. " وبين الكتب والرسائل التي وصلت إلينا من العهد النبوي وخلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وهي مجموعة الوثائق السياسية التي جمعها محمد حميد الله، ومجموعة العهد النبوي التي ألَّف بينها علي الأحمدي في كتابه " مكاتيب الرسول وأحمد زكي صفوت في جمهرة رسائل العرب، إذ لا تفيدنا هذه الأخيرة أنَّ الرسول كان له عناية بتحبير فني أو تزويق أو تنميق، إنَّما كان يعمد إلى فكرته فيدفع بها دفعا لأهداف السياسية، من غير إسهاب أو تكلُّف"[2]، من خلال النص، يتأكد أن كاتب الرسالة في العصر الإسلامي لم يكن يسعى لإبراز مهاراته في الكتابة بل كان يكتب ما يتوجب عليه فقط. فهي بذلك تشبه الرسائل الرسمية الصادرة عن الوزارات الخارجية، التي يكتبوها أخصائيون لأغراض منشودة بلغة علمية واضحة، بعيدا عن لغة الإنشاء. فلم تختلف الرسالة في العصر الإسلامي عما كانت عليه في العصر الجاهلي؛ "فالنصوص النثرية التي تعود إلى صدر الإسلام، فهي لا تختلف عن النثر الجاهلي المعتمد على الجزالة والإيجاز، والبعد عن التصنع والإسهاب"[3]، لكنَّها اختلفت عنها في أمر واحد، وهو الغرض الديني الذي لم يكن موجودا في العصر الجاهلي. ثمَّ مع توسع الدولة الإسلامية أخذت الرسائل تتخذ أسلوبا آخر؛ "فلما كان عهد عمر كثرت رسائله، وبدأ في بعضها التحبير والاحتفال، كرسالته إلى ابن موسى الأشعري في القضاء، ثم اتضح التنميق أكثر في

[1] ينظر: محمد كرد علي، أمراء البيان، مكتبة الثقافة الدينية، ط01، 2012، 1/12–13.

[2] علي حب الله، المقدمة في نقد النثر العربي ـ مشروع رؤية جديدة في تقنيات البحث والكتابة، دار الهادي، ط01، 2001م/1421هـ، ص 67.

[3] ينظر: المرجع نفسه، ص67.

الرسائل الكثيرة المتبادلة بين علي ومعاوية"[1]. هذا الأمر سيتضح جليًا في فن الرسالة في العصر الأموي .

3. النثر في العصر الأموي:

زاد ازدهار النثر الفني عند العرب في أواسط القرن الثالث للهجرة النبوية، ثم في القرن الرابع باتساع رقعة الدولة الإسلامية لما شهدته من فتوحات، والحاجة إلى الإقناع والتراسل بين المسلمين وغيرهم من الأجناس الأخرى فكانت الخُطب والرسائل السمة الأبرز في هذا العهد"[2]. فالسبب الأول لتطور الرسائل في هذا العصر اتساع الدولة الإسلامية وأصبحت دولة لها نظام إداري كغيرها من الأمم التي كانت مجاورة لها من الفرس والروم "فلما قاربت الدَّولة الأموية نهايتها كان هذا النثر قد شارف النضج، ثمَّ كان عبد الحميد أوَّل كاتب في الديوان اشتهر بكتابته وذاع صيته، وظهرت في آنمار قلمه خواص من سبقوه، ومظاهر ابتكرها ونسبت إليه، فصار من الحق أن لعبد الحميد ولابن المقفع نثرا فنيا يُحدث في نفوسنا لذة، ونجد في قراءته متعه"[3]. بالطبع، فكل من عبد الحميد الكاتب وابن المقفع أبرز الكُتَّاب ليسا من العرب بل من العجم، لكنهم تعلموا اللغة العربية وتمكنوا منها فكتبوا فيها وأجادوا سنوضح ذلك في دور الكتاب العجم في صناعة الرسائل العربية.

3.1 الفنون النثرية في العصر الأموي:

من أبرز الفنون النثرية التي ظهرت بكثرة في هذا العصر فني **الخطابة والنثر الديواني:**

---

[1] أحمد محمد الحوفي، الأدب العربي وتاريخه، ص57.

[2] محمد نذير الأشهب، فن الترسل بين الأسبقية الغربية والإبداع العربي، جامعة الجزائر2، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، ع01، مج13، ص18.

[3] طه حسين، من حديث النثر والشعر، ص61.

الخطابة في العصر الأموي كانت استمرار للخطابة في صدر الإسلام الأوَّل، ولكن زادت فيها أمور. من ذلك أن الخطبة طالت، وذلك لأنَّ الخطبة كانت لتبليغ أوامر الدولة، فلما كثرت تلك الأوامر باتساع رقعة الامبراطوية وبتطور الحياة الادارية والسياسية احتاج الخطباء إلى بسط القول في ذلك"[1].

ظهر ما عرف بالنثر الديواني، وهو كل إنشاء ذي طابع رسمي يصدر عن إحدى "مصالح الدولة المركزية، أو عن تمثيلياتها وامتداداتها المختلفة في مستوى النواحي والجهات، ويُقصد به تبليغ المعلومات، أو ضبط علاقات الحكم بالأطراف المتعاملة معه داخل الحدود وخارجها، وذلك بقطع النظر عن طبيعة الأشكال التي يكتسيها ذلك الإنشاء، وصيغه الفنية، وأساليبه التعبيرية"[2]. بالتالي، ليس نثرًا فني غرضه التنميق والتحبير الفني بل عبارة عن نثر رسمي يصدر من جهة مختصة وفق قوالب يتم اعتمادها من طرف الملوك الذين يتخذون لهم كتابا رسميين لتحقيق أهدافهم السياسية وحل نزاعاتهم. من خصائصه:

يكون صادرًا عن الهيئات السياسية والإدارية وغيرها من التشكيلات التي كانت تستند إليها تنظيمات الدولة وقتئذٍ. قد يصدر من شخص واحد، كأن يكون قاضيا، أو واليا، أو قائدا إلخ... بشرط أن يتصل إنشاؤه بغرض من أغراض تسيير الدولة[3].

فلما اتسعت الفتوح وتفرق الولاة والعمال في مختلف الأماكن احتاجت الدولة لتبليغ أولئك الولاة والعمال وغيرهم ممن يتولوا قيادة شؤون دولتهم في الأمصار المختلفة أمورا تتعلق بالسياسة أو الادارة فحدثت كتابة الرسائل. لم يكن للرسائل ـ في

[1] عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ص373.

[2] علي بن محمد، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس " مضامينه وأشكاله"، دار الغرب الإسلامي، بيروت . لبنان، ط01، 1990، ص 213.

[3] ينظر: المرجع نفسه، ص213.

هذا الدور ـ خصائص أدبية تميزها، فكانت الرسالة بهذا الشكل خطبة مدونة، أو كلاما عاديا مقيدا بحروف من غير تنميق ولا الالتزام بأسلوب خاص"[1]. ربما تتفق الخطبة والرسالة في بنائهما من حيث الافتتاح والعرض والخاتمة، ولكن "تختلف الخطابة عن الرسالة في كونها مسموعة من قائلها ومأخوذة من لفظ مؤلفها وكان الناس جميعًا يرمقونه ويتصفحون وجهه. كان الخطأ فيها غير مأمون، والحَصَرُ عند القيام بها مخوفا محذورا. أمَّا الرسائل فالإنسان في فسحة من تحكيكها وتكرير النظر فيها، واصلاح خَلَل إن وقع في شيء منها"[2]. هذا أمر لا نقاش فيه، فليس كالخطيب الذي يرتجل الكلام في وقت وجيز، حيث يجب عليه توضيح أفكاره بألفاظ جزلة وواضحة، ولا يملك حتى الوقت للتفكير والتركيز، بل يتعين عليه التحدي مع الزمن. على عكس كاتب الرسالة يملك وقتًا للتركيز وانتقاء الألفاظ الملائمة، وحتى إذا أخطأ في لفظ ما، فإنه سيتمكن من تصحيح ذلك عند مراجعته لما كتبه وتعديله قبل إرساله.

النثر في العصر الأموي ارتبط بفني الخطبة والرسالة التي فرضتهما الضرورة السياسية في ذلك الوقت. أمَّا الجديد الذي ظهر في هذا العصر النثر الديواني الذي لم يعرف في العصرين السابقين وسنوضحه في نشأة الديوان والرسائل الديوانية.

4. النثر في العصر العباسي:

قد لاح جديدا في أفق النثر العربي، متمثلاً في جملة كتب دوَّنها صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة، أطولها كتاب العهد بعثه إلى مالك الأشتر عامله على مصر حين اضطراب أمر محمد بن أبي بكر، ويليها وصيته عليه السلام لوالده الحسن عليه

[1] ينظر: عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ص374.

[2] قدامة بن جعفر، نقد النثر، تح: طه حسين، عبد الحميد العبادى، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط 15، 1933م، ص83.

السلام ثم تفاوت باقي كتبه، فمنها المسترسل، ومنها المتوسط ومنها الموجز[1]، يقصد بكتبه رسائله التي تباينت بين رسائل موجزة ورسائل مسهبة. على أن هذا العصر- العباسي - قد شهد تطور النثر على الشعر وتصدره المرتبة الأولى التي كان يتصدرها الشعر، وأصبح الكُتَّاب هم قادة الميدان، يقتدي بهم الشعراء، يتخرج عليهم الناشئون. فشهدت الفنون النثرية تطورًا، وظهور فنون أخرى مبتكرة، كالمناظرات والتوقيعات والرسائل الاخوانية، وغير ذلك من ميادين اقتحمها النثر، وكانت خاصة بالشعر[2]. فمن الجديد، الذي اقتحم فن النثر فن التوقيعات الذي تفنن فيه العرب وسنوضح ذلك في المباحث القادمة. كذلك نلاحظ ظهور نوع جديد من الرسائل وهي الرسائل الاخوانية ظهرت حتى في العصر الأموي، لكن في العصر العباسي اهتموا بكتابتها كثيرا ونوعوا في أغراضها فبذلك تشبه الرسائل الشخصية في عصرنا، لكنها تكتب بلغة خاصة بها ولغة كلها سجع. فبذلك "نهض النثر الفني في هذا العصر نهضة لم يبلغها قبل ذلك في عصر من العصور، فقد رقت الأساليب، وعذبت الألفاظ، وعمقت المعاني، وسمت الأخيلة، وتعددت الأغراض، واتسعت الأفكار. وذلك كله بما تهيأ للعباسيين من حضارة ومدينة وتعدد في صور الحياة، ومظاهر العيش، وما توفر لهم من ألوان الثقافات وأنواع المعارف الأجنبية"[3]. يعود تطور النثر في هذا العصر بالذات لتطور ظروف الحياة واتصالهم بالأجانب والاطلاع على مؤلفاتهم وعلومهم وفنونهم، فمن الطبيعي أن تؤثر ظروف الحياة والمحيط الذي يعيش فيه الكاتب على أسلوبه ولغته فتكون النتيجة أثرا فنيا سواءً أكان رسالة أو خطبة أو غير ذلك من الفنون النثرية.

---

[1] ينظر: علي بن محمد، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس " مضامينه وأشكاله، ص67.

[2] ينظر: محمد عبد الغني الشيخ، النثر الفني في العصر العباسي الأول اتجاهاته وتطوره، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1983م، 3/1.

[3] محمد عبد المنعم الخفاجي، الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، ص271.

عندما قامت الدولة العباسية امتد سلطان النثر شيئًا فشيئًا، واتسعت موضوعاته إلى أكثر مما كانت عليه في آخر العصر الأموي، وكان من أسباب اشتداد الاتصال بين العرب والفرس وغيرهم من الموالي في الشام والجزيرة والعراق. فشهدنا في هذا العصر ظاهرة لم تكن موجودة عند الأمويين، وهي سمو الموالي إلى الوزارة والمناصب الكبرى في الجيش والولايات أيضا. أخذوا يسيرون شؤون الدولة بما ورثوا عن جنسياتهم المختلفة: يونانية أو آرامية أو فارسية. يظهر ذلك واضحًا من خلال الرسائل التي كانوا يكتبونها للخلفاء، فتغيرت لغة النثر تغيرًا واضحًا جدًا، نراه في الكتب التي كانت تصدر عن أبي العباس السفَّاح والمنصور والمهدى[1]. إذن نتيجة الاتصال بالأجانب، الذي ذكرناه بأنَّه من أهم الأسباب التي طورت النثر في العصر العباسي، تقلُّد الموالي مناصب في الوزارة مما جعل الرسائل في هذا العصر أخذت صبغة أجنبية سواءً فارسية كانت أو يونانية سيتضح ذلك من خلال أسلوب الرسائل في العصر العباسي. بهذا كان عصرا حاسما فعلا في تطور النثر العربي، إذ اندمجت فيه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية وجميع معارف الشعوب التي حكمتها الدولة العباسية، فامتزجت هذه المؤثرات في إنشاء النثر العربي واندمجت في نسيجه، مما أدَّى لظهور أشكال جديدة ومتنوعة من النثر. من بينها النثر العلمي والفلسفي، والنثر التاريخي على نمط ما كان موجودا عند الأمم القديمة، وحتى النثر الأدبي الخالص تأثر بمهارات اللغات الأجنبية وخاصة اللغة الفارسية كما تجلَّى ذلك في أعمال ابن المقفع، صاحب التأثير العميق في الرسائل الديوانية[2]. صرَّح شوقي ضيف من خلال النص السابق عن فعالية الأجانب من فرس وهنود ويونان في إنتاج أنواع جديدة من النثر لم يكن العرب على دراية بها كالنثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر التاريخي، بالإضافة لتأثيرهم في فن

[1] ينظر: طه حسين، من حديث الشعر والنثر، ص39.

[2] ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، دار المعارف، ط08، دت، ص441–442.

الرسائل الديوانية منها خاصة وسمو أبرز الكتاب في العصر العباسي كابن المقفع فارسي الأصل. بهذا، نكون قد ألقينا الضوء على تطور النثر في العصر العباسي وأثره الكبير في إثراء الأدب العربي بفنون جديدة وأسلوب متميز تأثر بالثقافات المتعددة التي تداخلت مع الحضارة العباسية.

4.1 فنون النثر في العصر العباسي:

الخطابة السياسية: "نشطت الخطابة السياسية في مطالع هذا العصر، إذ اتخذتها الثورة العباسية أداتها في بيان حق العباسيين في الحكم"[1]. وظلت الخطابة مزدهرة في أوائل هذا العصر، ولكن أصيبت الخطابة الحفلية بالذبول، إذ لم تعد بارزة كما كان الشأن في عصر بني أمية. أماَّ الخطابة السياسية فظلت فترة نشيطة، بحكم أمور سياسية مختصة بشؤون الدولة فاتخذ منها بني العباس دعوة لأنفسهم، حتى إذا استقام لهم الأمر تعرضت للجمود والذبول الذي أصاب الخطابة الحفلية، ومن خطبائهم المفوهين أبو العباس السفاح والمنصور والمهدى والرشيد والمأمون[2]. فنلاحظ مرة أخرى كيف تؤثر ظروف الحياة في إنتاج فنون نثرية جديدة، فهذا الذي أكده شوقي ضيف بمصطلحه الخطابة السياسية التي ظهرت في هذا العصر نتيجة للظروف السياسية التي كانت تعيشها الدولة فاتخذت منها أداة للدفاع عن مصالحها، وبمجرد هدوء الأوضاع في الدولة أصاب هذا النوع الفتور والجمود لأنَّ وجوده لم يعد ضروري.

ثالثا: سمات النثر الفني في العصرين الإسلامي والعباسي:

لم أذكر خصائص العصر الأموي لأنَّها لا تختلف كثيرا عن العصر الإسلامي، سأوضحها من خلال الجدول التالي:

---

[1] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، ص448.

[2] ينظر: شوقي ضيف، النثر الفني ومذاهبه، ص 125– 126.

سمات النثر في العصر الاسلامي	سمات النثر في العصر العباسي
امتاز النثر في العصر الإسلامي بالخطابة والرسالة. حسن سبكه وجمال رصفه وقوة نظمه. احكام فصوله والتئام أجزائه وذلك من تأثرهم بالقرآن الكريم والحديث النبوي الجليل. بعده عن الغرابة والاستكراه والسجع المتكلف والخطأ في مقامات الكلام ومقتضيات الأحوال. كثرة ما فيه من اقتباس من القرآن وكلام الرسول صلوات الله عليه. قوة وضوحه وجلاله وسلالته، مما تجده واضحا في الآثار الفنية الأدبية التي حفل بها هذا العصر[1].	امتاز بسهولة العبارة وانتقاء الألفاظ. جودة الأسوب وجودة المعاني واختراعها ودقة الأخيلة وابتداعها. ظهور آثار الثقافات الحديثة وخاصة اليونانية فيه بل الاحتفال بها والطعن فيما سواها مما شكا منه النقاد، ومال الكتاب إلى الإطناب[2].

جدول رقم 02: يوضح سمات النثر في العصرين الإسلامي والعباسي.

قراءة تحليلية للجدول:

اختلفت خصائص النثر في كل من العصرين نتيجة لاختلاف طبيعة الحياة في كل من العصر الاسلامي والعصر العباسي، وتغير أسباب الكتابة. ففي حين كانت كتابة الرسائل في العصر الاسلامي تهدف إلى نشر تعاليم الدين الجديد أو لأغراض

[1] ينظر: محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام، دار الجيل، بيروت، دط، 1990م، ص100-101.

[2] ينظر: عبد المنعم خفاجي: الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، ص272.

سياسية، حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتواصل مع ملوك الأمم الأخرى، كانت الرسائل موجزة واضحة اللغة، ولم يختلف الأمر كثيرا في العصر الأموي. أمَّا العصر العباسي، فتأثر بالثقافات الداخلة عليه، مما أدى إلى تغير أسلوب كتابة الرسائل وزيادة الاطناب والسجع، وغيرها من الأمور التي كانت غائبة في رسائل العصرين السابقين.

رابعا: آراء حول أصالة النثر العربي:

اختلفت الآراء حول مسألة النثر في التراث العربي، قسمتها لثلاث آراء حسب أشهر العلماء الذين اهتموا بهذه القضية ولكل في ذلك حجته، سيتبين ذلك من خلال:

الرأي الأول: النثر العربي مستورد:

رأى بعض المستشرقين أنَّ العرب لم يعرفوا النثر الفني معرفة ذاتية، وإنَّما نقلوا طرائقه عن الفرس واليونان، كالمسيو مرسيه، فهو يرى أن أول كاتب في اللغة العربية عبد الله بن المقفع الفارسي الأصل، ويذهب إلى أنَّ العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب وأسجاع الكهان والأمثال"[1].

الرأي الثاني: النثر العربي أصيل النشأة:

فقد عرف العرب الجاهليون النثر طول عمرهم كما عرفوا الشعر: عرفوه خطابة، وعرفوه أمثالا، وعرفوه قصصا، وعرفوه عهوداً ومواثيق، وهذا كله نثر. وقد كان للرسول عليه السلام كُتَّاب يكتبون رسائله إلى الملوك والزعماء من حوله، وكذلك إلى ولاته

[1] أحمد محمد الحوفي، الأدب العربي وتاريخه، دار المعارف، القاهرة، دط، دت، ص47.

وعمَّاله والخارجين على الدولة بأسلوب جميل ودقيق وواضح ومفصل[1]. يرى طه حسين أنَّ النثر العربي لا يستخدم في التخاطب اليومي، ولا الأحاديث العادية، ولا يعبر عن عاطفة أو شعور في حد ذاته، بل بوصفها تعبيرا عاما يعكس نتائج التفكير، هذا النثر من نتاج الحياة الإسلامية الجديدة، ظهر في الإسلام ولم يكن موجودا قبله وهو فن نشأ لتلبية احتياجات الحياة العربية؛ ولهذا يجب أن نتخلص من فكرة أنَّ العرب استعارت النثر من غيرها من الأمم[2]. صرَّح طه حسين أنَّ ظهور النثر عند العرب فرضته ظروف الحياة الإسلامية فيقصد بذلك النثر الفني لا النثر العادي وعبَّر عنه بأنَّه ليس لغة التخاطب والأحاديث العادية كما كان موجودا في العصر الجاهلي.

يذهب أغلب الباحثين إلى حقيقة ظهور النثر الفني بداية مع ابن الحميد فارسي الأصل، أي أنَّ النثر الفني ليس عربي النشأة؛ لكن نجد من نقد هذه الفكرة منهم إبراهيم عوض بقوله: " فقد كان النثر الفني معروفا للعرب قبل عبد الحميد وابن المقفع، وكان العرب يكتبون رسائل فنية قبل أن يكتب عبد الحميد وابن المقفع، وجعل هذا النثر الفني يتطور ويترقى على ألسنة العرب الذين أملوا، وأقلام العرب الذين كتبوا"[3]، فيقصد أنَّ عبد الحميد الكاتب لم يبتدع النثر الفني أو طريقة كتابته للرسائل بل كان يكتب ما يملى عليه من طرف الملوك أو الوزراء ذلك الوقت.

الرأي الثالث: النثر العربي متأثر بالثقافة الفارسية واليونانية:

قال طه حسين: " فالذين يزعمون أن الأمة العربية قد أخذت نثرها عن الفرس أو اليونان مسرفون، ولكن ليس معنى هذا أنَّ هذا النثر نشأ بعيدا عن هؤلاء، وتطور

[1] ينظر: إبراهيم عوض، مدخل إلى الأدب العربي لهاملتون جب قراءة نقدية (مع النص الإنجليزي)، المنار للطباعة، دط، 2008م، ص78.

[2] ينظر: طه حسين، من حديث النثر والشعر، ص28.

[3] إبراهيم عوض، مدخل إلى الأدب العربي لهاملتون جب قراءة نقدية (مع النص الإنجليزي)، ص61.

بفضل اتصال العرب بتلك الأمم"[1]. فيؤكد بقوله هذا أنَّ النثر الفني عرفه العرب ولم يستعيرونه من غيرهم من الأمم الفارسية واليونانية؛ لكن لا يمكن إنكار حقيقة دور تلك الأمم في تطور النثر سنثبت ذلك من خلال دور الكتاب الأعاجم في كتابة الرسائل الديوانية. أكثر المستشرقين يميلون إلى أن تأثير الفرس أقوى من تأثير اليونان، ودليلهم واضح، فأكثر الذين كتبوا نثرا في الإسلام، سواءً في عصر الأمويين أو في عصر العباسيين، من الموالي، وهؤلاء من الفرس. وإذن فيجب أن يكون هؤلاء قد أثَّروا في النثر بثقافتهم الفارسية. وكيف نستطيع أن نشك في هذا وزعيم الكتاب" ابن المقفع فارسي"[2]

إذن، بخصوص نشأة النثر الفني نلخصه في ثلاث آراء باختصار:

ـ النثر الفني عرفه العرب إلاَّ مع ظهور الإسلام، وما عرفه العرب في الجاهلية هو النثر العادي.

ـ النثر الفني استعارته العرب من الفرس واليونان بدليل أشهر الكتاب منهم.

ـ النثر الفني عربي الأصل مع التأثر بالفرس واليونان والفرس خاصة.

بناءً على هذا، يمكنني القول إنَّ الرأي الأصح هو أنَّ النثر الفني عرفه العرب في العصر الإسلامي مع بداية كتابة الرسائل بمختلف أنواعها وتطور فنون الخطابة. وقد أنتجته الظروف السياسية التي عاشتها العرب في ذلك العصر بالتالي لم يأخذوه جاهزا من الأمم الفارسية واليونانية؛ مع ذلك لا يمكن إنكار الدور البارز الذي لعبه الكُتَّاب الأجانب في تطور أشهر الفنون النثرية التي أخذت حيزا من الاهتمام ألا وهي الرسائل الفنية المختلفة، خاصة الديوانية منها.

[1] المرجع السابق، ص28.

[2] طه حسين، من حديث النثر والشعر، ص29.

لاحظنا إذن بداية النثر عند العرب، وأشهر الفنون النثرية التي عرفها العرب في كل عصر؛ لكن الذي يهمنا منها هو فن الرسائل الديوانية محور هذا البحث، لذلك اخترنا التعرف على مفهوم المصطلح أوّلا، الذي لاحظنا أنَّه مصطلح مركب يتكون من جزئين الأوّل "رسالة "والثاني "ديوان". سنقف عند مفهوم كل منهما ثمَّ سنتعرف على تعريف المصطلح ككل.

المبحث الثاني: تعريف مصطلح الرسالة الديوانية:

سنبدأ بتعريف الجزء الأول من المصطلح الرسالة في اللغة:

أولا: تعريفه:

1. في اللغة:

سنورد بعضا من التعريفات اللغوية لمصطلح الرسالة:

في أساس البلاغة للزمخشري(ت538هـ) كالتالي: رسَل: راسله في كذا، وبينهما مكاتبات ومراسلات، وتراسلوا، وأرسلته برسالة وبرسول، وأرسلت إليه أن افعل كذا[1].

يركز الزمخشري على المعاني المتعلقة بالمراسلة والتواصل بين الأفراد، واستخدام المادة في إرسال الرسائل.

في مختار الصحاح للرازي(ت 666هـ) رسِلَ: قولهم افْعَلْ كذا وكذا على (رِسلك) بالكسر أي اتئد فيه كما يُقال على هِينَتِك (...) (رَاسَلَهُ مُرَاسَلة) فهو (مُرَاسِلْ) و(رَسِيل) و(أَرْسَلَهُ) في (رِسالة) فهو (مُرْسَلْ) و(رَسُول) والجمع (رُسُلُ)[2]. يوضح الرازي

[1] الزمخشري، أساس البلاغة، مادة (رسل)، 353/1.

[2] الرازي محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصِحاح، مكتبة لبنان، بيروت، دط، 1986م، ص102.

استخدامات متعددة للمادة رَسَلَ، مشيرًا إلى المراسلة والرسالة والرسول، مع التركيز على التأني والاتئاد.

في القاموس المحيط للفيروزآبادي(ت817هـ) الرَّسَلُ، مُحَرَّكةً: القطيع من كل شيء، ج: أَرْسَالٌ، والإبلُ، أو القطيع منها والغنم، وبالكسر: الرَّفقُ والتُؤَدةُ، كالرسلة والتَّرسُّلِ، واللَّبن وما كان(...) وتراسلوا: أرْسَلَ بعضهم إلى بعض[1]. يركز الفيروزآبادي على معاني مختلفة لمادة رسل، منها القطيع والرفق والتؤدة، إضافة إلى استخدامه في المراسلة.

في الكليات عرفها أبي بقاء الكفوي(1094هـ)، بأنَّها (تَرَاسَلَ) : القومُ: أرسل بعضهم إلى بعص رسولا أو رسالة[2]. يُعرف الكفوي التراسل بوضوح بأنه عملية إرسال الرسائل بين الأفراد.

وفي المعاجم المعاصرة نذكر أشهرها المعجم الوسيط: رَسَلَ : (أَرْسَلَ) الشيء: أطلقه وأهمله. يُقال: أَرْسَلتُ الطَائِرَ من يدي. ويقال: أرسل الكلام: أطلقه من غير تقييد ـ وـ الرَّسولَ: بعثه برسالة[3]. يوضح المعجم الوسيط الاستخدامات المختلفة لمادة رسل، مع التركيز على إرسال الشيء أو الكلام وإطلاقه، وكذلك استخدام الرسول بمعنى المبعوث.

تتفق التعريفات اللغوية السابقة على أن مصطلح الرسالة مشتقة من المصدر الثلاثي رَسَلَ بمعنى بعث. وبالتالي فإن الرسول يعني المبعوث لتوصيل كلام ما أو خبر الذي

[1] الفيروزآبادي مجد الدين أبو طاهر محمد، القاموس المحيط، مادة (رَسَلَ) تح: مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط08، 1426هـ/2005م، ص1005.

[2] أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق، مؤسسة الرسالة، ط02، 1419هـ/1998م، ص476.

[3] المعجم الوسيط، مادة(رسل)، ص344.

يحمله في طيات الرسالة. إضافة، يمكن ملاحظة أن مصطلح الرسالة تطور عبر الزمن من معانيه الأولية التي تشمل القطيع والرفق إلى معاني أكثر استعمالا في السياقات المختلفة للمراسلة والتواصل. هذا التطور يعكس تطور اللغة نفسها وتكيفها مع حاجات المجتمع المتغيرة في مجالات التواصل.

1. في الاصطلاح:

عرَّفها **الجرجاني (ت816هـ) في معجمه التعريفات:** الرسالة: هي المجلة المشتملة على قليل من المسائل التي تكون من نوع واحد. والمجلة هي الصحيفة يكون فيها الحكم "[1]. وعليه، اعتمد على التعريف بالمرادف، حيث عرَّف الرسالة بأنها المجلة والمجلة بأنها الصحيفة.

عرفها **التهانوي في معجمه كشَّاف اصطلاحات العلوم والفنون(1158هـ):** missive,epistte,essay,message,missive,épitre,essai;message.

في الأصل الكلام الذي أُرسِل إلى الغير، وخصَّت في اصطلاح العلماء بالكلام المشتمل على قواعد علمية. والفرق بينهما وبين الكتاب على ما هو المشهور إنَّما هو بحسب الكمال والنقصان والزيادة والنقصان"[2]. فنلاحظ في تعريفه ذكر مرادفات مصطلح الرسالة بالعديد من اللغات، واعتمد في تعريفه على آلية التعريف بالضد فذكر عكس الرسالة وهو الكتاب الذي يختلف عنها من حيث الحجم.

عرفها **إبراهيم فتحي في معجمه معجم المصطلحات الأدبية(1986م)**رسالة: (رسالة رسمية. Epistie): "خطاب رسمي على وجه الخصوص يتميز بطابعه التعليمي

[1] الجرجاني علي بن محمد بن علي، التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوى، دار الفضيلة، دط، دت، ص 96.

[2] التهانوي محمد علي بن علي بن محمد ، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تح: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، ط01، 1996م، ص859.

وتختلف الرسالة عن الخِطاب المُعتاد أو الذي جرى عليه العُرف، بأنَّها تتخذ صِبغة أدبية عن وعي، ومقصودا بها النشر عمدا. وينطبق المصطلح على أجزاء متعددة من الكتاب المُقدَّس، وعلى الخِطابات التعليمية الرَّسمية وعلى التَّعليقات المنشورة والدينية والأدبية "[1]. ركز على الطابع التعليمي للرسالة وأشار إلى أنها تتخذ صبغة أدبية بشكل معتمد.

عرفها، **نوَّاف نصار في معجم المصطلحات الأدبية(2011م)** رِسالة : message:

1–كلام ينقب بين طرفين إمَّا شفهيا أو مكتوبا.

2– معلومات بليغة من الخالق عزَّ وجل إلى النَّاس بواسطة أنبيائه أو رُسله عليهم السلام .

3– ما ينذر المرء حياته له كان تكون الرسالة دينية أو قومية أو إنسانية . . . إلخ.

4– بحث قصير في علم معيَّن.

5– رسالة Thesis بحث جامعي لنيل شهادة جماعية[2]. عرَّف الرسالة باعتبار أنواعها، قد تكون شفاهية أو مكتوبة ومن حيث مجالاتها قد يكون مجالا علميا أو مجالا دينيا أو إنسانيا. إذن، صنَّف الرسالة حسب أنواعها ومجالاتها المختلفة، مُشيرا إلى أنها قد تكون شفهية أو مكتوبة، علمية أو دينية أو إنسانية.

[1] إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، الجمهورية التونسية، ط01، 1986م، ص169.

[2] نوَّاف نصَّار، معجم المصطلحات الأدبية، دار المعتز، ط01، 1432هـ/ 2011م، ص131.

من خلال التعريفات الاصطلاحية السابقة، نجد أن الرسالة هي خطاب يمكن أن يكون شفهيا أو كتابيا، ويهدف إلى إيصال معلومة أو خبر. قد تكون الرسالة رسمية أو شخصية، وقد تتعلق بمجالات علمية، دينية، أو إنسانية.

ننتقل الآن لتعريف الجزء الثاني للمصطلح "الديوانية"، المشتق من ديوان، فقبل تعريفه سنقف على أصل المصطلح:

ثانيا: تعريف مصطلح الديوان:

1. في اللُّغة:

ورد **تعريف الديوان في أساس البلاغة للزمخشري(538هـ)** من مادة دون "دوَّن الكتب جمعها، وهو ديوان الحساب، وهي دواوينه"[1]. مما يُشير إلى أصله العربي والارتباط بالفعل دوَّن.

ورد مصطلح الديوان في **معجم لسان العرب لابن منظور(ت711هـ)**في باب الدَّال مادة دون؛ إلاَّ أنَّه صرَّح في تعريف الدِّيوان بأنَّه مصطلح فارسي، وذكر أقوال بعض علماء اللغة والديوان: مجموعة من الصحف؛ قال أبو عبيدة: كلمة فارسية معرَّبة؛ ابن السكيت: أنَّ النطق الصحيح هو بكسر الدَّال فقط، أمَّا الكسائي فقال: بالفتح لغة مولدة وقد نقلها سيبويه وقال: إنَّما صحَّت الواو في ديوان، وإن كانت بعد الياء ولم تعتل كما اعتلت في سيد، لأنَّ الياء في ديوان غير لازمة، هو فِعَّال من دوَّنتُ[2]. صرَّح ابن منظور بأنَّ مصطلح الديوان فارسي الأصل ولتأكيد ذلك أورد مجموعة من العلماء الذين ذهبوا لنفس الرأي. فلا شك إذن في كونه مصطلحًا فارسيًا

[1] الزمخشري، أساس البلاغة، (مادة دون)، 204/1.

[2] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، (مادة دون)، 166/13.

معرَبًا. هذا يوضح التأثير اللغوي الفارسي على اللغة العربية وكيف تم تعريب المصطلحات الأعجمية في المعاجم العربية.

هذا بالنسبة لتعريف المصطلح في المعاجم العربية. فالمصطلح كما ذكرنا فارسي معرب، لذلك سنورد بعض التعريفات في المعاجم الفارسية المعربة.

عرفه **أبو منصور الجواليقي في معجمه المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم (ت540هـ):** الديوان: بالكسر. قال الأصمعيُّ، قال أبو عمرو: و" دَيْوَان" بالفتح خطأ، ولو جاز ذلك لقلت في الجمع " دَيَاوِينَ، ولا يكون إلاَّ "دَوَاوِينَ". قال الأصمعي: وأصله فارسي وإنَّما أراد " دِيبانْ " و"ديوان " أي : الشياطين، أي: كُتَّابٌ يشبهون الشياطين في نفاذهم والديُو" هو الشيطان"[1]. أكدَّ الأصمعي أنَّ الديوان مأخوذ من الديو بمعنى الشيطان، فالمصطلح يحمل معنى مجازي يعكس عبقرية وذكاء الكتاب.

عرفَّه **طوبيا العنيسي الحلبي اللبناني في معجمه تفسير الألفاظ الدَّخيلة في اللُّغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه (1932م)**، بأنَّه: ديوان: فارسي معناه شياطين وجان و(ديوانه) معناه مجنون أي الشياطين حال فيه فقد نقل من الفارسية إلى الآرامية (ديوا) ومعناه شيطان ثمَّ نقل على سبيل المجاز ليدُلَّ على كتاب القوانين والحسابات ومجلس العُمَّال الخ"[2]. وعليه، فالمصطلح تطور عن طريق آلية المجاز من كونه يعني الشياطين في أصله، فأصبح يُطلق على كُتَّاب القوانين والحساب لسرعتهم وعبقريتهم

[1] الجواليقي أبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر ، المعرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص78.

[2] طوبيا العنيسي الحلبي اللبناني، تفسير الألفاظ الدَّخيلة في اللُّغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه، مكتبة العرب، ط02، 1932م، ص30.

في ذلك. هذا يعكس كيف يمكن أن تتغير الكلمات وتكتسب معاني جديدة في سياقات ثقافية مختلفة. بالتالي، فطوبيا العنيسي أخذ تعريفه من الأصمعي من معجم الجواليقي.

استنادا للتعريفات السابقة، يتضح أنَّ أصل مصطلح **الديوان** فارسي وقد تمَّ تعريبه. وحيث أنَّ الثابت فكرة وضع الديوان أيضا الذي وضعه عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، قد تمَّ أخذها عن الفرس؛ لأنَّ العرب لم يعرفوا نظام الدَّيوان قبل عصر عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه.

2. في الاصطلاح:

عرَّفه **القلقشندي في كتابه صبح الأعشى (ت821هـ):** لا شكَّ أنَّ هذا اسم مركَّب من مضاف وهو ديوان ومضاف إليه وهو الإنشاء، أمَّا الديوان فاسم للمكان الذي يجلس فيه الكُتَّاب وهو بكسر الدَّال، وقد كان هذا الديوان في الزمن المتقدم يُشار إليه بديوان الرسائل نسبة إلى أشهر أنواع الكتابة الصادرة عنه، إذ كانت الرسائل أكثر أنواع كتابة الإنشاء وانتشارا وشيوعا، وربما قيل ديوان المكاتبات. ثم مع مرور الوقت أصبح هذا الاسم هو السائد والمعروف به حتى يومنا هذا[1]. القلقشندي يعرض مصطلح الديوان كمصطلح مركب يعبر عن مكان يجتمع فيه الكتاب، وأظهر تطوره من ديوان الرسائل إلى ديوان المكاتبات.

سعيد علُّوش في معجمه المصطلحات الأدبية المعاصرة(1985م): ديوان: "ج دواوين، لفظ معرَّب؛ السجل: الدَّفتر. ديوان الحكم: الدَّفتر الذي يُكتبُ فيه القاضي

[1] ينظر: القلقشندي أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله ، صبح الأعشى في كتابة الانشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، دط، 1340هـ/1922م، 90/1.

ما يحتاج إلى ضبطه. الدفاتر التي تُدوَّن فيها الحجج ونحوها (Archives(e. f" [1]. قدم تعريفا حديثًا للمصطلح، مشيرًا إلى أن الديوان يُشبه الأرشيف في العصر الحديث، مما يوضح الوظيفة الإدارية الحديثة للديوان.

التونجي في المعجم المفصَّل في الأدب(1999م): "الديوان: كلمة فارسية، معناها القديم: عمل الجن والفرس يسمونه "دفتر"[2]. قدم تعريفًا يُظهر أن الديوان يعني الدفتر في الفارسية القديمة، مما يتوافق مع المعاجم الأخرى في كون المصطلح فارسي.

أحمد مطلوب معجم مصطلحات النقد العربي القديم(2001م): الديوان: مجتمع الصُحف، وهو من دوَّنت وقال ابن الأثير: هو الدَّفتر الذي تُكتب فيه أسماء الجنود وأهل العطاء ـ وأوَّل من دوَّن الدواوين عمر ـ رضي الله عنهـ[3]. استخدم تعريفا بالشاهد، مستندا إلى قول ابن الأثير ليوضح أول بداية لاستخدام مصطلح الديوان.

المعجم الوسيط (2004م): الديوان: الدَّفتر يُكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء. وـ الكتبة ـ وـ مكانهم ـ وـ مجموع شِعر شاعر ـ وـ كل كتابٍ ـ (ج) دواوين. (مح)[4]. نجد رمز(مح) بمعنى أن المصطلح محدث، فعرفه بكونه سجلاً يدون فيه أسماء الجيش والعطاء كما كان الأمر في العصر الأموي والعصر العباسي، وفي العصر الحديث الديوان هو كتاب يضم مجموعة أشعار لشاعر واحد.

---

[1] سعيد علُّوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتب اللبناني، بيروت، ط02، 1405هـ/1985م، ص179.

[2] ينظر: محمد التونجي، المعجم المفصَّل في الأدب، دار الكتب العلمية، لبنان، ط 02، 1419هـ/1999م، 357/1.

[3] ينظر: أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان ناشرون، ط01، 2001، 230ص.

[4] الوسيط، مجمع اللغة العربية، مادة(د و ن)، ص305.

فالديوان إذن، هو الدفتر أو الكتاب الذي يُجمع فيه الرسائل أو التوقيعات أو غير ذلك من أمور الدولة كالأرشيف في وقتنا الحالي. أو هو المكان الذي كان يجتمع فيه الكُتَّاب لكتابة الرسائل التي كانت تملى عليهم في البداية، ثمَّ طوروا مهارتهم في الكتابة فأصبحوا يكتبون بمفردهم حسب الموضوع المكلَّف لهم، الذي عُرف باسم ديوان الرسائل فيما بعد عندما تنوعت الدواوين تماما كما هو الأمر في وقتنا الحالي، كل وزارة مخصصة لتسيير شأن من شؤون الدولة. لذلك عُرفت الدواوين بأنَّها: "دوائر العمل في الدولة تشبه الوزارات في العصر الحالي"[1].

ثالثا: مصطلح الديوان بين الأصل الفارسي والأصل العربي:

اختلفت الروايات حول أصل مصطلح الديوان بين أصل عربي وأصل فارسي. وورد مصطلح الديوان في اللغة الفارسية بمعنيين :

الأول: بمعنى مجانين. يُروى" كسرى أنوشروان دخل على كُتَّابه يقومون بالعد والحساب، أطلق عليهم اسم ديوانه أي مجانين. مع مرور الوقت أصبحوا يطلقون كلمة ديوانه على المكان الذي يعمل به الكُتَّاب، ثمَّ تطور المصطلح أصبح ديوان فقط بدون حرف الهاء في الأخير"[2].

الثاني: بمعنى الشياطين. يُروى أن "معنى الكلمة هو الشياطين، وسُميَ الكُتَّاب باسم الشياطين لحذقهم ومهارتهم في تسيير شؤون الدَّولة، تطور مع الوقت ليدل على مكان جلوس الكُتَّاب"[3].

---

[1] أمينة بيطار، تاريخ العصر العباسي، جامعة دمشق، دط، دت، ص329.

[2] ينظر: مصطفى فايدة، تأسيس عمر بن الخطاب للديوان، تر: مِعد بن سويلم الشامان، جامعة الملك سعود، ط01، 1418هـ/1997م، ص67.

[3] ينظر: المرجع نفسه، ص67.

فالمصطلح بالفارسية يحمل مفهومين: الأول بمعنى مجانين ديوانه، والثاني بمعنى شياطين وكلاهما أُطلقا على الكُتَّاب لدلالة على المهارة في تنظيم أمور دولتهم.

أمَّا في اللغة العربية ورد مصطلح الدِّيوان ورد بثلاث معانٍ:

الأول: في حديث عائشة رضي الله عنها بمعنى دفاتر الحساب.

الثاني: ديوان العرب، الذي أطلق على شعر العرب لإظهار مكانته وقيمته في المجتمع العربي.

الثالث: شاع مصطلح الديوان بمعناه المقصود فعلاً منذ تأسيس عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أجل توزيع واردات الفيء. [1]وعليه، تطور مصطلح الديوان في اللغة العربية من معناها الأول كدفاتر الحساب، إلى ديوان الشعر الذي يعبر عن مجموعة من الأشعار، وصولا إلى معناها الإداري الشامل في عهد عمر بن الخطاب كمؤسسة تهتم بتسجيل وتوزيع ايرادات الدولة.

رابعا: تعريف مصطلح الرسالة الديوانية:

سيتم عرض مجموعة من التعاريف الاصطلاحية للرسالة الديوانية، للوقوف على المفهوم الدقيق للمصطلح، ومعرفة جوانب الاتفاق والاختلاف في التاريخ عبر عصور مختلفة:

عرَّفها **محمد نبيه حجاب (1986م)**: "نعني بها الرسائل الخاصة بشؤون الدَّولة في الداخل والخارج والديوان مصدرها، ومواردها، لهذا سميت أيضا بـ"الرسائل الديوانية". بدأت برسائل الدَّعوة إلى الإسلام، والأحلاف التي كانت بينه صلى الله عليه

[1]ينظر: مصطفى فايدة، تأسيس عمر بن الخطاب للديوان، ص68.

وسلم وبين المشركين وكذا كتب الأمان والعطاء"[1]. عرَّف المصطلح بناءً على أصله، وفسَّر سبب تسميتها بالرسالة الديوانية نسبة للديوان، وأكدَّ أنَّ هذا النوع من الرسائل عرفه العرب منذ عهده صلى الله عليه وسلم. إلاَّ أن الرسائل الصادرة عن الرسول يُمكن تسميته بالرسائل السياسية أو الدينية لأنَّ غرضها الأساسي هو نشر الدين الاسلامي الجديد، ليست برسائل ديوانية.

فايز عبد الغني فلاح القيسي(1989م): "وهي تلك الرسائل التي تعالج شؤون الإدارة والتنظيم الداخلي الذي يتعلق بالحياة العامة، وشؤون الرعية، ولا سيَّما" أنَّ الرَّعيَّة من السلطان"[2]. أبرز جانبا جديدا في تعريفه وهو اهتمام الرسائل الديوانية بشؤون الرعية، بذلك أضاف بُعدا اجتماعيًا إليها بجانب الجانب السياسي.

عرفها **حسين بيوض(1996م)** بقوله: "يراد بالرسائل السياسية الكتب التي تكون بين المملوك والحكام والأمراء والوُلاَّة والقواد، وبمعنى آخر الرسائل ذات الطابع الرَّسمي، التي دعيت في العصور المتأخرة بالسلطانيات، وموضوعات تلك الكتب تتصل بسياسة هؤلاء وأنظمة حكمهم، وتصريف شؤون الدولة وحكامها، وتنظيم العلاقات مع الدول المجاورة. ولأهمية هذه الرسائل السياسية فقد أصبح لها ديوان خاص بها في وقت مبكر، فلذلك نسبت إليه، فسميت بالرسائل الديوانية"[3]. أول ما يجب التنويه عليه هو أنَّه استعمل مصطلح الرسالة السياسية مُقابلا لمصطلح الرسالة الديوانية وكذلك قابلها بمصطلح الكُتب. فسَّر هو أيضا سبب تسميتها بالرسالة الديوانية

[1] ينظر: محمد نبيه حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب، ص46.

[2] فايز عبد الغني فلاح القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير، ط01، 1409هـ/1989م، ص118.

[3] حسين بيوض، الرسائل السياسية في العصر العباسي الأول، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، دط، 1996م، ص05.

نسبة للديوان، واعتمد في تعريفه على ذكر الموضوعات التي تُعالجها الرسالة الديوانية، مثل:

ـ تنظيم شؤون الدولة وحكامها.

ـ تنظيم العلاقات الداخلية والخارجية للدولة. بهذا ذكر أهم ما يرتبط بالمصطلح من ناحية سبب التسمية والمجال الذي ينتمي إليه وأهم مكوناته.

محمد يونس عبد العال(1996م)، فاستعمل مصطلح الديواني وعرَّفه بقوله: "الديواني ـ أي الرسمي الإداري ـ الذي يصدر عن دواوين الحكام، ويعنى بأمور الدولة وشئونها السياسية، ولذا يحرص على دقة المعلومات ومراعاة الرسوم المتعارف عليها في المكاتبات ذات الصبغة الرسمية، ومن هذا النوع: العهود والتقاليد والمناشير والفتوحات وانتقال الخلافة والتقليب والتنويه والإحماد والإذمام والدعوة إلى الطاعة والحث على الجهاد"[1]. تعريفه مشابه تقريبا للتعريفات السابقة، إلاَّ أنه استعمل مصطلح الديواني أي الرسمي الإداري، وذكر أنواعه مثل العهود والتقاليد والمناشير وغيرها. مما أضاف تنوعا للوظائف التي تقوم بها.

محمد مسعود جبران(2004م)، عرَّفها بأنَّها رسالة أدبية في قوله: "الرسائل السلطانية وهي الرسائل الأدبية الصادرة عن الحكام والسلاطين، أوعن دواوين إنشائهم إلى الذين يضارعونهم في المنزلة أو شارة الحكم. ويتناول المنشئون فيها على ألسنة حكامهم مسائل ومضامين مختلفة من صوالح الدولة يغلب على هذا النوع الدقة والتقيد بالمصطلحات الحكومية والفنية، والمساواة في العبارة، والبراءة من التهويل والتخيل"[2].

[1] محمد يونس عبد العال، في النثر العربي قضايا وفنون ونصوص، ص162.

[2] محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)، دار المدار الإسلامي، ط01، 2004م، ص 103.

وعليه، وضع مصطلح الرسالة السلطانية بدلا من الرسالة الديوانية، ربما تفسير اختياره لهذا المصطلح هو أنَّها صادرة عن السلاطين، وعرَّفها بكونها رسالة أدبية صادرة عن السلاطين، ووصفها برسالة أدبية لأنَّ كاتبها يكتبها بأسلوب فني، يتخير ألفاظه وينمقها، وذكر خصائص هذا النوع من الرسائل من ناحية طبيعة المصطلحات الخاصة بها التي تتمثل في المصطلحات الحكومية والفنية مع ضرورة التقيد بهما. ركز بذلك على الجانب الأدبي للرسائل غفل عنه الدارسون في التعريفات السابقة.

بناءً على ما سبق، سنحدد أهم ما يتصل بمصطلح الرسالة الديوانية، من خلال الجدول التالي:

مرادفات مصطلح الرسالة الديوانية	موضوعاتها	مجالاتها
ـ رسائل رسمية. ـ رسائل سلطانية. ـ سلطانيات. ـ مكاتبات رسمية. ـ كتب.	ـ تنظيم شؤون الدولة الداخلية والخارجية. ـ توثيق العهود. ـ كتابة المناشير. ـ الدعوة إلى الجهاد.	مختصة بثلاث اتجاهات: ـ شؤون الخليفة. ـ شؤون الرعية. ـ شؤون الدولة مع ما جاورها.

جدول رقم 03: يوضح مصطلح الرسالة الديوانية وما يتعلق به

قراءة تحليلية للجدول:

من خلال الجدول، يمكن تعريف مصطلح الرسالة الديوانية بأنها: مصطلح مركب يتكون من جزأين الأول عربي: "رسالة" والثاني: "ديوانية" من ديوان فارسي معرب. لهذا يمكن تعريف المصطلح بأنَّها رسالة رسمية يُرسلها صاحبها أو الجهة المختصة بإصدارها لتحقيق أغراض سياسية. لذا وردت في العديد من المراجع

بمصطلح الرسالة السياسية التي تُقابل مصطلح الرسالة الديوانية. تختص بتسيير شؤون الدولة داخليا وخارجيا، حيث كان من خلالها يتم توثيق العهود والاعلان عن المناشير وغيرها من المواضيع المختصة بها، بذلك تُقابل في العصر الحديث مصطلح الرسالة الرسمية الصادرة عن الوزارة الخارجية، التي يكون غرضها أيضا سياسيا بالدرجة الأولى وتنظيم العلاقات بين الدول. وتكون على شكل رسالة شكر بين رؤساء الدول أو رسالة تعزية أو رسالة عبارة عن دعوة والتي يتم الاعلان عنها في الأخبار.

المبحث الثالث: تاريخ نشأة الديوان في الحضارة العربية:

تتفق جميع الدراسات أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو المؤسس الفعلي للديوان، نظرًا للعديد من الأسباب التي دفعته لوضعه. سنوضحها بعد التطرق لمسألة وجود الديوان في عهد الرَّسول صلى الله عليه و سلم .

1. الديوان في عهد الرَّسول صلى الله عليه وسلم ـ هل كان موجودا أو لا؟ ـ

لقد وُجد الديوان منذ عهد الرَّسول صلى الله عليه لكن لم يُعرف بهذه التسمية، مما يثبت صحة هذا القول، أنَّه كان للرسول صلى الله عليه وسلم كتبة وقُرَّاء من الصحابة بلغ عددهم أكثر من اثنين وأربعين شخصا، فقد كان عثمان بن عفان يكتب له أحيانا، وأحيانا علي بن أبي طالب، وخالد بن سعيد وأبان بن سعيد ويكفي هذا العدد من الأشخاص لأن يؤلفوا ديوانا للكتابة والإدارة[1]. لكن، القول الآنف الذكر ليس دليلاً على وجود ديوان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، بل دليل على معرفة العرب للكتابة، التي تميزت بطابع بسيط بعيد عن التنميق الفني، عبارة عن رسائل لأغراض

[1] ينظر: حسَّان حلاَّق، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، ط02، 1419هـ/1999م، ص30.

دينية؛ أو كتابة العهود والوثائق، فالدَّولة الإسلامية في عهده صلى الله عليه وسلم كانت في بداية نشأتها لم تصل لدرجة أن تمتلك نظاما إداريا لتُكون ديوانا.

2. نشأة الديوان مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

وكان عمر أول من دوَّن الدواوين من العرب في الإسلام، وكان السبب في ذلك، أن أبا هريرة قدم عليه من البحرين ومعه مال، فلقي عمر، فقال له عمر: ماذا جئت به؟ قال: خمس مئة ألف درهم، فقال عمر: أتدري ما تقول! قال: نعم، مئة ألف درهم، ومئة ألف درهم، ومئة ألف درهم، ومئة ألف درهم، ومئة ألف درهم. فقال عمر: أطيب هو؟ قال: لا أدري. فصعد عمر المنبر، فحمد الله واثنى عليه، ثمَّ قال:

أيها الناس، قد جاءنا مال كثير، فان شئتم كلناه كيلا، وان شئتم أن نعد عدا. فقام إليه رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيت هؤلاء الاعاجم يدونون ديوانا لهم. قال: دونوا الدواوين"[1]. إذن، فقد أنشأ عمر رضي الله عنه الدَّيوان لتوزيع الأموال على المسلمين بشكل عادل ومتساوٍ. وهذا إن دلَّ على شيء، فيدل على أمانته رضي الله عنه وعدله واتباعه لأوامر ديننا الحنيف الذي يحرص على إعطاء كل ذي حق حقه دون تمييز أو عنصرية. فأخذ فكرة الديوان عن الفرس باعتبارهم دولة تتمتع بالنظام التي تملكه أي دولة.

بعد وفاة الرَّسول صلى الله عليه وسلم، تولَّى الصحابة الخلافة لتسيير شؤون المسلمين وضمان حقوقهم وتوزيعها بشكل عادل. "ولما تولَّى عمر بن الخطاب الخلافة، طوَّر الأنظمة السائدة في الدَّولة، وأضاف إليها أساليب إدارية متَّبعة في بلاد

[1] الجهيشاري محمد بن عبدوس بن عبد الله، كتاب الوزراء والكتاب، دار الفكر الحديث، بيروت، دط، 1988م، ص17.

الفرس، ففي 15هـ فرض على المسلمين الفروض ودوَّن الدواوين، وأعطى العطايا السابقة في الإسلام"[1].

من خلال ما سبق، يبدو أنَّ الديوان عُرف مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبذلك ننفي فكرة وجود نظام الديوان في عهد الرَّسول صلى الله عليه وسلم. بطبيعة الأمر، هناك أسباب دفعته لوضع الديوان، وسنحاول معرفة هذه الأسباب من خلال أهم الروايات التي تطرقت لذكر أسباب نشأة الديوان من خلال الآتي:

الرواية الأولى: تروي أنَّه لما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتح بلاد الفرس والرُّوم، قرر جعل عطاء للنَّاس في كل سنة، وجمع المال وتوزيعه على النَّاس بشكل عادل، فأمر بفرض الأعطيات وتدوينها في دفاتر الديوان.

الرواية الثانية: تروي لما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيش العراق من قبل سعد بن أبي وقاص شاور أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم في تدوين الدواوين.

الرواية الثالثة: تروي أنَّ فيرزان الفارسي أوصى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتأسيس الديوان، وأوضح له بعض الأمور المتعلقة به وبناءً على وصيته أنشأ عمر رضي الله عنه الديوان[2].

من خلال الروايات السابقة، يتضح أنَّ الرواية الأصح والأقرب للمنطق هي الرواية الثالثة، لكون الديوان أصله فارسي ولم يعرفه العرب قبل عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. حيث "أشار العارفون على الخليفة بأن يضع ديوانا للناس، أي سجلا تسجل أسماؤهم فيه. ولنذكر بهذه المناسبة أنَّ الشعر ديوان العرب، بمعنى أنَّه سجل

[1] حسان حلاق، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص31.

[2] ينظر: مصطفى فايدة، تأسيس عمر بن الخطاب للديوان، ص57–58.

العرب. وكان هؤلاء العارفون قد وجدوا مثيلا لهذا السجل عند كسرى. فوضع عمر ديوانا سمَّاه (ديوان العطاء)، أسماء من يستفيدون من المال" [1]. مع تطور الدولة الإسلامية وقيام الديوان، أصبحت دولة تتمتع بنظام إداري ومالي وقضائي. كذلك، إضافة إلى الديوان الذي أنشأه عمر رضي الله عنه، ظهرت العديد من الدواوين لكل منها وظيفة وهدف. سيتم توضيحها في أنواع الدَّواوين.

ما يجب الإشارة إليه، أنَّ عمر بن الخطاب لما أنشأ الديوان أطلق عليه مصطلح الديوان لم يحدد اسمه بصفة خاصة؛ إلاَّ أنَّ الدارسين أطلقوا عليه مصطلح ديوان الجند وأنَّه ـ رضي الله عنه ـ قد أسسَّه بهدف تجنيد كل أفراد الأمة، وأن يُكلف كل مسلم بتأدية المهمات الحربية عندما تقتضي الضرورة[2].

3. الدَّواوين في العصر الأموي:

ظهرت العديد من الدَّواوين في هذا العصر، نظرًا لتوسع الدولة الإسلامية. "تولَّى معاوية بن أبي سفيان الحكم (60/41هـ) وفي عهده تعددت الدَّواوين إلى أن أضحت خمسة تدير شؤون الدَّولة الأموية، وذلك نتيجة لاتساع هذه الدَّولة وازدياد نشاطها، فظهر مظهر الاختصاص فأصبح كلُّ ديوان يختص بناحية معينة من شؤون الدَّولة"[3].

لما آل الأمر إلى معاوية، فأنشأ ديوان الخاتم وديوان الرسائل، ثمَّ عُربت دواوين الخراج في عهد عبد الملك، فصارت العربية لغة الدَّواوين كلَّها، وكان يليها عرب

---

[1] يوسف العث، الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان، دار الفكر، دمشق، ط02، 1965م، ص28.

[2] ينظر: مصطفى فايدة، تأسيس عمر بن الخطاب للدواوين، ص120.

[3] حسَّان حلاَّق، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص34.

خُلَّص، أو مستعربون حذقوا العربية، كسالم مولى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد بن يحي[1].

قبل التطرق لأنواع الدَّواوين في العهد الأموي، نقف على:

3.1 أسباب تعريب الدواوين:

إتمام صبغ الدَّولة بالصبغة العربية بعد أن تحققت حركة الإصلاح النقدي، لأنَّ حركة التعريب كانت مظهرا من مظاهر وجود الدَّولة وسيادتها. كما أنَّ تولي أشخاص غير عرب زمام الإدارة في الدَّولة العربية، كان مخالفا لأسس وكيان الدَّولة القومي.

كان الاختلاف في لغات الدَّواوين يفتت نظام الدَّولة الاقتصادي ويعيق إدارتها المالية. لذا كانت حركة تعريب الدواوين دعما للمركزية العربية في النواحي الإدارية والاقتصادية وتصحيحا للنظام القديم.

تحرير النُظم الإدارية المالية من ربقة الخضوع للسيطرة العنصرية أو الشعوب المحلية، مما يؤكد سيادة الدَّولة سياسيا على البلاد المغلوبة .

تقييم اللُّغة العربية، ورفع مركزها واتخاذها لسان حضاريا للأمة الإسلامية والعربية وللشعوب التي خضعت لها[2].

من خلال الأسباب السابقة الذكر، يبدو أهم سبب لتعريب الدواوين هو جعل اللغة العربية لغة الحضارة والسيادة في مختلف الأنظمة الإدارية والمالية والسياسية، نظرًا لأن تعدد اللغات في الدواوين، بين فارسية وساسانية وغيرها، أدّى إلى نوع من

[1] أحمد محمد الحوفى، أدب السياسة في العصر الأموي، دار القلم، بيروت–لبنان، دط، دت، ص452.
[2] حسَّان حلاّق، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص57.

التشتت في النظام الاقتصادي للدولة. لذا، شكلت حركة تعريب الدواوين نوعا من التطور للغة العربية وتعزيز مكانتها.

3.2 نتائج تعريب الدواوين:

ترتبت عن تعريب الدواوين نتائج تتمثل في:

أحرز تعريب الدواوين على يد الخليفة عبد الملك بن مروان نتائج كبيرة في جميع المجالات السياسية والإدارية والثقافية واللغوية مازالت آثاره واضحة حتى اليوم، ويمكن تحديد تحديدها بما يأتي:

ـ إتمام سيادة لغة القرآن الكريم والسنة النبوية، فأضحت بذلك لغة السياسة والدين والعلم.

ـ نشوء طبقة بارزة من الكتاب العرب أو الموالي بدلا من الكتَّاب الفرس والروم في تولي شؤون إدارة الدواوين.

ـ بداية حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية حيث كانت حركة تعريب الدواوين أوَّل عملية ترجمة منظمة نقلت العديد من المصطلحات الأجنبية.

ـ أسهم تعريب الدواوين إلى تعريب الأقاليم والجاليات غير العربية، مما جعل منه عاملا عظيما في انتشار اللغة العربية.

ـ أحرزت الدولة الإشراف التام على النواحي المالية والإدارية وضبط أعمال الدواوين وسجلات الضرائب مما دعم نجاح الدولة بخطة الإصلاحي.

ـ انطلق الموالي لتعلم اللغة العربية للحصول على الوظائف والمناصب العالية، لكنهم في البداية وقعوا في الكثير من اللحن مما أوجب عليهم تعلم النحو ودراسته، فطرأت

نهضة لغوية واسعة، فكان بذلك سببا لظهور علماء كبار من الموالي في كلا العصرين الأموي و العباسي.

ـ تأسيس نظام إداري متكامل، مما دلَّ على جودة هذا النظام باعتماده من طرف العباسيون[1].

فيبدو أهم أثر لتعريب الدواوين هو ترقية استعمال اللغة العربية، وجعلها لغة للنظام الاداري والمالي والعسكري، واللغة الأولى لكتابة الرسائل الرسمية، التي حظيت بدور كبير في تعزيز العلاقات بين الدولة الاسلامية والدول المجاورة لها. فبعد أن كانت لغتها لغة فارسية أو لغة يونانية، أصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية. وقد فرضوا بذلك على الموالي، أي الكُتَّاب الأعاجم، تعلم اللغة العربية لأجل كتابة الرسائل للخلفاء، بعد أن كانوا يكتبون بلغتهم الأصلية. بالتالي، عززوا مكانة اللغة العربية ولم يفضلوا لغة أعجمية على لغتهم، كما يحدث في وقتنا الحالي، نظرا لإدراكهم أنَّ الأمة تتطور بلغتها.

3.3 أنواع الدواوين في العهد الأموي :

كما أشرنا سابقا أنَّ معاوية بن أبي سفيان قد أمر بوضع ديوان للرسائل وديوان الخاتم، إضافة لهذين النوعين ظهرت أنواع من الدواوين لكل منها وظيفة وهدف، سنحاول توضيح ذلك من خلال مايلي:

1. ديوان الجند:

نقصد به الديوان الذي أسَّسه عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه لتوزيع العطايا على المسلمين بشكل متساوٍ كما –ذكرنا سابقا–، وخاصة الجند منهم. تطوَّر هذا

[1] ينظر: علي محمد الصلابي، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، دار المعرفة، بيروت– لبنان، ط02، 1429هـ/2008م، ص 664–665.

الديوان مع العصر الأموي نتيجة لازدياد عدد الجند وتشعب المسائل المالية، نظرًا لكون العطاء الموَّجه للجنود يمثل لهم معاشا ليس راتبا فحسب"[1]. الهدف الرئيسي كما قلنا من نشأة ديوان العطاء الذي أسسه عمر بن الخطاب لكن لم يصطلح عليه بهذا الاسم هو توزيع الأموال بشكل متساوٍ بين المسلمين وتجنيدهم خدمة لأمور الدولة ولضمان حقوقهم سجلت أسماؤهم، فقد كان لهم مثل الراتب الذي يقتضيه الجندي اليوم. فهو بذلك يقابل مصطلح وزارة المالية في الوقت الحالي التي تتكلف بتسيير الشؤون المالية للدولة ولمختلف الوزارات الأخرى كما كان ديوان العطاء يشمل حتى الدواوين المركزية منها ديوان الجند. "بعد أن توحدت خلافة المسلمين تحت سلطة معاوية بن أبي سفيان، استقرت الأوضاع وتوجه إلى تسيير شئون الدولة وتنظيمها من الجوانب الإدارية والمالية والعسكرية، فكان لديوان الجند نصيبه من ذلك الاهتمام، فكانت عاصمته دمشق حددها له معاوية، فأقيمت فيها الدواوين المركزية ومن ضمنها ديوان الجند الذي تولاه عمرو ابن سعيد بن العاص بالإشراف والتسيير[1].

ما يجب الاشارة إليه فلقد أُقيم الدِّيوان بسيطا دون أي تعقيد إذ لم يكن يزيد على كونه سجل سجلَّت فيه قوائم بأسماء من يخصهم العطاء بجانب أسماء عوائلهم وأولادهم[2]، إضافة لكونه "أوَّل ديوان وُضِع في الاسلام، ويرى البعض أنَّه وُضِع في عهد النبي صلى الله عليه، وآخرون يؤكدون على فكرة وضعه في عهد عمر بن الخطَّاب وهو الأصح "[3].

[1] ينظر: عبد العزيز عبد الله سلومي، ديوان الجند، نشأته وتطوره في الدولة الاسلامية حتى عصر المأمون، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ط01، 1406هـ/1982م، ص149.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص106.

[3] ينظر: أمينة بيطار، تاريخ العصر العباسي، ص 330.

2. ديوان الخراج:

الديوان المختص بالإشراف على تسيير شؤون الجبايات والقضايا المالية للدَّولة ويتولَّى تسجيل ما يرد وما ينفق من الأموال. يقابل هذا الديوان المصلحة المالية حاليا، منظم تنظيما دقيقا وهو بذلك يعد من أهم الدَّواوين[1]. " معروف أن ديوان الخراج كان يقوم عليه في أول الأمر كتاب من الأجانب، يكتبون فيه بلغاتهم الأصلية، حتى إذا كان عصر عبد الملك نُقل هذا الديوان إلى العربية، فأصبح الشأن فيه كالشأن في ديوان الرسائل يليه العرب، ولم يلبث الأجانب أن سعوا إلى تعلم العربية وشاركوا في ديوان الرسائل نفسه"[2]. يتضح أن هذا الديوان، كان في بداية الأمر بلغة الكُتَّاب الأجانب على كون ديوان الخراج مستعيرا من الأمم المجاورة للعرب آنذاك؛ لكن تمَّ تعريبه في العصر الأموي واتخاذ اللغة العربية وسيلة الكتابة فيه.

2. ديوان بيت المال:

يُعرف بالديوان السامي، ويعتبر أصل الدواوين ومرجعها، إذ تدوَّن في جرائده جميع ما يرد إلى بيت المال من عين وغلائل وغنائم وأعشار. ويشرف كذلك على ما يخرج من وجوه الإنفاق والاطلاقات. فيتولى إثبات ما تنفقه سائر الدواوين بمصادقته[3]. إذن فهو المكان الذي يحفظ فيه المال العام للدولة الإسلامية من مختلف المصادر التي تعتمدها لتحصيل المال في ذلك الوقت من الغنائم وغيرها فيسجل كاتب هذا الديوان كل ما يتم إنفاقه بذلك يقابل ميزانية الدولة التي تشغل نفس مهمة ديوان المال عبارة عن وثيقة رسمية يسجل فيها الانفاقات والايرادات من قبل الحكومة خلال مدة معينة. من مهامه:

---

[1] ينظر: حسان حلاق، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص36–37.

[2] شوقي ضيف، النثر الفني ومذاهبه، ص103.

[3] أحمد عبد الباقي، معالم الحضارة العربية في القرن الثالث هجري، سلسلة التراث القومي، ط01، 1991م، ص14.

إثبات صحة ما تحصَّل من الايراد، اتخاذ الخزائن لأصناف الأموال لحفظها، يقدم للوزير ختمة أي ـ تقريرا شهريا ـ بكل ما يسجل ايرادا لبيت المال، وما ينفق منه ومن الدواوين الأخرى.

ونظرًا لأهمية صاحب هذا الديوان كان له علامة خاصة يضعها على الكتب والصكوك والاطلاقات، يتفقدها الوزير وخلفاؤه ويطالبون بها إذا لم يجدوها، بحيث لا تنفذ كتب الانفاق ما لم تكن تحمل تلك العلامة[1]. وعليه، كان يشكل الركيزة للنظام المالي والإداري في الدولة الأموية، كان له دور أساسي في جمع وتوزيع الموارد المالية بطريقة منظمة.

3. ديوان الرَّسائل :

هو الهيئة المشرفة على تحرير رسائل الخليفة وأوامره وعهوده، ووصاياه، ومواثيقه إلى موظفيه في الأقاليم الإسلامية إلى البلدان الخارجية التي لها علاقة بالدولة الإسلامية ومن أشهر من أشرف على ديوان الرسائل وقام بمهمة الكتابة في هذا الديوان في عهد معاوية عبد الله بن أوس الغساني، وزمل بن عمرو العذري، واستمر هذان الكاتبان في خلافة يزيد الأول[2]. فهو عبارة عن اتحاد منظم يتكون من مجموعة كُتَّاب مختصون بتدوين ما تمَّ تكليفهم به من طرف الوزير أو من يحكمهم. ديوان الرسائل يقابل رئاسة الوزارة في وقتنا الحالي، فكان الكاتب المتولي لكتابة الرسائل الصادرة عن هذا الديوان يُطلق عليه اسم رئيس الديوان، فيرسلها إلى الولاة والعمال وإلى الملوك الآخرين، ويتلقَّى الرسائل التي كانت تُرْسلُ إلى الخليفة. وكان الكاتب في أول أمره لا تتعدى وظيفته استملاء الرسائل. ثم تطورت الكتابة باتساع الحاجة إليها

[1] ينظر: المرجع السابق، ص14.

[2] علي محمد الصلابي، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ص221.

وأُقيمَ ديوان الرسائل[1]. لذا، اتخذَّ الأمويون ديوانًا خاصًا بالرسائل يخدم الإدارة المركزية والإدارات المحليَّة، حيث يجسد مهمة التنسيق بين جميع الدواوين الأخرى[2]. "فديوان الرسائل لا شك في كونه ظهر على يد الأمويين لكونهم في عصرهم فرض عليهم اتساع رقعة البلاد، وازدياد الحاجة إلى المكاتبات وإرسال الأوامر الأميرية ظهور ديوان يُعنى بكتابة ما يأمر به الخليفة، ويُدوَّن بأسلوب أدبي فنِّي ما هو مطلوب "[3]. و"كانوا يسمونه أيضا الديوان العزيز، وهو الذي يخاطبه الملوك في مكاتبات الخلفاء بما يشبه ديوان الرياسة أو وزارة الخارجية في هذه الأيام"[4].

مما هو جدير بالذكر أنَّ شؤون هذا الديوان كانت بيد العرب أول الأمر، وهذا أمر طبيعي، ثمَّ أخذت تنتقل بالتدريج إلى أيدي " الموالي" أولئك الذين انقطعوا لها، واستطاعوا بلباقتهم الفارسية ـ بعد أن حذقوا اللغة العربية وتمرَّسوا بأساليبها ـ أن يصلوا حبالهم بحبال الخلفاء والولاة، كأبي الزَّعيزعة مولى عبد الملك بن مروان، وعبد الله بن المقفع الذي كتب لداود بن علي، وسالم مولى هشام، وابنه عبد الله، وعبد الحميد بن يحي الذي كتب لمروان الثاني والذي بدأت به الكتابة كما يقولون[5]. من خلال النص تأكيد على دور الموالي في كتابة الرسائل الديوانية بعد تعلمهم للغة العربية كما وضحنا ذلك في نتائج تعريب الدواوين. لذلك احتل ديوان الرسائل مكانة كبيرة لما كان له من أثر في تعزيز اللغة العربي كما أكد على ذلك شوقي ضيف بقوله: " من أهم الدَّواوين ديوان الرّسائل الذي لعب دورا خطيرا في نهضة النثر العربي، تصدر عنه رسائل

[1] ينظر: عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ص375.

[2] ينظر: حسَّان حلاَّق، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص36–37.

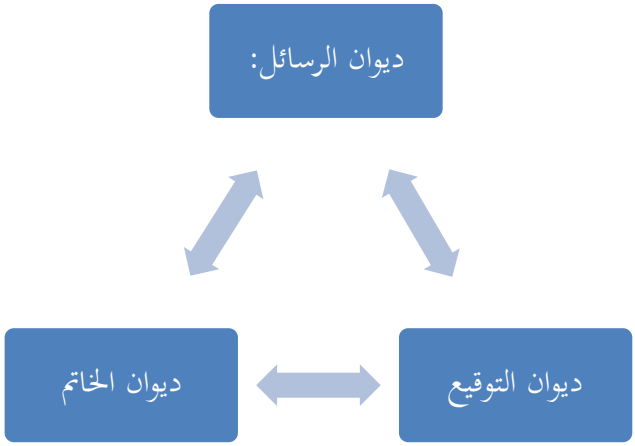
[3] محمد التونجي، المعجم المفصَّل في الأدب، ص358.

[4] جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، مؤسسة الهنداوي للتعليم والثقافة، دط، 2012م، 261/1.

[5] محمد نبيه حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط02، 1406ه/1986م، ص55.

الخلفاء، بجواره ديوان الخاتم الذي تختم فيه تلك الرسائل بعد مراجعتها، وديوان التوقيع خاص بالنظر في المظالم ورقاع أصحاب الشكوى يطلقون عليها القِصص "[1].

نظرًا لمكانة ديوان الرسائل فقد ضمَّ دواوين فرعية عنه. فكان ديوان الرسائل الديوان المركزي وكل من ديوان الخاتم وديوان التوقيع دواوين فرعية عنها تماما كما في الشكل التالي:



شكل رقم 02: يوضح ديوان الرسائل والدواوين المرتبطة به.

4. ديوان التوقيع:

يراد بها التوقيع على الرسائل الواردة إلى الديوان بما يناسبها، مع التعليل لذلك بآية قرآنية أو حكمة سائرة أو قول محكم، من إنشاء الكاتب بأسلوب موجز دقيق، ربما بلغ بالايجاز حد الاعجاز[2]. فهو بذلك "يقابل مصطلح " الإمضاء" في وقتنا الحالي؛ أماَّ في أيام الخلفاء فكان يراد به ما يعلقه الخليفة على القصص أو الرقاع التي يتم

[1] شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص22.

[2] محمد نبيه حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ص96.

عرضها عليه لطلب أو شكوى أو نحو ذلك، فيكتُب عليها جوابا على مضمونها بما يشبه التأشير في الدوائر الحكومية اليوم، وهو من واجبات صاحب ديوان الرسائل أو من يتعين للتوقيع خاصة"[1]. لكن يختلف التوقيع في الرسائل الرسمية في وقتهم عن التوقيع في الرسائل الرسمية اليوم في كونهم كانوا يعتمدون على التوقيع آية قرآنية أو بيتا شعريا أو حكمة؛ أمَّا اليوم فالإمضاء يكون باسم ولقب مُرسل الرسالة.

5. ديوان الخاتم:

يسجل الديوان ما يصدر عن الخليفة ثم يختم سواء كانت رسالة أم وثيقة قبل أن يرسل إلى الولايات والأمصار والأقاليم، لأنه قبل إنشاء هذا الديوان كانت الرسائل تصدر غير مختومة بتوقيعات الخليفة، فأصبحت الرسائل تصدر مختومة، بعد أن تحزم بخيط وتختم بالشمع، ثم تختم بخاتم صاحب هذا الديوان، كما هو الحال اليوم في " الأرشيف" أو السجلات. بحيث لا يستطيع أحد أن يعرف ما الذي تشتمل عليها، ولا يستطيع فضها أيضا، ولو حاول حاملها ذلك لاكتشف أمره فورا[2]. فالغرض الأساسي إذن من إنشاء ديوان الختم هو المحافظة على خصوصية الرسائل بحيث لا يستطيع أحد أن يطلع على فحوى الرسالة إلاَّ صاحبها الموجهة إليه. لكن هذا الأمر عُرف منذ عهده صلى الله عليه وسلم والدليل على ذلك: "حدَّثنا عفَّان بن مسلم، قال: حدثنا شعبة، قال: أنبانا قتادة، قال: سمعت أنس بن مالك يقول: لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتُبَ إلى ملك الروم، قيل له: إنَّهم لا يقرأون الكتاب إلاَّ أن يكون مختوما، قال: فاتخذ خاتما من فضَّة، فكاني أنظر إلى بياضه في يده، ونقش عليه

[1] ينظر: جورجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، 261/1.

[2] ينظر: حسان حلاق، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص38.

محمد رسول الله"[1]. استعمل إذن صلى الله عليه وسلم لكون الأمة التي يُرسل لها بالرسالة لا تقرؤها إلاَّ مختومة رغبة منهم في التأكد من صحة الرسالة الموجهة لهم. لأنَّه ولم يتخذ صلى الله عليه وسلم الخاتم حتى احتاج إلى مكاتبة الملوك منصرفه من الحديبية سنة ست فقيل له أن الملوك لا تقبل الكتاب إلاَّ أن يكون مختوما فاتخذ خاتما من قضة ونقش عليه " محمد رسول الله" محمد سطر ورسول سطر والله سطر"[2].

فالعلاقة إذن بين ديوان الرسائل وديواني التوقيع والخاتم علاقة تكامل، لا يستطيع ديوان الرسائل الاستغناء عن أحدهما فبهما يتم تنظيم أعمال ديوان الرسائل، لكون الرسالة أصبحت لها قواعد رسمية في إصدارها. فالتوقيع ليس مرتبط بديوان الرسائل بل هو من أجزاء الرسالة الديوانية وسنوضح ذلك في بنية الرسالة الديوانية.

قال عنه القلقشندي: " أما رفعة محله وشرف قدره، فأرفع محل وأشرف قدر؛ يكاد أن لا يكون عند الملك أخصُّ منه ولا ألزم لمجالسته، ولم يزل صاحب هذا الديوان معظَّما عند الملوك في كل زمن، مقدَّما لديهم على من عداه: يلقون إليه أسرارهم، ويخصونه بخفايا أمورهم، ويطلعونه على ما لم يطلع عليه أخص الأخصاء: من الوزراء والأهل و الولد"[3]. فصاحب ديوان الرسائل أو الكاتب كان بمثابة الأمين العام للوزير وكاتم سره والمنظم لأفكاره، فكان أقرب شخص إليه، لذلك كانوا يشترطون في اختيار الكاتب شروطًا تتعلق بخُلقه خاصة الأمانة فيكون أمينًا لا يُخرج سر الخليفة ولا يخبر أحد عما احتوته الرسالة. لذلك حظى كل من ديوان الرسائل وصاحبه بأهمية كبيرة، نظرا لما يتمتعان به من قيمة وأهمية في تسيير شؤون الدولة من خلال

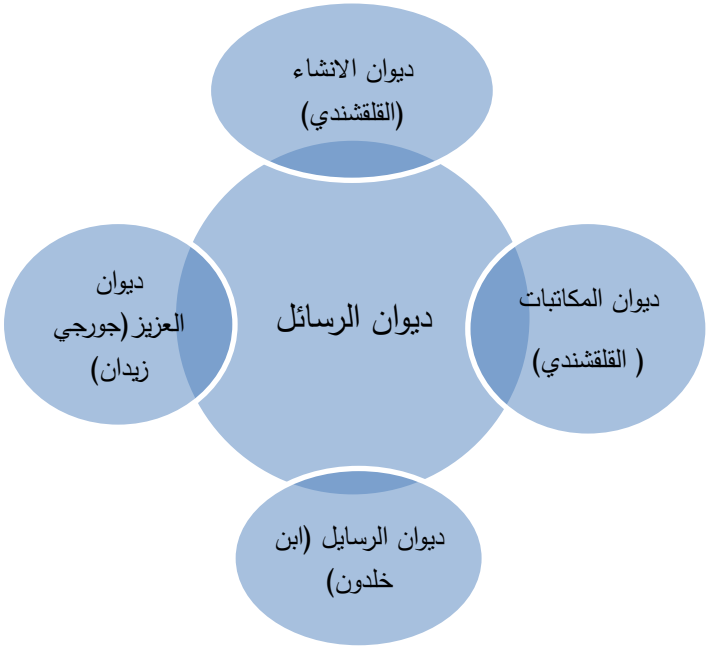
[1] البلاذري أحمد بن يحي بن جابر بن داود ، فتوح البلدان، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، دط، 1997م، ص515. .

[2] الصولي أبي بكر بن محمد ، أدب الكتاب، المكتبة العربية، لبنان، دط، 1341م، ص139.

[3] القلقشندي، صبح الاعشى في كتابة الانشا، 101/1.

المكاتبات والرَّسائل الصادرة عنه بين الخلفاء، التي أُطلق عليها مصطلح الرَّسائل الديوانية محور بحثنا.

من خلال ما سبق، لاحظت تعددًا مصطلحيًا لمصطلح ديوان الرسائل بمصطلحات أخرى تقابله، لكن جميع التسميات تحمل نفس المعنى، سأوضحها في المخطط التالي:



شكل رقم 03: يوضح تتبع تطور مصطلح ديوان الرسائل.

قراءة تحليلية للشكل:

استعمل ابن خلدون(ت1406م) فقد قابله بمصطلح "ديوان الرسايل والكتابة"[1]. أمَّا القلقشندي (ت1418م) استعمل مصطلحي ديوان المكاتبات وديوان الانشاء مقابلا لمصطلح ديوان الرسائل، ينتميان لنفس العصر؛ لكن استعملا مصطلحين مختلفين،

[1] ابن خلدون، المقدمة، تح: أ. م. كاترمير، مكتبة لبنان، دط، 1858م، 2/ص22.

أماَّ جورجي زيدان(1914م)، قابله بمصطلح الديوان العزيز؛ إلاَّ أنَّها جميعا تحمل نفس المعنى الذي ذكرناه المتمثل في الجهة المسؤولة عن كتابة الرسائل الديوانية.

6. ديوان الجيش والرواتب :

وهو على ثلاثة أقسام:

الأوَّل: " ديوان الجيش". ولا يكون صاحبه إلاَّ مسلما، وله الرتبة الجليلة والمكانة الرفيعة؛ وبين يديه حاجب، وإليه عرض الأجناد وخيولهم. وبين يديه نقباء الأمراء، يعرفونه أحوال الأجناد من الحياة والموت والغيبة والحضور وغير ذلك.

الثاني: " ديوان الرواتب". وكان يشتمل على اسم كل مرتزق في الدولة وجار وجِراية، وفيه كاتب أصيل بطرَّحة ونحو عشرة معينين، والتعريفات واردة عليه من كل عمل باستمرار منْ هو مستمر. مباشرة من استجد وموت من مات.

الثالث: " ديوان الإقطاع". وكان مختصا عندهم بما هو مقطع للأجناد، وليس للمباشرين فيه تنزيل حلية جندي ولا شية دابته[1].

7. ديوان البريد:

يقال: "إن أول من وضع نظام البريد في الإسلام معاوية بن أبي سفيان الذي أخذه عن البيزنطيين"[2]. كذلك أكدت بعض المصادر أنَّه أخذه من الروم، وكانت أعماله في هذا العصر واسعة ومتشعبة، نظرًا لاتساع رقعة الدولة الإسلامية، حيث حسَّن الخلفاء الأمويون طرق المواصلات التي سير عليها صاحب البريد، بطرق واضحة، فأصبحت الأخبار تصل بسرعة إلى مقر الخلافة بالشام، ولم تقتصر

[1] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، 4/202–201–200.

[2] إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي السياسي والحضاري، دار الكتاب العالمي، ط01، 1989م، ص222.

خدمات البريد على ما يتعلق بأمور الدولة الداخلية، بل كان يهتم بشؤون الدولة الخارجية أيضا ويحمل الرسائل من بلد لآخر، وكانت الدولة في عهد معاوية لا تستغني عن البريد في حالات السلم، وحالات الحرب، لذلك كان موظف البريد من أهم أعوان الخليفة[1]. ركز ابن معاوية على ديوان البريد لما له من دور في تسيير وتنظيم أمور الدولة الداخلية والخارجية، فاتخذه الوسيلة الأولى لنقل الأخبار المهمة عبر رسائل يتم كتابتها في ديوان الرسائل، ثمَّ يتولى ديوان البريد إرسالها.

تطور هذا الديوان في **عهد عبد الملك بن مروان**، حيث أضاف له أمور لم تكن موجودة في عهد ابن معاوية، سنوضحها فيما يلي:

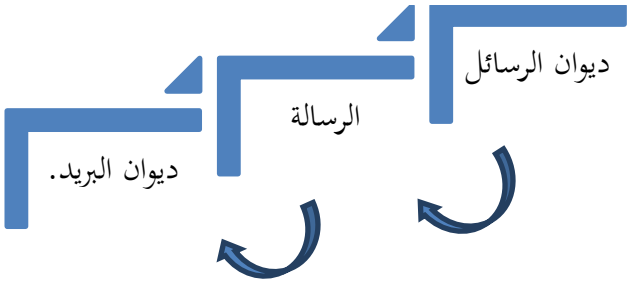
ـ طوَّر الأجهزة التي تساعده على جمع المعلومات، فاعتنى بشكل كبير بالبريد لكونه وسيلة مهمة من وسائل ضبط دولته وانتظام أمورها.

ـ لم يعد وسيلة لنقل الأخبار والرسائل بين العاصمة والولايات وبطريقة تبادل الخيل وحسب، مثلما كان في عهد معاوية، بل أصبح وسيلة مهمة في العمليات العسكرية، ونقل الأشخاص المهمين والمواد المختلفة، باستخدام الرحلات السريعة والمنظمة.

ـ أصبح عينا للخليفة في نقل أخبار الإقليم والعمال وشكاوى الناس من عمالهم وموظفي الدولة هناك"[2]. لذلك انتقل من كونه وسيلة لنقل الرسائل فقط في عهد معاوية، لوسيلة تسير الأمور العسكرية، بنقل الأشخاص والمواد المهمة عبر رحلات منظمة من طرف الديوان.

[1] ينظر: علي محمد الصلابي، الدولة الأموية عوامل الازدهار و تداعيات الانهيار، ص222.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص662.



شكل رقم 04: يوضح نظام إصدار الرسالة الديوانية في العصر الأموي.

قراءة تحليلية للمخطط:

إذن، فكل من ديوان الرسائل وديوان البريد مرتبطين ببعضهما، والرسالة أولوية اهتمام كل منهما، فيتم إنتاج الرسالة من طرف ديوان الرسائل والكتاب المخصصين لذلك، ثمَّ يتم تنظيم هذه الرسائل وإرسالها بواسطة ديوان البريد، فيرسلها إمَّا داخل حدود الدولة أو خارجها. فكانوا يعتمدون لنقلها اتخاذ الخيول والعربات وسيلة لتوصيلها، فكان نقل الرسالة من مكان لآخر يتطلب جهدًا عظيمًا، عكسنا اليوم تماما فالبريد الالكتروني يمكنك من إرسال ما تريد إلى أي مكان في العالم في ثوانٍ معدودة.

8. ديوان الصدقة:

ينظر في موارد الزكاة والصدقات وفي توزيعها بين مستحقيها، كما جاء ذلك في القرآن والسنة، ويشير إليه الجهيشاري أول مرة في خلافة الشام"[1]. تنحصر مهمة هذا الديوان في جباية موارد الزكاة وغيرها من الصدقات وتوزيعها على مستحقيها وفق الأحكام الشرعية"[2]. فهو بذلك يشبه صندوق الزكاة في عصرنا الحالي، المسؤولة عنه وزارة الأوقاف والشؤون الدينية.

[1] عبد العزيز الدوري، النظم الإسلامية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، دط، 2008م، ص170.

[2] أحمد عبد الباقي، معالم الحضارة الإسلامية في القرن الثالث الهجري، ص20.

استنادًا إلى ذلك، هذه الدواوين كانت جزءً أساسيًا من الهيكل الإداري للدولة الأموية وساهمت في تنظيم شؤون الدولة بشكل فعَّال. ثم تطورت الدواوين بشكل كبير في العصر العباسي، سنفصل فيها في الفصل الموالي.

الفصل الثاني:

الرسالة الديوانية من البداية الاموية الى النضج العباسي.

المبحث الاول: تطور الدواوين في العصر العباسي.

المبحث الثاني: الرسالة الديوانية النشأة والتطور.

المبحث الثالث: أنواع الرسائل الديوانية.

الفصل الثاني: الرسالة الديوانية من البداية الأموية إلى النضج العباسي.

المبحث الأول: تطور الدَّواوين في العصر العباسي :

الدَّواوين كانت كثيرة ومتنوعة في العصر العباسي "فديوان الخراج، وديوان النفقات وديوان الضياع وديوان الرَّسائل وديوان للخاتم وديوان للجيش، ودواوين لشرقي الدَّولة وغربيها، ولكل ولاية ديوان وأحيانا دواوين. وفوق كل هذه الدَّواوين ديوان الزمام الذي يشرف عليها"[1]. فازدهرت المدينة في عصر نفوذ الخلفاء وتطورت تطورا بالغًا، واتسعت أعمال الدولة، بسبب مخالطتهم للفرس، وسعة نفوذهم فأنشأ الخلفاء العباسيون الكثير من الدواوين، وخصوا كل ديوان بتأدية شأن من شؤون الدولة، وتولى على تنظيم هذه الدواوين الوزراء الفارسيون وأتباعهم ممن نقلوا النظام الكسروى في الإدارة وطبقوه في دولة الخلافة[2]. " ولما داخل الفرس العرب هذه المداخلة الشديدة، وصارت إليهم سياسة الدولة زادوا في أنواع الدواوين، وخصوا كلاًّ بعمل، ومازالوا يجربون النظم حتى انتهت بهم التجربة إلى نظام كان أدَّق وضعا وأتَّم ضبطا جرى على أيدي البرامكة يحي وولديه الفضل وجعفر، ومازال هذا النظام متبعا في جملته حتى حل محله النظام السلجوقي"[3]. بهذا نرى انتقال الحكم من يد العرب في العصر الأموي، إلى سيطرة الفرس على نظام الدولة العباسية في جميع أمور الدولة والخلافة، تجسَّد ذلك من خلال تطبيق نظام الدواوين الخاص بهم في الدولة العباسية، سنقدم هنا بعض الأمثلة على أنواع الدواوين العباسية التي لم تكن موجودة في العصر الأموي.

---

[1] شوقي ضيف، العصر العباسي الثاني، ص458.

[2] ينظر: محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، ص307.

[3] محمود مصطفى، الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي، 79/2.

1. ديوان الجند في العصر العباسي :

حينما تولَّى أبو جعفر المنصور الخِلافة، فإنَّه اهتم ببناء الدَّولة وتشييدها وهو الذي بنى مدينة بغداد وقسمَّها أرباعا، ونقل إليه الخزائن والدواوين وبيوت الأموال في سنة ست وأربعين ومائة، فكانت الدواوين المركزية كلَّها في بغداد، وكان لديوان الجند فروع في أقاليم الخِلافة الإسلامية، وقد بلغ عدد أفراد جيشه مائة وخمسة وعشرين ألف جندي[1]. ما يجب الاشارة إليه في هذا النوع من الدواوين، يُشترط أن يكون كاتبه خبيرًا بالأسلحة عارفًا بحسنها ورديئها، الشجاعة والحزم والسخاء وحسن التدبير، الدراية بمكائد الحروب والخبرة بالجيوش والعروض، على علم بترتيب العساكر ومعرفة الرجال. بذلك كان لصاحب ديوان الجند أهمية خاصة إذ كان يعهد إليه أحيانا بقيادة الجيوش في العصر العباسي[2].

2. ديوان النفقات:

يتولَّى تدوين ما ينفق أو يخرج من الأموال العامة لإنفاق على الجيش وغيره، فهو ينظر في المصروفات كافة، وله علاقة مباشرة بديوان بيت المال، ويمكن اعتباره جزءً متما له. من مهامه: يتولى توفير احتياجات دار الخلافة، فيصرف أرزاق منتسبيها من موظفين وخدم، يحاسب متعهدي التجهيزات للدار، ينفق على ما فيها من الخيل والبغال وغيرها من الدواب، وعلى ساستها والقوَّام عليها، الإنفاق على إنشاء المباني أو ترميم القائم منها.

[1] عبد العزيز عبد الله سلومي، ديوان الجند، نشأته وتطوره في الدَّولة الإسلامية حتى عصر المأمون، ص172.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص209/208.

لذلك يُعتبر من أرفع الدواوين إذ إنَّها ترجع كلَّها إليه في أمورها، ويسمى صاحبه بالمستوفي الذي ينبغي أن يكون عارفا بالحساب والمكاييل والمقاييس والأسعار وغير ذلك[1].

3. ديوان المصادرة:

من الدواوين المحدثة في العصر العباسي، ديوان المصادرة أحدثه الخليفة أبو جعفر المنصور، لأجل تأدية المهام التالية: تسجيل الأموال المصادرة بأنواعها المختلفة، وأسماء من صودرت منهم، إدارة ما يتعلق بتلك الأموال، تدوين وثائق هذا الديوان بنسختين، إحداهما للوزير والأخرى تحفظ في الديوان. وقد أصبحت لهذا الديوان أهمية خاصة في عهد خلفاء سامراء لكثرة ما صودر من أموال الوزراء والكتاّب والقضاة، لا سيما في عهد المعتصم بالله وابنيه الواثق بالله والمتوكل على الله، وفي أيام المعتمد على الله[2].

4. ديوان المظالم:

يشبه ما نسميه اليوم "مجلس الاستئناف" بعض الشبه، والغرض منه استماع الناس من القضاة أو غيرهم"[3]. لذلك، لكون مهمة هذا الديوان الاستماع لشكاوى الناس، ولأجل رد حقوقهم وجب أن يتحلَّى صاحب هذا الديوان بصفات منها: سبيله أن يتقلده رجل له دين وأمانة، في خليقته عدل ورأفة ليكون ذلك منه نافعا للمتظلمين، يتحلَّى بالصبر على تأمل القصة والتوقيع عليها، يأخذ جميع القصص ويثبتها في الديوان، وذكر أسماء الرافعين، وأثبت التوقيعات على قصصهم.

---

[1] أحمد عبد الباقي، معالم الحضارة العربية في القرن الثالث هجري، ص15.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص21.

[3] جورجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، 254/1.

لهذا الديوان موظفين كل واحد منهم مسؤول على تأدية أمر بالترتيب الآتي:

من يثبت هذه القصص، ناسخ ينسخ مجموعات القصص، منشئ يأخذ جوامع القصص عند الحاجة إلى العرض، محرر يحرر ذلك يحرر أيضا ما يحتاج إلى الكاتب فيه إلى كل واحد من أصحاب الدواوين، أو صاحب المعونة، أو القاضي أو من جرى مجراهم[1]. بذلك نرى حرصهم على المحافظة على حقوق الناس من خلال استقبال شكواهم والاستماع لقصصهم وتدوينها من طرف كاتب الديوان ورفعها للقاضي للحكم والفصل فيها، فكأنَّما يُشبه كاتب الديوان المحامي في كونه يستمع لقضايا الناس، لكن الفرق الكاتب هنا لا دخل له في حلها بل يكتفي بنقلها للقاضي ويتولى أمر الفصل فيها.

5. ديوان الرسائل في العصر العباسي :

في العصر العباسي زاد عدد الموظفين في الديوان، كما وُضِعت لها موازين زيادةً على ما كانت عليه في العصر الأموي. وصار على الكاتب أن يوَّسع ثقافته، ويُضيف إلى حُسن أسلوبه على ما تردِف الرسالة بما يلزم[2]. فلما جاء العصر العبَّاسي ارتفع شأن الديوان، لكثرة أعبائه وعظم رسالته، وأصبح رئيسه وزيرا أو بمنزلة الوزير[3]، كان من الطبيعي زيادة عدد الموظفين في هذا العصر، عمَّا كان عليه في العصر الأموي، لاتساع الدولة وتطور نظامها الإداري كما ذكرنا الذي تمَّ نقله عن الفرس، فتطور الكاتب من كونه كاتب للرسائل فقط، إلى وزير أو رئيس لكون الخليفة يعتمد

[1] ينظر: قدامة بن جعفر، الخراج و صناعة الكتابة، تح: محمد حسين الزبيدي، سلسلة كتب التراث، دط، دت، ص64-65.

[2] محمد التونجي، المعجم المفصَّل في الأدب، ص358.

[3] محمد نبيه حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب، ص83.

عليه بالدرجة الأولى في كل ما يخص أمور الدولة، فكأنَّما يُعادل بذلك منزلة الوزير الأول في وقتنا.

6. ديوان الأعمال والجبايات :

هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدَّولة في الدَّخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم[1]. وبالنسبة لهذا الديوان فبقي بعد الإسلام على ما كان عليه من قبل ديوان العراق بالفارسية وديوان الشام بالرومية وكُتَّاب الدواوين من أهل الفريقين. فأمر عبد الملك سليمان بن سعد والي الأردن لعهده أن ينقل ديوان الشَّام إلى العربية، و(أمَّا ديوان العراق) فأمر الحجاج كاتبه صالح بن عبد الرحمان أن ينقل الديوان من الفارسية إلى العربية[2].

برغم كونه كان موجودًا في العصر الأموي؛ إلاَّ أنه في العصر العباسي تعددت اختصاصاته وزاد عدد من يعملون فيه، وذلك حتى يُواكب مستوى السياسة العباسية والتصدي لمشاكل الدولة وتحدياتها، وقد استقرت دعائم هذا الديوان منذ أيام المنصور، وجعله الخليفة قريبًا من قصره في بغداد وأسنده إلى أبان بن صدقة، وقد تعرض هذا الديوان للتطور في العهود التالية وفصلت المراسلات الخاصة بالخليفة عن مراسلات الدولة التي أصبح يشرف عليها الوزراء إشرافًا مباشرًا[3]. من مهامه:

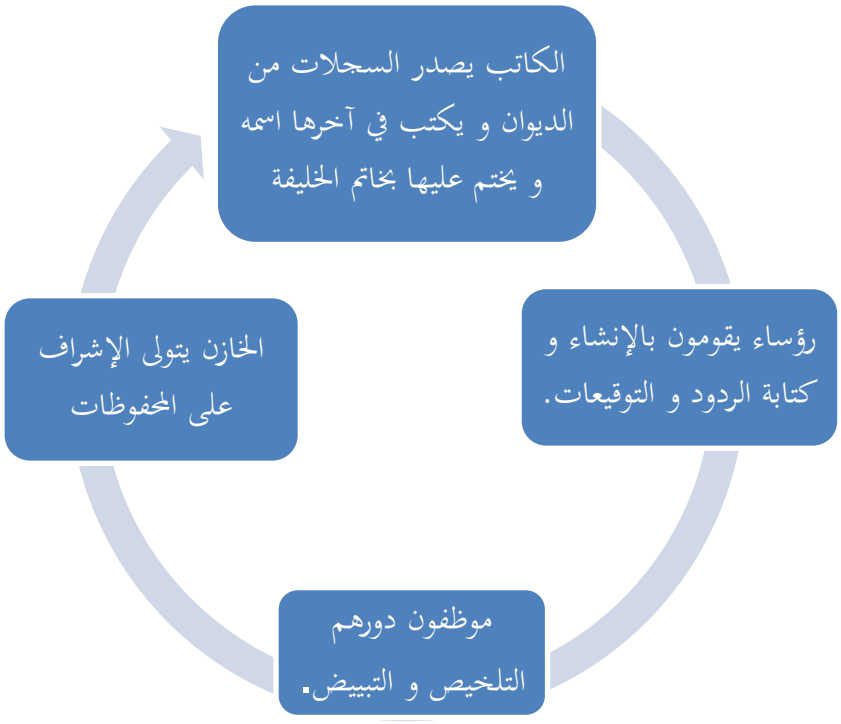
يُشرف على هذا الديوان أربع موظفون، سأبينهم في المخطط التالي ووظيفة كل منهم:[4]

---

[1] ابن خلدون، المقدمة، 16/2.

[2] ينظر: المرجع نفسه، 2/ 18.

[3] ينظر: السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب العصر العباسي الأول، مؤسسة شباب الجامعة، دط، 1993م، ص269.



شكل رقم 05: يوضح مهام موظفي ديوان الأعمال والجبايات.[1]

قراءة تحليلية للشكل:

كما رأينا في المخطط، تبدأ مهام الدِّيوان مع موظف رؤساء الانشاء المسؤولون عن كتابة الردود والتوقيعات، ثمَّ يأتي موظف التلخيص، ثمَّ الخازن وصولاً إلى كاتب الديوان الذي يستلم السجلات ويختمها باسمه، فنرى كيف أصبح لكاتب الديوان موظفين يساعدونه على الكتابة، فترَّقى مكانه إلى منزلة الوزير الذي يُراقب ما يرد في السجلات، حتى أَّنه أصبح يوقع باسمه بدلاً من اسم الخليفة كما كان في السابق.

7. ديوان البريد:

وُجِد ديوان البريد حتى في العصر الأموي، فكان يهتم بنقل رسائل الجمهور وخاصا بأعمال الدولة؛ ولكنه نُظم وأصبح أكثر سرعة، إلاَّ أنَّ مهمته لم تعد مقتصرة

[1] ينظر: السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب العصر العباسي الأول، 269/3.

على نقل الاخبار من الخليفة إلى العمال والعكس، بل تعدى هذا وأصبح صاحب البريد يتولى مهمة مراقبة العمال، والتجسس على الأعداء وهذه نقطة تطور في مهمة صاحب البريد الذي كانت مهمته تقتصر على هذا، وأصبح عين الخليفة الساهرة، فهو إذن يقوم بالاعمال التي يقوم بها رئيس قلم المخابرات. وقد اهتم الخلفاء العباسيون بصاحب البريد اهتماما خاصا[1]. " يعود في تطويره وتحسين نظمه ووسائله يرجع إلى أبي جعفر المنصور، مستهدفا في ذلك الوقوف على أحوال الولايات والكشف عن حركات التمرد والثورة والقضاء عليها في وقتها، وقد زاد ارتباط عمال البريد في عهده بالعاصمة ببغداد مباشرة دون أن يخضعوا لنفوذ الولايات"[2]. وتماشيا مع ما تمَّ ذكره ارتفع شأن صاحب ديوان البريد وحظي بمكانة مهمة في الدولة العباسية، واتخذ منه الخليفة عينه لمعرفة الأخبار لحل الأمور المتعلقة بسياسة الدولة. وفي نفس الصدد كان هؤلاء العمال البريديون يشتغلون بالتجسس على كبار الموظفين ومراقبة الولاة في الأقاليم التابعة للخلافة العباسية، ولهذا السبب حظى صاحب ديوان البريد في عصور المنصور بمكانة عالية تسمو مكانة الوالي نفسه. [3]ـ موافاة الخليفة بأسعار الحاجيات من قمح وحبوب وغيرها.

وفي أيام أبي جعفر المنصور كان عمال البريد يوافونه بما يجري مرتين في اليوم، فإذا صلَّى المغرب وافوه بما حدث نهارا، وإذا صلَّى الصبح كتبوا إليه بما يجري ليلا.

وبهذا كان الخليفة على علم بكل ما يجري في الولايات الإسلامية، فيوقف القاضي عند حده إذا ظلم ويعيد السعر إلى حالته الأولى إذا غلا، ويعاقب العامل إذا

[1] ينظر: أمينة بيطار، تاريخ العصر العباسي، ص330.

[2] السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب العصر العباسي الأول، ص267.

[3] ينظر: المرجع نفسه، ص267.

قصَّر أو أخطأ[1]. ومن هذا المنطلق عناية الخليفة على الحد من الظلم ومراقبة كل ما يخص دولته ليلاً ونهارًا عن طريق عمال البريد المخصصين لهذا الأمر.

8. ديوان الزمام:

مما يذكر من اصلاحات للدواوين في الفترة العباسية انشاء **ديوان الزمام** من قبل الخليفة المهدي سنة 126هـ لجمع ضرائب العراق وتقديم حساب للضرائب في الاقاليم الاخرى. ثم أصبح لكل ديوان زمام أي أن الديوان الواحد ينقسم إلى قسمين هما:

الأول وهو الأصل: يختص بوضع الضرائب وحملها إلى بيت المال وتقوية موارد الدولة أي يقوم بالعمل الاداري عامة.

الثاني: الزمام أو ديوان المال.

ثم أجرى الخليفة المعتضد في نهاية القرن الثالث الهجري اصلاحا جديدا، وهو ديوان الدار الكبير، له ثلاثة فروع: ديوان المشرق وديوان المغرب وديوان السواد. وقد وضع الخليفة أزمة هذه الدواوين كلها في يد رئيس واحد[2]. رئيس الديوان هو كاتم سر الخليفة، ومن ثم كانت مرتبته ـ كما يقول القلقشندي ـ أرفع مرتبة، ومحله أعظم محل. بهذا تولى المهمات التالية: إليه تُلقى أسرار المملكة و خفاياها، يُعتمد عليه في حل مشكلاتها، تدبير شؤونها و أمورها، إليه ترد المكاتبات، وعنه تصدر، ومن ديوانه تكتب (إلى) الولايات السلطانية كافة، التوقيع على القصص في نفوذ الأوامر مقام توقيع

[1] ينظر: إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ص222.

[2] ينظر: أمينة بيطار، تاريخ العصر العباسي، ص321.

السلطان وجميع ما يعلم عليه السلطان. من أجل هذا كان الخلفاء يتحرون الدقة في اختيار هذا الرئيس الذي كان في بعض الأحيان يقوم بشؤون الوزارة أيضا[1].

استنادا إلى ما سبق، "كانت الدواوين في سامرَّاء وبغداد لذلك أشبه بمدرسة فنية كبيرة، يفد عليها الشباب، ويُختبرون اختبارا دقيقا، فمن نجح في الاختبار وُظف فيها، ولزم غيره من الكتاب القدماء وعمل بين أيديهم. ويدبَّج بعض الرسائل، فإذا نالت رسالة حُظوة من رئيس الديوان تمَّ له سعده. وربما ألحقوه ببعض الولاة أو العمال، وقد يقفزون بهم قفزا إلى القيام على أحد الدواوين"[2]. وبناءً على هذا، يمكن أن نلخص المراحل التي يمر بها صاحب الديوان ـ بمختلف أنواع الدواوين ـ فيبدأ بكونه: مُلازما للخليفة فيكتب ما يملي عليه. ثمَّ إذا أُعجب الخليفة بأسلوبه يترَّقى من كونه كاتبا للرسالة، إلى رئيس أحد الدواوين فيصبح لديه عمال يساعدونه في تأدية مهامه. ولا يفوتنا أن ننوه أنَّه "لكل ديوان صبغة فنية وتعاليم يحذقها كتبته ولا يُلم بها الكاتب الجديد إلاَّ بعد تمرين، غير أنَّ الكتابة فيها جميعا ما عدا ديوان الرسائل والتوقيعات لا تحتاج بعد معرفة فنيته إلى روية وإجهاد، إذ لا تعدو القيد في الدفاتر أو التحرير من غير مشقة في الانشاء فهي خلو من المسحة الأدبية للغة كما هي الآن. أمَّا في الديوان المذكور، فكانت ذات صبغة أدبية تتطلب من الكاتب تجويد العبارة والتحليق بالأسلوب إلى مستوى من البيان رفيع، تتسامى إليه طوائف الكتاب"[3]. وبما لا يدع مجالا للشك أنَّ ديوان الرسائل يشترط كتَّابا متمكنين من اللغة وأساليبها، حيث لا يرقى الكاتب لمكانة كاتب لرسائل الخليفة إلاَّ أن تتوفر فيه شروط معينة، ويتمكن من الكتابة الفنية للرسالة

[1] ينظر: محمد نبيه حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ص98.

[2] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني، دار المعارف، مصر، ط02، دت، ص550.

[3] السباعي البيومي: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي بغير الأندلس والمغرب، مطبعة العلوم بشارع الخليج، ط02، 1356ه/1937م، ص110.

التي تحتاج تنميقا وتحبيرا، عكس الكتابة في دفاتر الدواوين الأخرى التي تكتفي كتابة وتسجيل أمور الدولة وتنظيمها تِبعا لاختصاص كل ديوان.

واستخلاصًا لما سبق، وللتوضيح أكثر أردنا ذكر مصطلحات الدواوين في العصرين الأموي والعباسي وما يقابلهما في العصر الحديث، من خلال الجدول التالي:

اسم الديوان في العصرين الأموي والعباسي	اسم الديوان في العصر الحديث
ـ ديوان الرسائل.	ـ وزارة الخارجية.
ـ ديوان العطاء.	ـ وزارة المالية.
ـ ديوان الخراج.	ـ المصلحة المالية.
ـ ديوان التوقيع.	ـ الامضاء.
ـ ديوان الصدقة.	ـ وزارة الأوقاف والشؤون الدينية.
ـ ديوان المصادرة.	ـ وزارة التجارة.
ـ ديوان المظالم.	ـ مجلس الاستئناف.
ـ ديوان المال.	ـ ميزانية الدولة.

جدول رقم 04: يوضح مصطلحات الدواوين في العصرين الأموي والعباسي وما يقابلها في العصر الحديث.

قراءة تحليلية للجدول:

من خلال الجدول، نلاحظ أنَّ الدواوين التي عرفتها الدولة الأموية والعباسية لا زالت موجودة في وقتنا الحاضر، لكن بمصطلحات مختلفة، وهذا ما نسميه بالتطور المصطلحي. وما يجب ذكره هو أنه صحيح المصطلحات تغيرت، لكن مهام الدواوين لا تزال هي نفسها التي تؤديها الوزارات اليوم.

المبحث الثاني: الرسائل الديوانية النشأة والتطور:

كانت الرسائل تُكتب للأغراض الرسمية والخاصة على حد السواء، وكانت تستخدم في المراسلات بين الحكام والأدباء والعلماء. وهي قسمان: الرسائل العامة أو الرسائل الرسمية، والرسائل الخاصة أو الإخوانيات. أما، الرسائل العامة فقد عُرفت منذ العهد النبوي: كتب الرسول صلوات الله عليه إلى من بعده إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام، وكتب الخلفاء من بعده إلى عُمَّالهم وقوَّادهم. وصارت منذ العصر الأموي فنًّا اختص به جماعة فرغوا إليه. ثم توالى الكتاب على مر الزمان وصارت الرسائل لسان الدولة في جلائل الأمور؛ تسعى لتحقيق أغراض منها: بها تكتب عهود الخلفاء وأولياء العهد، بها يخاطب الجمهور في الدعوة إلى الطاعة والتحذير من المخالفة، بها تسجل مآثر الملوك من فتح وتعمير وغيرهما. عكسها الرسائل الاخوانية، هي الرسائل غير الرسمية التي يكتبها الكاتب إلى صديق أو نحوه، فهي أوسع مجالًا وأعظم قدرًا وأقرب إلى الإبانة عن فكرة الكاتب وعاطفته. وهي تصور كثيرا من آراء الناس ومنازعهم وعاداتهم وأخلاقهم و أحوال الأمة التي يعيشون فيها[1].

ونظرًا لاختلاف هذا اللون من الرسائل عن المكاتبات الديوانية الرسمية، من حيث الموضوعات التي عالجتها، لذا فإننا نرى أن جل هذه الرسائل الأدبية لم تكن تخضع لتلك الرسوم أو الطقوس الرسمية التي اتسمت بها المكاتبات الديوانية، كالالتزام بمظاهر الصناعة اللفظية، كاستخدام السجع، وبعض ألوان البديع الأخرى، فضلا عن أن بعض أعلام الرسائل الأدبية وصدورهم في هذا القرن كانوا من كتاب الدواوين المشهورين، أو ممن تسنموا رئاسة الديوان الرسمي"[2]. وبناءً على هذا فالرسالة الاخوانية

[1] ينظر: طه حسين وآخرون، التوجيه الأدبي، عالم الأدب، بيروت، ط01، 2016م، ص26.

[2] غانم جواد رضا الحسن، الرسائل الأدبية النثرية في القرن الرابع للهجرة، ص257.

هي رسالة شخصية تعالج أمرا بين مُرسل الرسالة وبين مستقبلها، عكس الرسالة الديوانية الصادرة عن ديوان مختص بصناعتها تُعالج أمرا يخص شؤون الدولة الداخلية والخارجية.

ليست الرسائل السياسية حديثة النشأة والظهور عند العرب وغيرهم، ولكنها قديمة قدم الأمم والحضارات، إذ كان الملوك والحكام يتخذونها وسيلة من وسائل الاتصال والتفاهم، ويستعينون بها في سلمهم وحربهم، وكانت تنقل شفاها قبل أن تعرف الكتابة، فينقلها الرسل كما يلقنهم إياها اسيادهم بالحرف الواحد، ودون زيادة أو نقصان، ويقومون بإيصالها إلى أصحابها. ومع ظهور الكتابة انتشرت هذه الرسائل، وكثر استخدامها، فكانت تكتب على الوسائل البدائية، كالحجارة، والجلود، والعظام[1]. وعليه، فالرسالة عُرفت شفوية، نظرا لغياب وسائل الكتابة، أو لجهلهم إياها، فكانت الوسيلة الأولى لنقل الأخبار بين الملوك والحكَّام والتواصل بينهم، فيستعينون بذلك بشخص يحفظ الكلام المُرسل دون زيادة أو نقصان، والتنقل لمسافات بعيدة لتوصيلها. لذلك أردنا تتبع نشأة الرسالة عند العرب منذ أول عصورهم، وعليه سنبدأ بالعصر الجاهلي.

1. الرسالة في العصر الجاهلي :

تحدث الأستاذ أحمد زكي صفوت عن أدب الرسائل عند عرب الجاهلية، فقال: "كانوا يعتمدون في تراسلهم على المشافهة، فيبعثون برسالاتهم شفهية مع أمناء ينتجبونهم لإبلاغها، أمَّا أهل الحاضرة منهم فقد ألَّموا بالحضارة بعضَ الإلمام، وكانوا يمارسون الكتابة ويتبادلون الرسائل المكتوبة، ولكنَّهم لتقادم العهد لم يُؤثّر عنهم إلاَّ

[1] ينظر: حسين بيوض، الرسائل السياسية في العصر العباسي الأول، ص13.

رسائل قلائل معدودة"[1]. بناءً على قوله، فالعرب إذا في عصرهم الجاهلي، عرفوا الرسالة بشكلين هما:

الأول: الرسالة الشفوية في المناطق البدائية، فاعتمدوا في نقلها على أشخاص أمناء ينقلونها.

الثاني: الرسالة المكتوبة عُرفت عند أهل الحاضرة، يقصد في مكة نظرا لكونها كانت بلاد تجارة، كانوا يعتمدون على الكتابة في نقل رسائلهم، ولتدوين عهودهم وغير ذلك، بوسائل كتابة بدائية؛ برغم من كون هذه الرسائل المكتوبة وُجدت في العصر الجاهلي؛ إلاَّ أنَّه وصل منها عدد قليل جدا وهذا أمر طبيعي لكونهم لم تتوفر لهم ظروف التدوين في ذلك الوقت.

في نفس الصدد أكدَّ غازي طليمات بقوله: "وعن هذه الرسائل المكتوبة المعدودة نقَّرنا، فظفِرنا ببضع عشرة رسالة، أقصرها يُكتب في سطر وبعض سطر كرسالة ملك الحيرة إلى عامله على البحرين، وموضوعها الأمر بقتل الشاعر المتلّمس. وأطولها يكتب في ثلاث صفحات كرسالة أكثم بن صيفي إلى النعمان بن خميصة البارقي والقسم الأعظم من هذه الرسائل رسميٌّ لا شعبي، أي: يتصل بالملوك لا بعامة الناس، كرسالة المنذر ملك الحيرة إلى أنوشروان ملك الفرس، وهي في وصف جارية حسناء"[2]. وبناء على قوله، فالرسائل المكتوبة التي عرفها العرب في العصر الجاهلي كانت موجزة لا تتجاوز بعض الأسطر، وكانت أغلبها رسمية متداولة بين الملوك والحكام، فأكدَّ بذلك، على معرفة العرب للرسائل الرسمية ذات الغرض السياسي، التي عُرفت في العصور المتقدمة بالرسائل الديوانية.

[1] غازي طليمات، النثر في عصر النبوة والخلافة الراشدة، دار الفكر، ط01، 1428هـ/2007م، ص423.
[2] المرجع نفسه، ص423.

وعلاوة على ذلك، يرجح **حسين بيوض** أنَّها "وجدت في العصر الجاهلي، وأن العرب كانت لهم مراسلات فيما بينهم من جهة، ومع جيرانهم من الفرس والروم من جهة أخرى. ولم تكن الكتابة فاشية فيهم كغيرهم من الأمم المعاصرة لهم، فقد كان أكثر اعتمادهم في مراسلاتهم على المشافهة، يرسلون كتبهم ورسائلهم على لسان المخلص منهم، الذين يأمنون لهم، ويثقون بهم، ممن تتوفر فيهم الحكمة والفطنة والنباهة، ومن ثم كانت تلك الرسائل تحفظ عن ظهر قلب، وتتناقلها الألسن. ولعل نقلها بهذه الطريقة، وعدم كتابتها، هو الذي أدَّى إلى نسيانها وضياعها"[1]. مما يدل، أنه لم ينكر حقيقة معرفة العرب للرسائل المكتوبة، إلاَّ أنَّها لم تكن منتشرة بينهم، بل كان أكثر اعتمادهم على الرسائل الشفوية التي اشترطوا على ناقلها: الأمانة، الحكمة، الفطنة والنباهة، وفسَّر عدم وصول تلك الرسائل نظرا لعدم تدوينها لذلك ضاع الكثير منها.

ومن الثابت أنَّ العرب في جاهليتهم استعملوا الرسائل بينهم للتعبير عن بعض شؤون حياتهم اليومية، وقد ذهب ناصر الدين الأسد إلى أنَّ "من يقرأ في كتب الأدب أو كتب التاريخ، يعجب لكثرة رسائلهم آنذاك، ويكدْ يلمس أن كتابة الرسائل في الجاهلية أمر مألوف ميسور شائع في شتَّى الشؤون"[2].

تأسيسًا على ذلك، الرسائل في العصر الجاهلي، كانت على النحو الآتي:

[1] حسين بيوض، الرسائل السياسية في العصر العباسي الأول، ص14.

[2] محمد يونس عبد العال، في النثر العربي قضايا وفنون ونصوص، ص174.



شكل رقم 06: يوضح أنواع الرسالة في العصر الجاهلي

قراءة تحليلية للشكل:

اعتمدنا في هذا التقسيم، حسب طبيعة الرسالة، لا على حسب غرضها. فمن البديهي أن تكون الرسالة الشفهية شائعة بينهم، نظرًا لانعدام وسائل التدوين ولانتشار البداوة في أغلب مناطقهم. من أمثلة رسائلهم القليلة التي وصلت إلينا: كتاب المنذر الأكبر إلى أنو شروان:

روى أنَّ المنذر الأكبر أهدى إلى أنوشروان جارية، كان أصابها إذ أغار على الحارث الأكبر بن أبي شمر الغسَّاني، فكتب إلى أنوشروان بصفتها، فقال: " إني قد وجهت إلى الملك جارية معتدلة الخَلْق، نقيَّةَ اللون و الثَّغر، بيضاءَ قمْراء، وطفاء كَحْلاء، دَعْجاء حوراء عيناء، قنوا، شمَّاء، برجاء، زجاء(...) لم تغذ في بؤس، حيية حصينة رزينة، حليمة ركينة"[1]. نلاحظ أنَّه بدأ الرسالة بدون مقدمة، وافتتح مباشرة الموضوع المتمثل في وصف الجارية. كانت لغة الرسالة، كما رأينا، لغة نثرية مليئة

[1] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ط01، دت، 1/10-11.

بالسجع، من حيث توافق الفاصلتين في جميع الفقرات في الحرف الأخير، الذي يمتاز بإعطاء نغما موسيقيا فيبعد الملل عن نفس القارئ، هكذا حتى نهاية الرسالة التي بلغ طولها تسعة أسطر، ولم يكن لها خاتمة أنهى الموضوع مباشرة. فبالتالي، الرسالة في العصر الجاهلي، كان مرسلها يجهل عناصر الرسالة من مقدمة وموضوع وخاتمة وتوقيع وختم، بل يكتفي بإرسال الكلام الذي يريد إبلاغه، فبذلك هو لا يهمه شكل الرسالة، بل يهتم بالموضوع المُراد إرساله لمستقبل الرسالة. سوف نلاحظ تطور الرسالة بمجيء الإسلام وما التطورات التي حصلت على مستوى شكل الرسالة وأنواعها وأغراضها.

2. الرسائل في صدر الإسلام:

في مستهل الحديث، نعلم جميعا التغيرات التي أحدثها الإسلام في حياة العرب من جميع النواحي، "فجدَّت أحوال سياسية وعسكرية ألَّحت على العرب أن يكتبوا رسائل، وأن يطوروا كتابتها، ويرتقوا بها، لا ليصنعوا فنًّا أدبيًّا، يبث به الكاتب مشاعره، أو يعبر به عن ملكة فنية تتصوَّر الجمال وتصوره، وإنَّما ليجعلوها وسيلة من وسائل التواصل بين الخليفة في المدينة المنورة وعماله وولاته وقادته في الأقاليم"[1]. وهذا إن دلَّ على شيء، فيدل على كون الرسالة في العصر الإسلامي كان غرضها دينيًّا سياسيًّا بالدرجة الأولى. فبعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، ظهرت الحاجة إلى الرسائل، حيث أصبح للمسلمين دولة، وصار الرسول صلى الله عليه وسلم هو رئيسها والمسؤول على تسييرها. فانحصرت هذه الرسائل في ثلاث أصناف:

[1] محمد يونس عبد العال، في النثر العربي قضايا وفنون ونصوص، ص424.

- رسائل من النبي صلى الله عليه وسلم إلى مبعوثيه الذين أرسلهم إلى أطراف الجزيرة للدعوة.
- رسائل النبي صلى الله عليه وإلى غير المسلمين من زعماء العرب يدعوهم إلى الإسلام.
- رسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى غير العرب من زعماء العالم يدعوهم إلى الإسلام [1].

وبناءً على هذه الأصناف، نرى أنَّ الغرض الديني هو السبب الرئيسي لظهورها، رغبة منه صلى الله عليه وسلم في دعوة العرب والأعاجم لدخول الدين الجديد والتخلص من جاهليتهم. فبذلك، كانت الرسالة التي يمكن تسميتها بـ "**الرسالة الدينية**" الوسيلة الأولى للتواصل ونشر تعاليم الدين الإسلامي.

ما يجب أن ننوه إليه، عُرفت الرسائل الديوانية منذ صدر الإسلام مع الرسول صلى الله عليه وسلم، لكن لم يُصطلح عليها بالرسالة الديوانية، بل أُطلق عليها رسالة سياسية. وهكذا نرى الوثائق السياسية الإسلامية تبدأ بالمعاهدات ثمَّ تظهر الرسائل في الإسلام بالرسالة التي كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لعبيد الله بن جحش في سريته المعروفة. وتوالت بعد ذلك المعاهدات والأحلاف بين الرسول والمشركين كما توالت الرسائل بينه وبين قواده وأمرائه، وبينه وبين كبراء المشركين، وبينه وبين ملوك الدُّول المجاورة، فارس والروم ومصر والحبشة، إلى أن لحق بالرفيق الأعلى"[2]. مما يعني، الرسالة في العصر الإسلامي، بدأت على شكل المعاهدات والأحلاف، ثمَّ توالت كتابة الرسائل من طرف الرسول صلى الله عليه وسلم داخل دولته وخارجها. كان النبي

[1] ينظر: فنون النثر العربي القديم، جامعة القدس المفتوحة، برنامج التربية، 5240، ط7، ص42.

[2] حسين نصَّار، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص39.

صلى اله عليه وسلم ينفذ ما أمره الله عز وجل به، فيرسل كلامه بواسطة أشخاص اتخذ منهم رسلاً وسفراء لرسائله إلى ملوك الأرض، يدعوهم بها إلى الإيمان بما بُعث به، فيستجيبُ من يستكبر أو ينكر، ولكن الرسائل على كل حال كانت الوسيلة الوحيدة في ذلك الوقت لحمل الدعوة الإسلامية من المدينة المنوَّرة إلى أقاصي الأرض[1].

لذلك سنطلع على نموذج من الرسائل آنذاك، لنتعرف على شكلها وحجمها. كتب النبي صلى الله عليه وسلم لبني ضمرة: "بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة؛ بانهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصرة على من رامهم، إلا أن يحاربوا في دين الله، مابل بحر صوفة، و ان النبي اذا دعاهم لنصره اجابوه، عليهم بذلك ذمة الله و ذمة رسوله"[2]. فأول ما نلاحظه قصر حجم الرسالة لم تتجاوز الثلاثة أسطر، وهي رسال موجهة من الرسول صلى الله عليه وسلم إلى حاكم قبيلة بني ضمرة يدعوهم للإسلام، فافتح الرسالة بعبارة هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة، فاستعمل مصطلح "كتاب" بدلاً من "رسالة"، ففي وقتهم كان يُطلق على الكلام المكتوب مهما كان حجمه " كتاب"، عكسنا في الوقت الحاضر حيث نُطلق الكتاب إلاَّ على المكتوب في مئات الصفحات. استخدم عبارات واضحة المعنى دون زخرفة للألفاظ لأنَّه ليس في مقام للاهتمام بفنية العبارات، بل يسعى لتبليغ كلامه بشكل واضح وموجز لأنَّ الغرض الرئيسي كما قلنا ديني، ثمَّ لم يختم كلامه بأي عبارة أنهى الموضوع مباشرة.

ولابد من التأكيد، على كون الميلاد الحقيقي للرسائل السياسية تزامن مع عصر البعثة المحمدية، فألحت الظروف الجديدة لظهور هذا اللون من الرسائل التي كان

[1] ينظر: غازي طليمات، النثر في عصر النبوة والخلافة الراشدة، ص424.

[2] علي بن حسين علي الأحمدي، مكاتيب الرسول، مكتبة المصطفوي، دط، دت، ص375.

هدفها نشر الإسلام ودعوة الملوك والأمراء ورؤساء القبائل إلى الدخول في الدين الجديد، ففي عصر صدر الإسلام ظهر استيعاب الرسائل لمعاني الدين الحنيف، واتسعت أغراضها وكثر كتابها، ووجدنا الخلفاء الراشدين يكتبون إلى أمراء الجند في ساحات القتال وإلى القضاه والعمال في الأقاليم المختلفة[1]. ولا مناص من القول إن كتابة الرسائل السياسية في هذا العصر، لم تكن كتابة فنية لإظهار المهارة اللغوية، لذلك كانت رسائل موجزة بعبارة بليغة، ناهيك عن كونه صلى الله عليه وسلم الصحابة رضي الله عنهم لغتهم لا تحتاج تنميقا ولا زخرفا، وعليه "فالكتابة على عهد عمر كان لها وظيفة كبرى في خدمة الدولة دون تنميق لفظ أو رصف أسلوب أو تزيين عبارة، فقد كانت بلاغة عمر أرقى من أن تحتاج إلى تزيين لفظ، وكانت إبانته أسمى من أن تستعين بتنسيق عبارة، فقد كانت عبارته نفسها بما ثقلت من حمل المعاني جديرة بأن تفرض نفسها على العين والسمع والعقل والخاطر"[2].

2.1 خصائص الرسائل السياسية في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم:

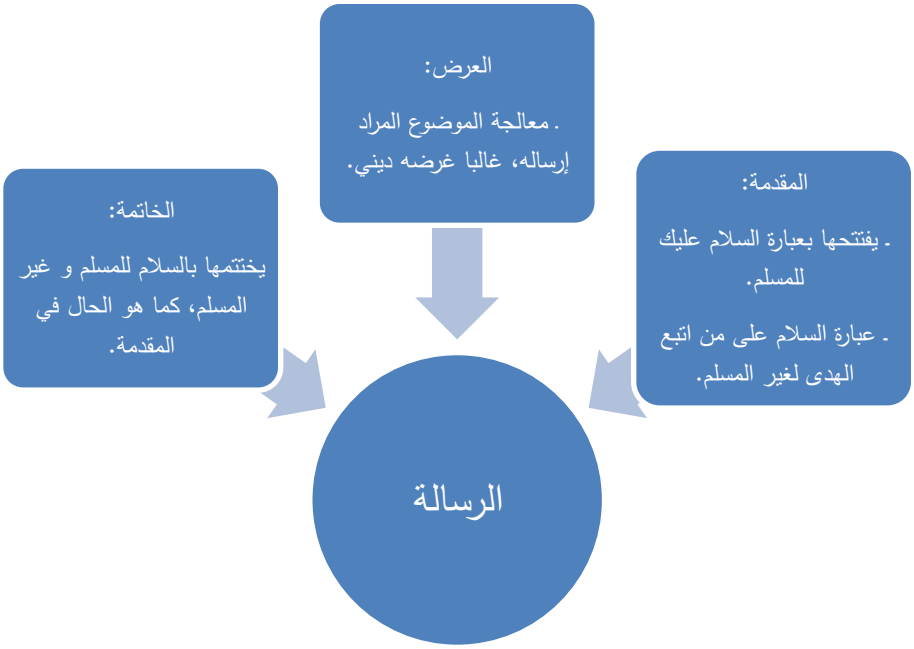
- تبدأ بالبسملة ثم "من محمد رسول الله إلى فلان" أولا يأتي بالبسملة ويبدأ الرسالة باسمه مباشرة أو يقول" هذا كتاب من محمد رسول الله إلى فلان" أو " إلى فلان " مباشرة.

- في صدور كتبه بالسَّلام فيقول للمسلم : "سلام عليك" ولغير المسلم، "السلام على من اتبع الهدى".

[1] ينظر: نبيل خالد رباح أبو علي، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656هـ، دار المقداد للطباعة، دط، 2005م، ص269

[2] مصطفى الشكعه، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، 200/2.

ـ ينتهي كل منها بحسب موضوعه، كان يتعمد بعض الخواتم أحيانا كالسلام مثلا، وله عدة صور: السلام العادي إذ كان المكتوب له مُسلما، أو غير مسلم أحيانا، وربما دعا له بعد السلام، فيقول: " والسلام ورحمة الله، يغفر الله لك". فإذا كان غير مسلم قال في السلام: " والسلام على من اتبع الهدى"[1]. من هذا المنطلق، فعناصر الرسالة في عصر الرسالة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، تكون بهذا الشكل:



شكل رقم 07: يوضح هيكل الرسالة في العصر الإسلامي

قراءة تحليلية للشكل:

نلاحظ من خلال الشكل، تطور شكل الرسالة في العصر الإسلامي، فبعدما كانت في العصر الجاهلي، كما رأينا، تُبدأ بالموضوع مباشرة دون عبارات تقديمية أو تمهيد للموضوع، وكذلك تُختم دون أي عبارة، أصبحت بمجيء الإسلام، لها عناصر وشكل محدد اعتمده الرسول صلى الله عليه في إرسال كلامه من مقدمة يفتتحها

[1] ينظر: حسين نصار، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص44.

بعبارات محددة ويراعي فيها المُرسل إليه ويخاطبه بالعبارة المناسبة له إن كان مسلما أو غير مسلم، ثمَّ يأتي الموضوع الذي يُعالج فيه موضوع الرسالة بطريقة موجزة، تليه خاتمة يختتم بها بعبارات تتناسب مع طبيعة المُرسل إليه، كما هو الحال في المقدمة.

2.2 أسلوبها:

تميَّز أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم في صناعة الرسالة، بخصائص تتمثل في:

ـ لا يخرج بها إلى مرتبة الصنعة وإنَّما إلى مرتبة فصاحة لغة الخطاب العادية.

ـ كان النبي صلى الله عليه وسلم يضع نُصب عينيه المكتوب إليهم، فيكلمهم بما يقرب من لهجاتهم.

ـ تتابع الجمل القصيرة دون عاطف أو بعاطف ولكنَّها غير متصلة المعاني، ولا يربط بينها غير الجو العام، وهو النصيحة الدينية.

ـ يعمد إلى الاقتباس كثيرا، خاصة الموجهة منها إلى الأعاجم بالخصوص أهل الكتاب منهم[1]. من خلال أسلوبه، نتأكد من حقيقة ما تطرقنا إليه سابقًا، كون الرسالة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم كانت لغتها لغة الخطاب العادي، موجزة غرضها ديني، وكان يُكثر الاعتماد على الاقتباس الكريم، خاصة الرسائل الموجهة للأعاجم بالخصوص أهل الكتاب. مثل رسالته صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمدٍ عبد الله ورسوله إلى هِرَقْلَ عظيم الروم، سلامٌ على من اتَّبع الهدى، أمَّا بعدُ: فإني أدعوك بِدِعاية الإسلام، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، أَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَك مرتين، فان تَوَلَّيت فإنَّما عَلَيْكَ إثمُ الْأَرِيسيِّينَ، و**<<** يأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ، أَلاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ، وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبابًا مِنْ

[1] ينظر: حسين نصار، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص 45-46.

دُونِ اللهِ، فانْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بأنَّا مُسْلِمُونَ>>[1]. فنلاحظ فعلا، أن أسلوبه صلى الله عليه وسلم لغة خطاب عادية، وجمل قصيرة متتابعة دون عاطف، واقتبس من القرآن الكريم آية من سورة آل عمران لكون الرسالة موجهة لملك الروم لغرض الإقناع.

2.3 رسوم الرسائل السياسية في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والراشدين:

البدء بالبسملة: أي بالبسملة الإسلامية، وهي قولك: " بسم الله الرحمن الرحيم". وهذا البدء لم يكن تقليدا كتابيا وحسب، وإنَّما كان واجبا دينيا لا يجوز إغفاله.

اسما المرسل والمرسل إليه: وتسمية المرسل إليه قد تتسع فتضم قومًا أو أهل بلد، أو جماعة من الناس كقول عمر بن الخطَّاب في بداية رسالته إلى أبي عبيدة: " بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح، وإلى الذين معه من المهاجرين والأنصار(...) "

التسليم على المرسل إليه: كانت التحية التي يحيُّون بها المرسل مختصرة منكرة في أغلب الرسائل إذ يقولون: " سلامٌ عليك". فإن لم يكن المرسل إليه مسلما كتبوا: " سلام على من اتبع الهدى".

الحمدُ والشهادة: بعد البسملة والتسمية والتحية يأتي حمدُ الله للتيمُّن والتبرُّك.

التخلُّص إلى الغرض: بعد التسمية والبسملة والتحية والحمد التخلص إلى الغرض المقصود من الرسالة، وأقصر السبل وأشيعُها في الرسائل الإسلامية قولهم: " أمَّا بعد".

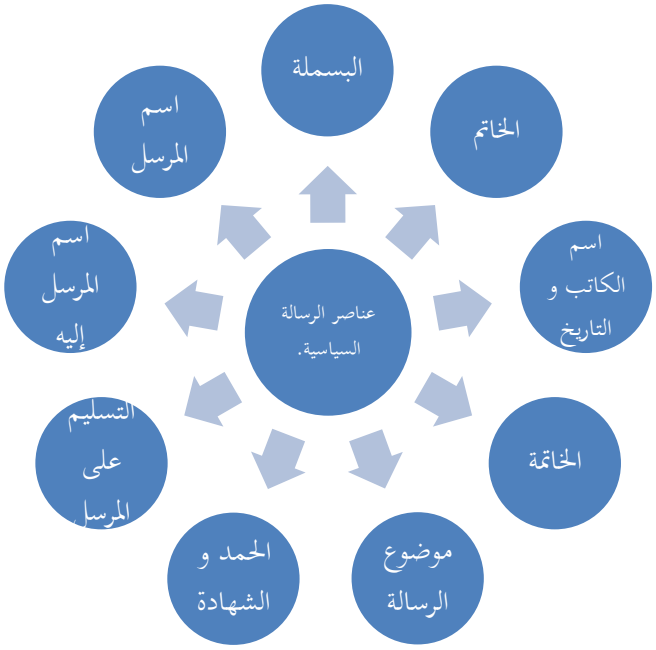
[1] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، 2/38-39.

خاتمة الرسالة: درج العرب في عصر النبوة على أن يختموا رسائلهم بما بدؤوا به أي بالسلام، فإن كانت موجهة لمسلم قولهم: " السلام عليكم ورحمة الله و بركاته"، ولغير المسلم قولهم: " والسلام على من اتبع الهدى". كما قد يضيفوا الدعاء إلى السلام.

اسم الكاتب والتاريخ: بالنسبة للتاريخ واسم الكاتب، لا نجده في أغلب الرسائل، فغفل عنه في معظمها.

الخاتم الرسمي: يعد خاتم الرسالة أثق ما توَّثق به الكتب الرسمية، فاتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم خاتما من الفضة نقشه : " محمد رسول الله"، فكان يختم به الرسائل الموجهَّة إلى الملوك[1].

انطلاقا مما سبق، سنلخصها في المخطط التالي:



شكل رقم 08: يوضح عناصر الرسالة في العصر الإسلامي

[1] ينظر: غازي طليمات، النثر في عصر النبوة والخلافة الراشدة، ص 426-427-428-429.

قراءة تحليلية للشكل:

يمكن القول انطلاقًا من هذا الشكل، أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم اهتم بشكل الرسالة، مثلما اهتم بفحواها، عكس الرسائل الجاهلية حيث كان الملوك يهتمون إلاَّ بالمضمون دون مراعاة عناصر الرسالة. فنجد رسائله السياسية صلى الله عليه وسلم احتوت على جميع العناصر المكونة للرسالة، مما يدل على إدراكه لدور الرسالة في حل الأمور السياسية والدينية أيضا. ومع ذلك يمكن أن يكون هذا الشكل للرسالة تمَّ تقليده لرسائل الفرس والروم، نظرا لأن العديد من عناصر الرسالة لم تكن موجودة في بداية كتابة الرسائل، مثل اسم الكاتب والتاريخ، والختم الذي كما قلنا تمَّ أخذه من الفرس، لأنَّهم لم يكونوا يستقبلون الرسالة دون ختم. لذلك، ختم الرسول صلى الله عليه وسلم اسمه على خاتم الفضة، وجعله خاتما لجميع رسائله السياسية.

3. الرسائل الديوانية في العصر الأموي:

كان من البديهي أن تنشط الكتابة وتنتشر انتشارًا سريعًا ملحوظًا، بعد عصر الخلفاء الراشدين، وبعد أن أصبحت القدرة على الكتابة وعلى التصرف في فنونها شرطا أساسيا من شروط الوصول إلى المناصب الكبيرة والولاية على الناس؛ فكثر المترسلون، نتيجة اتساع الدولة شرقا وغربا، وكثرة الدواوين خاصة ديوان الرسائل، كما كثرت الفنون الأدبية المختلفة، فكان منها الرسائل الديوانية والعهود والوصايا والتوقيعات وغيرها[1]. وعليه نفسر تطور الكتابة الديوانية في هذا العصر، لكونها أصبحت شرطًا أساسيًا لتقلد المناصب الكبيرة في الدولة، "فتنافس في ذلك الكُتَّاب مما أدَّى إلى كثرتهم. ومنذ بداية العصر الأموي اهتم معاوية بتنظيم شؤون الدولة وتسهيل إدارة مرافقها المختلفة فنمَّى فكرة الديوان الذي ينظم شئون الكتابة في مختلف المهام

[1] ينظر: محمد يونس عبد العال، في النثر العربي قضايا وفنون ونصوص، ص184.

الرسمية، وأسند رئاسته إلى مروان بن الحكم أحد كتبة عثمان بن عفان رضي الله عنه"[1].

3.1 أسباب تطور الرسائل الديوانية خلال العصر الأموي:

وقد تطورت الرسائل السياسية في هذا العصر تطورا ملحوظا، ويرجع هذا التطور إلى سببين:

السبب الأول: فهو أن كثيرا ممن كانوا يكتبونها كانوا يُعدُّن في الذروة من الفصاحة والبيان لهذا العصر أمثال زياد والحجاج وقَطَرِيٌّ بن الفجاءة والمختار الثقفي.

السبب الثاني:

فقيام ديوان الرسائل وظهور طبقة من الكتاب المحترفين في هذا الديوان، لا في دواوين الخلفاء وحدهم، بل أيضا في دواوين الولاة، وكان قادة الجيوش أيضاً يتخذونهم، ليرسلوا عنهم من يريدون مراسلته[2]. إذن ففي العصر الأموي تعدى الكاتب أن يكتُب للخليفة، إلى كاتب للولاة وكذلك قادة الجيوش وهذا أمر طبيعي نتيجة تعدد الدواوين لهذا العصر، فأصبح لكل ديوان كتَّاب مختصين بإدارة شؤونه. "ثم تطورت الرسالة نفسها وأصبحت الكتابة، قبل أن ينقضي العصر الأموي صناعة ذات قواعد وأصول: أصبح للرسالة مطالع وفيها تحميدات تختلف باختلاف مقام الذين تصدر عنهم وتوجه إليهم، ثم لها خواتم تختلف أيضا بحسب ذلك. وكذلك حدث في متن الرسالة أشياء من السجع والموازنة ومن التزْداد المقصود ومن التأنق في التعابير والجُمَل. ثم طالت الرسائل أيضا. على أن الترسل ظل في العصر الأموي ـ في

[1] أبو علي، نقد النثر، ص269.

[2] ينظر: شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص102-103.

الأكثرية ـ " فنًّا رسميا " يتعلق بأمور الدولة"[1]. من هذا المنطلق، بقيت الرسالة في العصر الأموي في غالبها رسمية ديوانية مختصة بأمور الدولة؛ لكن الجديد الذي طرأ عليها كونها لم تعد موجزة، فأصبحت تكتب على شكل صفحات مطولة، لغتها لغة سجع وموازنة، حيث يعبر فيها الكاتب عن مهارته اللغوية، عكس ما كانت في عصر صدر الإسلام؛ لكن ما يجب أن ننوه الرسالة منذ عهده صلى الله عليه وسلم كما لاحظنا، كانت لها أصول وقواعد كما وضحنا ذلك في مخطط عناصر الرسالة، وعليه الرسالة لم تكتمل معالمها إلاَّ مع العصر الأموي؛ إلاَّ أنَّها انتقلت من رسالة سياسية موجزة غرضها إيصال الخبر دون تنميق، إلى رسالة سياسية مطولة مزخرفة الألفاظ، لكون الكتَّاب أصبحوا يتنافسون في ذلك لينالوا مكانة رسمية في الدولة، فأصبحت بذلك وسيلة لكسب عيشهم.

3.2 خصائص الرسالة الديوانية في العصر الأموي:

اتسمت الرسالة الديوانية في العصر الأموي، بخصائص تمثلت في:

السجع: وكان السجع ـ منذ القرن الرابع للهجرة ـ أخذ يشيع في الرسائل، وأصبح، فيما بعد، ديدن الكتاب، ولغتهم في كتاباتهم، وقانونهم العام، لا سيما في الرسائل الديوانية.[2]

الإيجاز: بقيت الرسائل موسومة بالإيجاز والترسل في أكثر حالاتها، اكتفاء بتأدية المعنى بأقصر عبارة، ومن غير إطناب أو تكرير أو تفصيل. كرسالة معاوية إلى الحسن.

---

[1] عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، ص375.

[2] خالد إبراهيم يوسف: النثر العربي أيام المماليك ومن عاصرهم من ذوي السلطان، دار النهضة العربية، بيروت . لبنان، ط01، 2008م، ص75.

ـ **التوقيعات:** تميزت توقيعاتهم بالإيجاز، سواءً أكانت لآية قرآنية، أو حديث نبوي أو مثل سائر أو حكمة متداولة، أم كانت كلمة موجزة من إنشاء الموقع نفسه. وهذه أمثلة من توقيعات الأمويين: كتب ربيعة بن عسل البَرْبُوعي إلى معاوية، يسأل أن يعينه على بناء داره بالبصرة، باثنى عشر ألف جذع من النخل، فوَّقع معاوية على رسالته بقوله: " أدارك في البصرة أم البصرة في دارك؟"

ـ **في بعضها طول:** في أخريات العصر نزغت بعض الرسائل إلى الطول، على تفاوت في مقدار طولها، فبعضها متوسط، وبعضها مطوَّل. فلا تتجاوز الرسائل الطوال الواحدة سبعين سطرا. كرسالة هشام بن عبد الملك إلى خالد القسْرى يلومه فيها على دالَّته وعدوانه على مولى هشام ووكيله في ضياعه.

ـ **الاقتباس من القرآن الكريم:** من هذا في رسائل الأمويين قول زياد لمعاوية: " إنما يكفر النعم، ويستدعي النَّقم " من حاد الله ورسوله، و سعى في الأرض فسادا".

ـ **التأثر بالشعر:** بالنسبة لتأثر الكتاب بالشعر نجده في ثلاث مظاهر:

الأول: رسائل كلها شعر.

الثاني: رسائل مذيلة بالشعر. مثل " رسالة معاوية إلى سعيد بن العاص، حيث ختم الرسالة ببيت شعري:

تالله لا يَذْهَبُ شَيْخي باطِلاَ حتى أُبيرَ مالكًا وكاهلاَ

القاتلين المَلِكَ الحُلاَحِلا خيرَ معدٍّ حَسَبَاً ونائِلاً"[1]

الثالث: معان شعرية.

[1] ينظر: أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، 303/2.

ـ **قصر الجمل وتوازنها:** من أمثلة ذلك في رسائل الأمويين قول معاوية لعلي: " وقد والله رقت الأجناد، وذهبت الرجال، ونحن بنو عبد مناف، وليس لبعضنا على بعض فضل، يستذل به عزيز، ويسترق به حر".

ـ **الخيال:** لم تلتزم الرسائل في هذا العصر التعبير بالألفاظ في مواضعها الحقيقية، ففي كثير منها مجاز وخيال، و في بعضها تمثيل و تصوير[1].

انطلاقا، من الخصائص السابقة، سنأخذ نموذجا من الرسائل في العصر الأموي، لنتأكد من مدى توافق هذه الخصائص فعلا في الرسالة السياسية الأموية:

كتب الحسن عليه السلام إلى معاوية: " من عبد الله الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان، أمَّا بعد: فإنَّ بعث محمداً صلى الله عليه وآله رحمة للعالمين، فأظهر به الحق، وقمع به الشرك، وأعزَّ به العرب، شرَّف به قريشاً خاصةً(...) إن عليا لما توفاه الله ولأَّني المسلمون الأمر بعده، فاتق الله يا معاوية، وانظر لأمة محمد صلى الله عليه وآله ما تحقن به دماءها، وتصلح به أمرها، والسلام"[2].

أول ما يجب أن ننوه عليه، احتوت هذه الرسالة على مقدمة، شملت اسما المرسل والمرسل إليه، ثمَّ عبارة أمَّا بعد التي بعدها دوما يتم الدخول لموضوع الرسالة، فأثنى على الرسول صلى الله عليه وسلم والنزاعات التي حدثت بعد وفاته. ثم اختتم الرسالة بنصيحة لمعاوية وبالسلام. بالنسبة للغة الرسالة لا سجع ولا موازنة فيها، والجمل فيها قصيرة ومتوازنة، موجزة، تماما مثلما كانت الرسائل التي يرسلها الرسول

[1] ينظر: أحمد محمد الحوفي، أدب السياسة في العصر الأموي، دار القلم، بيروت . لبنان، دط، دت، ص 417-428.

[2] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، 12/2.

صلى الله عليه وسلم؛ إلاَّ أن هذه الخصائص كانت موجودة إلاَّ في بداية العصر الأموي، لأنَّه "ما كاد العصر الأموي يشارف منتهاه حتى تحولت كتابة الرسائل من ترسل طبيعي لا أثر للصناعة فيه إلى ترسل صناعي أرسى أساسه سالم كاتب هشام بن عبد الملك وأعلى بناءه عبد الحميد صاحب ديوان مروان آخر خلفاء الأمويين"[1].

3.3 عوامل ازدهار الرسائل السياسية أو الديوانية في العصر الأموي:

ساهمت عوامل عدة في تطور الرسائل الديوانية في هذا العصر، نذكر منها:

ـ صيرورتها صناعة: اتسعت الدولة وتعددت شئونها، وتلاحقت الحاجة إلى كتابة الرسائل السياسية، كما كانت تكتب في صدر الإسلام، لكن لم يعد يكتبها الخلفاء لكونهم مشغولين بأمور الملك، فتولوا كتابة هذه الرسائل كتاب من العرب أو من الموالي الحاذقين بالعربية. فتأنقوا فيها، وجودوها، وطبعوها بطابع خاص.

ـ نمو الثقافة العربية: نمت الثقافة العربية وتطورت في هذا العصر، من ثلاث اتجاهات:

دينية: عمادها القرآن الكريم وتفسيره، والحديث وروايته، والفقه والتشريع.

أدبية: قوامها اللغة والشعر والتاريخ والأخبار والأنساب.

علمية: دخيلة بواكيرها مسائل في الطب والمنطق والكيمياء والنجوم والمذاهب الدينية.

ـ الاتصال بالثقافة الأجنبية: نتيجة الفتوحات الإسلامية، اطلع العرب على الكثير من المعارف والعلوم، ففي فارس والعراق آداب وعلوم، بعضها فارسي وبعضها يوناني، وفي الشام ومصر فلسفة يونانية، وفي إسبانيا ثقافة يهودية ورومانية، وقد فسح

[1] السباعي البيومي، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي بغير الأندلس والمغرب، ص165.

المسلمون صدورهم لهذه الثقافات، فكان لها أثر عظيم في تطور الكتابة ورقيها. وترجمت في هذا العصر العديد من كتب اليونان إلى لغتهم.

ـ تقدير الكتاب: ارتفع البلغاء ببلاغتهم إلى أقدار رفيعة، وحظوا بمكانة بليغة فساهموا في تطور الكتابة.

ـ الجدل: ساهم الجدل في النهوض بالكتابة والخطابة، نتيجة انقسام المسلمون إلى أحزاب سياسية وفرق دينية، وكان كثير من الموالي قد شايعوا هؤلاء وهؤلاء[1].

وانطلاقا من هذه العوامل، نلاحظ ارتفاع شأن الكتابة الديوانية في هذا العصر، نظرا للصراعات السياسية التي شهدها العصر بالدرجة الأولى ونشوء أحزاب سياسية والفرق الدينية القائمة على الجدل والحجاج، مما أدَّى بالضرورة لنهوض الكتابة وخاصة كتابة الرسائل بين الموالي الذين انقسموا بين مشايعة هؤلاء وهؤلاء، فارتفع شأن الكُتَّاب وساهموا بترقية الكتابة وتطويرها، وخاصة الرسائل الديوانية التي طبعوها بطابع خاص، واهتموا بصناعتها شكلا ومضمونا لما لها من دور في تسهيل عمليات الدولة. فمن خلال الرسائل الديوانية التي وصلت لنا من ذلك العصر استطعنا معرفة النظام الاداري للدولة الإسلامية وطبيعة العلاقات الخارجية ذلك الوقت.

مثلما رأينا، بدأت الرسالة السياسية منذ عهده صلى الله عليه وسلم، ثم تطورت في العصر الأموي فاصطلح عليها بمصطلح الرسالة الديوانية، التي أصبحت تتميز بنظام خاص بها، ثمَّ توالى تطورها إلى العصر العباسي، لذلك سنبين الجديد الذي طرأ على كتابة الرسائل الديوانية في هذا العصر.

[1] ينظر: أحمد محمد الحوفي، أدب السياسة في العصر الأموي، 434-439-442-443.

4. الرسائل الديوانية في العصر العباسي:

بلغت كتابة الرسائل الحد الأعلى التي لم تصل إليه في سابق عهدها على يد الجاهليين أو الإسلاميين أو الأمويين. هذا العصر الذي حمل راية الكتاب فيه أمثال: ابن المقفع، والقاسم بن صبيح، ويعقوب بن داود، ويحي البرمكي، وابنه جعفر، والفضل بن سهل والجاحظ وغيرهم الكثير، أولئك الذين أطالوا، فلم يكن في إطالتهم موضع نقص، وأوجزوا فلم يكن في إيجازهم موضع زيادة[1].

4.1 عوامل ازدهار الرسالة الديوانية في العصر العباسي:

ومع بداية العصر العباسي نشطت الرسائل السياسية نشاطا واسعا وقد ساعد على ذلك الكثير من العوامل التي منها:

- تعقد نُظم الحكم السياسية والإدارية للدولة العباسية.

- كثرة الدواوين وتنوعها، وظهور العديد من الدواوين التي تمَّ استحداثها إلاَّ في هذا العصر.

- كثرة المؤهلين من الكتَّاب في مختلف الأقاليم الإسلامية.

- الاهتمام بالكُتَّاب والاعتماد عليهم في تسيير أمور الدولة وتوليتهم أرقى المناصب[2].

وكان المنشئون لهذه الرسائل يُتقنون الكتابة، ويلمون بمختلف الثقافات، وبخاصة اللغوية والأدبية والدينية. وكان من أبرز الكتاب في العهد العبَّاسي يحي البرمكي وابنه جعفر، والفضل بن سهل وأخوه الحسن، وأحمد بن يوسف، وعمرو بن مسعدة، والحسن

[1] ينظر: محمود مصطفى، الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي، 89/2.

[2] ينظر: نبيل أبو علي، نقد النثر، ص270.

بن وهب، وإبراهيم الصولي، وابن العميد، والصاحب بن عبَّاد[1]. وعليه، فمن شروط الكاتب في العصر العباسي، امتلاك مهارة لغوية وأدبية في الكتابة، والاطلاع والتمكن من الجانب الديني، مما يدل على أهمية الرسالة الديوانية لديهم، فلا تُوكل مهمة كتابتها لشخص غير مؤهل لها.

4.2 عناصر الرسالة الديوانية في العصر العباسي:

تتألف الرسالة الديوانية من: استهلال، عرض، خاتمة. وإذ بقيت رسائل النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين نماذج تحتذى عند بعض كتاب الدواوين في العصر العباسي. فإنَّ بعضهم الآخر أخذ يميل إلى الإطالة والتأنق.

بالنسبة للاستهلال: كان الكتاب يصدرون رسائلهم بعبارات مناسبة لمن ترسل إليه، فمما يكتب إلى الخليفة: أكرم الله أمير المؤمنين بالظفر، وأيَّده بالنصر في دوام نعمته، وحاط الرعية بطول مدته، أمَّا ولي العهد فيكتب إليه: أمته الله أمير المؤمنين بطول مدة الأمير، وأجرى على يديه فعل الجميل، وآنس بولايته المؤمنين. مثل رسالة عبد الله بن المقفع في الصحابة كتبها للمنصور استهلها ب: " **أمَّا بعد ـ أصلح الله أميرَ المؤمنين، وأتَّم النعمةَ، وألبسه المعافاة والرحمة**"[2].

الموضوع: سلك فيه الكتاب مسلكين:

الاتجاه الأول: سار فيه الكتاب على منهج عصر صدر الإسلام من حيث الوضوح والإيجاز والدقة. مثل "كتاب يحي بن خالد إلى ابنه الفضل وقال الرشيد ليحي بن خالد البَرمكي: يا أبتِ إني أردت أن أجعل الخاتم الذي في يد الفضل إلى جعفر، وقد

[1] سامي يوسف أبو زيد، الأدب العباسي النثر، دار الميسرة، الأردن، ط01، 1432هـ/2011م، ص 185.
[2] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، 30/3.

احتشمتُ من مكاتبته في ذلك، فاكفِنِيه، فكتب إليه يحي: "قد أمرَ أمير المؤمنين أعْلى الله أمرَهُ ـ أن يحول الخاتَم من يمينك إلى شمالك"[1].

الاتجاه الثاني: اعتمدوا فيه الكتاب على الإطالة والتصنيع. مثل رسائل ابن المقفع أغلبها مطولة مثل رسالته التي كتبها للمنصور كانت على شكل العديد من الصفحات.

الخاتمة: شاع فيها الاختمام بالسلام أو بعبارة: إن شاء الله أو كتب فلان أو الدعاء، وقد تنتهي الرسالة بانتهاء العرض[2]. فعلا، مثل رسالة أبي الربيع محمد بن الليث إلى جعفر بن يحي اختتمها ب "والسلام"، رسالة جعفر بن يحي اختتمها بالعرض، رسالة مطرف بن أبي مطرف إلى أحد إخوانه اختتمها بدعاء" عسى الله أن يبدلنا خيرا منه زكاة وأقرب رُحما"[3].

التوقيعات: يقال وقعت في الشيء أوقع توقيعا وكتاب موقع فيه و رجل موقع فاذا أمرتَ قلت وقع فيه. وحقه في اللغة التأثير القليل الخفيف يقال دف هذه الناقة موقع اذا أثرت فيه حبال الاحمال ـ والدف الجنب ـ تأثيرا خفيفا"[4]. حيث تشكل ظاهرة فنية، تجلَّت في العهد العباسي، وعُرفت بإيجاز القِصرِ. وقد جاءت في معظمها مستقلة في أداء المعنى، وفي حين ارتبط بعضها بالمناسبة التي كتب عليها: واتسَّم بعضها بضروب البديع، وبخاصة الجناس والسجع[5]. مثل رسالة ابن المقفع إلى بعض إخوانه: " أمَّا بعد، فتعلَّم العلم ممن هو أعلمُ به منك، وعلمه من أنت أعلمُ به منه، فإنَّك إذا

[1] المرجع السابق، ص156.

[2] ينظر: سامي يوسف أبو زيد، الأدب العباسي النثر، ص186/185.

[3] ينظر: أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، 3/ 159-164-178.

[4] أبي بكر محمد بن يحي الصولي، أدب الكتاب، المكتبة العربية، بغداد، دط، 1341م، ص134.

[5] سامي يوسف أبو زيد، الأدب العباسي النثر، ص189.

فعلت ذلك علمت ما جهلتَ، وحفظت ما علمت"[1]. باعتباره فن بليغ من فنون النثر، ولون رائع من ألوان الكتابة، وهو عبارة موجزة بليغة يكتبها الخليفة أو الأمير أو الوزير في أسفل الكتب الواردة إليه، بإبداء الرأي فيما يرفع إليه من شكوى، أو يقدم له من رجاء، أو يستشار فيه من أمر"[2]. من خصائصه:

ـ روعة الإيجاز، قوة التعبير، جمال التصوير، شدة التأثير، لطف الإشارة.

ـ كانت توقيعاتهم أحيانا مثلا أو حكمة أو آية أو حديثا مأثورا عن رسول الله، أو بيتا من الشعر[3]. "وكان الخلفاء في صدر الإسلام هم الذين يوقعون في القصص والرقاع بأنفسهم أو يأمرون كتابهم بتدوينه، والغالب في توقيعهم أن يكون اقتباسا من آية أو حديث أو حكمة مشهورة أو شعر حكمي، ومن أمثلة ذلك أن سعد بن أبي وقاص عامل العراق كتب إلى عمر بن الخطاب كتابا يستأذنه فيه ببناء دار، فوقع عمر في أسفل الكتاب " ابنِ ما يكنك من الهواجر وأذى المطر"[4].

4.3 موضوعات الرسائل الديوانية في العصر العباسي:

موضوعات الرسائل الديوانية في العصر العباسي تتركز على الشؤون السياسية والاجتماعية، وكذلك الجوانب الشخصية والأخلاقية، يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

ـ كانت تتناول تصريف أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة.

ـ أخذ البيعة للخلفاء وولاة العهود.

---

[1] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، 54/3.

[2] محمد منعم خفاجي، الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، ص320

[3] ينظر: محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، ص321.

[4] جورجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، 261/1.

ـ الفتوح والجهاد ومواسم الحج والأعياد والأمان.

ـ أخبار الولايات وأحوالها في المطر والخصب والجدب.

ـ عهود الخلفاء لأبنائهم ووصاياهم ووصايا الوزراء والحكام في تدبير السياسة والحكم.[1]

4.4 بنية الرسالة الديوانية:

تتكون عادة من استهلال يتضمن التحية والإطراء، تليها العرض الذي يتناول الموضوع الرئيسي بالتفصيل، ثم تختم بخاتمة تحتوي عادة على التمنيات أو الدعاء ومنها الموجز المختصر، والمتوسط المعتدل، والمطنب المستفيض، فلكل مقام مقال. تتميز:

بالإيجاز: يصلح لمخاطبة الملوك وذوي الأخطار العالية والهمم المستقيمة والشؤون السنية، ومن لا يجوز أن يشغل زمانه بما همته مصروفة إلى مطالعة غيره.

الإطناب: يصلح للمكاتبات الصادرة في الفتوحات ونحوها مما يقرأ في المحافل والعهود السلطانية ومخاطبة من لا يصل المعنى إل فهمه بأدنى إشارة، وكذلك التقاليد والتواقيع والمناشير والرسائل الوصفية ومن أمثلتها ما يصف فيها الكاتب مشاهد الصيد وآلاته وما يحتاج إليه الصائدون من الخيول والجوارح والأسلحة، وما يصف فيها أنواع الرياضات الأخرى مثل لعب الكرة ورمي البندق[2]. وعليه، استخدام الاستهلال والعرض والخاتمة يسهم في إيصال الرسالة بشكل دقيق ومنظم، وطبعا العرض قد يوجز فيه تارة ويطنب تارة أخرى حسب الموضوع.

[1] ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، ص468.

[2] ينظر: محمد يونس عبد العال، في النثر العربي قضايا وفنون ونصوص، ص 165.

5. نماذج من رسائل ابن العميد في العصر العباسي:

ابن العميد(360هـ):

هو أبو الفضل محمد بن الحسين، وهو فارسي من مدينة قُم، وهو مدينة شيعية، فكان شيعيا على مذهب الإمامية. نشأ في بيت أدب وكتابة، تميز بثقافته الواسعة، اشتغل أيضا في خدمة ركن الدولة، كان يقود الجيوش بنفسه، واستطاع بمقدرته أن ينشر نفوذ عضد الدولة على بغداد والعراق، وقد خرج في أواخر حياته على رأس جيش لقتال الزعيم الكردي حسنويه، ولكنه توفي في الطريق في صفر عام 360هـ، عنة عمر ستين سنة[1]. كان من كبار الوزراء والأدباء في العصر العباسي. شغل منصب وزير لدى الدولة البويهية، وله تأثير كبير في السياسة والأدب في زمانه. اشتهر ببلاغته وفصاحته في الكتابة والنثر. حتى قال عنه رجال القرن الرابع القرن: " بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد"، تميز بميزة عجيبة؛ هي إعزاز القلم ورفعه إلى أشرف الدرجات. لكن لم تصل إلينا مجموعة الرسائل التي حفظت عن ابن العميد، ولكن بقيت منها شواهد تعطي عن نثره فكرة قريبة من الصواب، ونثره باعتبار موضوعاته يرجع إلى فنين: رسائله الرسمية التي كتبها بصفته وزيرا لركن الدولة، رسائله الشخصية التي عبر فيها عن ذات نفسه وهو يراسل أصدقاءه وأحبابه[2]. لو قدر لرسائل ابن العميد أن تبقى لبلغت مئات من الصفحات كما يؤخذ من كلام من ترجم له ولكن اجتياح المغول لبلاد فارس والعراق ذهب بالقسم العظيم من ميراثنا العلمي والأدبي وذهبت معه آثار ابن العميد[3].

---

[1] ينظر: شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص207-208.

[2] ينظر: زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، ص555-556.

[3] خليل مروم بك، ابن العميد، مكتبة عرفة، دمشق، دط، 1931م، ص54.

من رسائله الديوانية المشهورة، التي كتبها لابن بلكا الذي خرج عن ولائه وتمرد على جيشه، فكتب له: " كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منكَ، وإقبال عليك، وإعراض عنك، فإنَّك تدل بسابق حرمة، وتمتُّ بسالف خدمة، أيسرهما يُوجب رعاية، ويقتضي محافظة وعناية، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية ... وزعمت أنك في طرف الطاعة بعد أن كنت متوسطها، وإذا كنت كذلك، فقد عرفت حاليها، وحلبت شطريها، فنشدتك الله لما صدقت عما سألتك. كيف وجدت مازلت عنه؟ وكيف وجدت ما صرت إليه؟ ألم تكن في الأول في ظل ظليل، ونسيم عليل، وريح بليل. . . ففيم الآن أنت من الأمر؟ وما العوض عما عدوت، والخلف مما وصفت؟ وما استفدت حين أخرجت الطاعة نفْسَك . . . تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل كتابي، فستنكرها، والمس جسدك وانظر هل يُحس؟ واجسس عِرقك هل ينبض؟ وفتش ما حنا عليك، هل تجد في عَرضها قلبك؟ وهل حلا بصدرك أن تظفر بقوت صريح، أو موت مريح، ثم قس غائب أمرك بشاهده، وآخر شأنك بأوله"[1]. أول ما يُلاحظ، بدأ رسالته مباشرة بموضوع الرسالة، تجاوز ذكر المرسل والمرسل إليه، لأنه في موضع تهديد وتوبيخ لابن بلكا الذي خرج عن طاعة الدولة البويهية، فكتب له بهذه الرسالة يستنكر فيها عصيانه وينذره بالعواقب الوخيمة. كان قادرا أن يحاربه بالسيف لكنه اختار محاربته بالكتابة وقوة الألفاظ التي لديها قدرة على التأثير بنفسية المتلقي، فاختار بفطنته أسلوب المحسنات البديعية، فلا نجد سطرا واحدا في الرسالة يخلو من المحسنات البديعية من طباق وجناس ومقابلة. وفعلا، نجح برسالته في جعل ابن بلكا يذعن لرأيه بقوله: "والله ماكانت لي حَال عن قراءة هذا الفصل إلا كما أشار إليه الأستاذ الرئيس ولقد ناب كتابه عن الكتائب في عرك أديمي واستصلاحي وردي إلى

[1] ينظر: مصطفى الشكعه، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، 2/410-409-408.

طاعة صاحبه"[1]. مما يؤكد على تأثير رسالة ابن العميد على ابن بلكا، فبنصه هذا يعترف بقوة رسالة ابن العميد، بحيث اضطر إلى العودة لطاعة صاحب الرسالة بسبب شدة قوتها وبلاغتها. يُظهر لنا كذلك تأثير الخطاب المكتوب بشكل دقيق ومؤثر، وكيف يمكن للألفاظ المدروسة والمتوازنة مع معانيها أن تحدث تغييرا حقيقيًا وسلوكيًا.

من المَلاحظ التي أثيرت في الرسالة قيامها على السجع الذي يطرب الآذان ويسحرها، في كونه توافقا للفاصلة في الحرف الأخير من كل جملة. فهو الذي نال الموضع الأكبر فيها. وذلك لقيمته التأثيرية التي تجعل مشاعر المتلقي تتداخل مع الموقف المعارض. والسجع ههنا كان تهيأ للحالة النفسية للمخاطب. واستدراجه حتى يقنع ويرجع إلى سلطة ركن الدولة[2].

فالرسائل في عصر ابن العميد بدأ معها ما عرف باسم النثر الفني لغلبة المحسنات البديعية عليه من التزام للسجع والعمد إلى الجناس والزخارف اللفظية الأخرى من طباق ومقابلة ومجاز وتورية واقتباس. وعليه، فالطابع العام لرسالة ابن العميد الترسل المقيد بالمحسنات البديعية[3]. كما قال عنه الثعالبي: "يدعى بالجاحظ الأخير والأستاذ، والرئيس، يضرب به المثل في البلاغة، وينتهي إليه في الاشارة بالفصاحة والبراعة، مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها إلى براعة المعاني ونفاستها"[4].

---

[1] جعفر لعزيز، تحليل الرسالة السياسية من ابن العميد إلى ابن بلكا، مركز نماء للبحوث والدراسات، ص 15.

[2] المرجع السابق، ص09.

[3] ينظر: مصطفى الشكعه، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، 2-411.

[4] أبي المنصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري، يتيمة الدَّهر في معاني أهل العصر، تح: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العربية، بيروت، دط، دت، 183/3.

المبحث الثالث: أنواع الرسائل الديوانية:

تنوعت أنواع الرسائل الديوانية بين السياسية، والإدارية، والإجتماعية والثقافية، مع استخدام الأساليب اللغوية المتقنة والموضوعية في التعبير. كانت هذه الرسائل تعكس شخصية الكاتب ودوره في الدعم والمشورة للحكام والخلفاء. منها: "رسائل العهود والبيعات، ورسائل الفتوح والتبشير بها، ورسائل الأمان، ورسائل الخلفاء إلى الولاة والحكام في تصريف شؤون الدولة، ورسائل الإصلاح، ورسائل الإنذار وطلب الطاعة، أو التهديد والوعيد، أو طلب الهدنة والمصالحة وغير ذلك من الأغراض المتصلة بجوانب السياسة الداخلية والخارجية[1]. سنعرف أشهرها:

1. المراسيم:

المراسيم نوع من أنواع الرسائل الديوانية التي من خلالها كانت تسير شؤون البلاد، تعد لغرض ضريبة أو لإلغائها، أو رفع ضيم أو غير ذلك من الأوامر التي تعد بمثابة قوانين يسنها السلطان أو النائب أو الوالي أو ـ قاضي القضاة ـ، كل في نطاق سلطته ـ وينشئها المولجون بهذا الأمر"[2]. لنأخذ نموذجا من المراسيم في العصر العباسي، حيث جاء في مرسوم أصدره الخليفة الظاهر بعد توليه الحكم: "بسم الله الرحمن الرحيم، اعلموا أنَّه ليس إمهالنا إهمالا، ولا إغضاؤنا احتمالا، ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا، وقد غفرنا لكم ما سلف من إخراب البلاد وتشريد الرعايا وتقبيح الشريعة، وإظهار الباطل الجلي في صورة الحق الخفي، حيلة ومكيدة، وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاءً واستدراكًا؛ لأغراض انتهزتم فرصا مختلسة من براثن ليث باسل، وأنياب أسد مهيب، تنفقون بألفاظ مختلفة على معنى واحد، وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه إلى

[1] نبيل أبو علي، نقد النثر، ص 270-271.

[2] خالد إبراهيم يوسف، النثر العربي أيام المماليك ومن عاصرهم من ذوي السلطان، ص85.

هواكم، وتمزجون باطلكم بحقه، فيطيعكم وأنتم له عاصون، ويوافقكم وأنتم له مخالفون، والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا، وبفقركم غنى، وبباطلكم حقا، ورزقكم سلطانا يقيل العثرة، ولا يؤاخذ إلاَّ من أصَّر، ولا ينتقم إلاَّ ممن استمر، يأمركم بالعدل وهو يريده منكم، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم، يخاف الله تعالى فيخوفكم مكره، ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته فإن سلكتم مسالك خلفاء الله في أرضه وأمنائه على خلقه، وإلاَّ هلكتم والسلام"[1]. أول ما نلاحظه أن المرسوم بدأ بالبسملة، ثمَّ درج للموضوع المتمثل في تعيين الخليفة الجديد وذكر صفاته والأعمال التي سيقوم بها، ثمَّ اختتم بالسلام، تماما كما رأينا في عناصر الرسالة الديوانية.

وعليه، فإن المرسوم يشبه المرسوم الوزاري في عصرنا الحالي الذي يعتبر بمثابة نص قانوني، من طرف رئيس الجمهورية، الذي يتولى تعيين مهام الوزراء والولاة وفق إجراءات معينة.

2. البيعات:

لم تكن تكتب قبل العصر العباسي، ولا في أوائله، بل كان الخليفة يقف في جمهور من أهل الرأي والقواد والأمراء فيعلمهم بموت الخليفة السابق، وأنَّه صار إليه الأمر بولاية العهد أو برضا أهل الحل والعقد فيقر الحاضرون قوله وتتم البيعة له ويسلم عليه بالخلافة[2]. ثم لما صار الأمر إلى من لا يقدر على ارتجال القول، وكثر من الناس الرجوع في بيعتهم، وجهل العامة شروط الخلافة صار الوزراء يكتبون صورة البيعة، وتتلى على الناس، ويشهد عليها أهل الحل والعقد، ثمَّ تحفظ في الدواوين

[1] محمد عبد الله القدحات، مراسيم تولية الخلفاء وولاة عهودهم في العصر العباسي الأخير، مجلة الآداب والعلوم الإجتماعية، جامعة السلطان قابوس، 2015م، ص 210.

[2] محمود مصطفى، الأدب العربي و تاريخه في العصر العباسي، 84/2.

تسجيلا لهذا المقام حتى لا يثب وائب ويدعي أنَّه صاحب الحق[1]. مثل رسالة أبي جعفر بالبيعة للمهدى يوصي فيها جميع المسلمين بمبايعة ابنه محمد المهدى من بعده، وقد جاءت صيغة هذه البيعة على النحو التالي: "والمهدى ـ معشر المسلمين ـ في عفافه وصلاحه وورعه وطبائعه وشيمه وحلمه ورأفته(...) فبايعوا باسم الله وعلى بركته وتوفيقه وتسديده لمحمد بن أمير المؤمنين بيعة رضوان من الله إن شاء الله،، بصحة من نياتكم(...) سيؤديكم إلى النعم التي كانت توصف، والظهور الذي كان يُذكر"[2]. بدأ مباشرة في الموضوع المتمثل في مبايعة ابنه المهدى، فمدح خِصاله في أسطر عديدة، ثمَّ أخبرهم بمبايعته، واختتم بيعته بالفائدة التي ستعود عليهم إن بايعوا ابنه. وعليه، يُشبه هذا الأمر النظام الملكي في بعض الدول العربية، فبعد انتهاء حكم الخليفة الأب يتولى المهام بعده ابنه أو أحدا من أفراد أسرته الحاكمة.

3. رسائل العهود:

العهد رسالة ديوانية يدبجها كاتب الرسائل على لسان الخليفة لمن اختاره لولاية الخلافة من بعده، وتعرف حينئذٍ "بعهد الولاية". وتكتب أحيانا على لسان الخليفة أو الأمير بالأمان لثائر أو خارج على الدَّولة، أو لدولة مجاورة زالت أسباب الخلاف معها، وتعرف حينئذ" بعهد الأمان[3]. التي يُقصد بها" ما كان يصدر من الخلفاء في شأن أحد من رعيتها أو وزرائها عندما يخردون عن الحدود"[4]. لنأخذ نموذجا عن هذا النوع من الرسائل. كتب أبي جعفر المنصور لابن هيرة بالأمان، فجاء نص الرسالة كالتالي: " بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من عبد الله بن مخمد بن علي أبي

[1] المرجع السابق، ص84.

[2] أسماء عبد الرؤوف عطية الله، الرسائل في العصر العباسي أنواعها وخصائصها الفنية، أطروحة دكتوراه في الأدب والنقد، جامعة أم درمان الإسلامية، 1430هـ/2009م، ص30

[3] فايز عبد النبي فلاح القيسي، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ص113.

[4] أسماء عبد الرؤوف عطية الله، الرسائل في العصر العباسي أنواعها وخصائصها الفنية، ص 68.

جعفر وَلي أمر المسلمين، ليزيد بن هُبيرة ومن معه من أهل الشام والعراق وغيرهم في مدينة واسِط وأرضها من المسلمين والمعاهدين، ومن معهم من وزرائهم. "إني أمَّنتكم بأمانِ الله الذي لا إله إلاَّ هو، الذي يعلم سرائر العباد، ويعلم ما تُخفي الصدورُ، وإليه الأمر كله، أماناً صادقا لا يَشوبه غِشٌّ (...)، وكفى بالله شهيدا"[1]. بدأ عهد الأمان بالبسملة وبذكر المرسل والمرسل إليه، ثمَّ درج لعرض عهده في الأمان، حتى نهاية الرسالة وختمها بعبارة مقتبسة من القرآن الكريم.

تأسيسا على ما سبق، اخترنا بعض النماذج من الرسائل الديوانية الرسمية الصادرة عن ديوان الدولة المتمثلة في الإجراءات المتبعة لتسيير شؤون الدولة من مراسيم لتعيين خليفة، أو مبايعة لأحد الخلفاء والولاة، ورسائل الأمان، ورأينا أنَّها جميعها تحمل نفس البنية من مقدمة وموضوع وخاتمة؛ لكن ليست هذه جميع أنواع الرسائل الديوانية، فيوجد رسائل ديوانية في العتاب، والتهنئة، والتعزية وغيرها، لسنا في صدد في التفصيل فيها، فاكتفينا بأخذ نماذج من أشهر أنواع الرسمية، التي سوف نعالجها بالتفصيل في الفصل القادم من خلال دراسة المصطلحات المستخدمة فيها، والمرجعيات الثقافية لكل كاتب.

وبناءً على ما ذُكر، نشأت الرسالة الديوانية مع الرسول صلى الله عليه وسلم، لكنَّها عُرفت بمصطلح الرسالة السياسية نظرا للغرض المُرسلة من أجله، مع إنشاء ديوان الرسائل في العصر الأموي في عهد معاوية بن أبي سفيان، ظهر مصطلح الرسالة الديوانية نسبةً إلى الديوان. كما رأينا، فهو مصطلح معرَّب يُقصد به المُكاتبات الرسمية سواءً أخارجية كانت أم داخلية تسعى بالدرجة الأولى لتسيير أمور الدولة وشؤون سكانها. تُكتب من طرف كاتب مختص بها وترسل من الجهة الخاصة

[1] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، 12/3.

بإصدارها المتمثل في ديوان الرسائل. فتتكون من مقدمة وموضوع وخاتمة وتوقيع، تماما كما هو الأمر في العصر الحالي. بدأت موجزة مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ثمَّ عرفت الإسهاب والتنميق والتحبير في العصرين الأموي والعباسي. تعددت أنواعها من مراسيم وبيعات ووعود الأمان، إضافة إلى رسائل التهاني والتعازي واللوم والعتاب التي يُرسلها الخلفاء فيما بينهم حسب الظرف الخاص بها، وهذا الأمر مزال موجودا في عصرنا الحالي، فعند وفاة رئيس لدولة أخرى، يُرسل رئيس الجمهورية رسالة تعزية ويتم الإعلان عنها في نشرة الأخبار. تميزت بخط خاص بها وبمصطلحات متعددة تتغير حسب نوعها وغرضها، متأثرة بمرجعيات وثقافة كل كاتب، هذا الذي سنفصل فيه في الفصول القادمة.

الفصل الثالث:

التطور المصطلحي في رسالة عبد الحميد الكاتب خلال العصر الأموي.

التطور المصطلحي ـ مفاهيم وتمهيدات ـ

المبحث الاول: حقل مصطلحات الرسالة الديوانية.

المبحث الثاني: حقل مصطلحات بنية النظام السياسي.

المبحث الثالث: حقل مصطلحات كاتب الخراج.

المبحث الرابع: المرجعية الفكرية لعبد الحميد الكاتب في وضع مصطلحات خاصة بالرسائل الديوانية.

الفصل الثالث: التطور المصطلحي في رسالة عبد الحميد الكاتب خلال العصر الأموي.

تميزت الرسائل الديوانية بأسلوب خاص بها من حيث بنيتها ومصطلحاتها. كان الكاتب يتحرَّى المصطلحات بدقة، ويتخيرها حسب المقام الذي يكتب فيه، وحسب منصب المرسل إليه. فالرسالة الديوانية الموجهة لملك، تختلف عن الرسالة الموجهة للعامة، ومن يقرأ الرسائل الديوانية يُلاحظ هذا التفاوت. بالإضافة إلى ذلك، طريقة الابتداء من البسملة والحمدلة، ولكن هذه الافتتاحية تختلف أحيانا تبعا لديانة المرسل إليه. كما يتفاوت حجم الرسالة، فقد تكون قصيرة لا تتجاوز بضعة أسطر، أو طويلة تمتد لأكثر من صفحة، وهذا يعتمد على طبيعة الموضوع والهدف المرجو من كتابتها.

تطورت طريقة الكتابة الخاصة بالرسائل الديوانية من عصر لآخر، من حيث طريقة بنيتها ومصطلحاتها وغيرها. فمن خلال المصطلحات المستعملة، وقد مكنت هذه المصطلحات الباحثين فهم طبيعة الحكم السياسي السائد في تلك العصور، خاصة فيما يتعلق بإدارة الدولة ونظامها السياسي، وكذلك الألقاب الرسمية. لذلك عُدَّت الرسائل الديوانية من المصادر التاريخية المهمة، رغم أن القليل وصل منها إلينا.

ومن أشهر الرسائل الديوانية التي كتبها عبد الحميد الكاتب. وهو غني التعريف، ويقال بدأت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد. تميزت رسالته بمضمونها ونصائحه للكتاب التي تصلح لكل زمان. لذلك، سنتناول في هذا الفصل رسالته الشهيرة إلى الكتاب، من حيث شكلها ومضمونها والمصطلحات الخاصة بالرسالة الديوانية. سنوضح هذا كله من خلال تصنيف المصطلحات إلى حقول

مصطلحية بحسب أنواع المصطلحات التي استخرجناها من الرسالة، وكلها ذات صلة بالرسالة الديوانية.

اعتمدنا في دراسة مرجعية وأصل هذه المصطلحات على المعاجم العربية القديمة، مثل معجم العين، الذي يعد أول المعاجم وصاحبه ألفه في العصر الأموي، كما اعتمدنا على لسان العرب لابن منظور، باعتباره معجما موسوعيا جمع مادته اللغوية من معاجم متعددة، مما يغنينا عن تكرار التعاريف. إضافة إلى ذلك، رجعنا إلى القرآن الكريم، الأحاديث النبوية، وبعض الرسائل منذ عصر الخلفاء الراشدين. لكن قبل البدء في الحقول المصطلحية في رسالة عبد الحميد الكاتب، من المهم تقديم تعريف لمفهوم التطور المصطلحي وعلاقته بالرسائل الديوانية.

التطور المصطلحي ـ مفاهيم وتمهيدات ـ :

أولا: تعريف التطور المصطلحي:

أول ما نلاحظه هو أن المصطلح مركب يتكون من كلمتين: "تطور" و"مصطلح"، لذلك من الأفضل تعريف كل مصطلح على حده ثم تعريف المصطلح ككل. مع الإشارة إلى الفرق بين التغير والتطور.

1. تعريف التطور:

تتطور اللغة باستمرار وتتغير، رغم أن هذا التطور قد يبدو بطيئا في بعض الأحيان. تتغير الأصوات، والتراكيب، والعناصر النحوية، وصيغ الكلمات ومعانيها،

ولكن سرعة هذه التغيرات تختلف من فترة لأخرى ومن قطاع لآخر[1]. كما قالت الباحثة كريستين كاسكلي عن تطور اللغة:" معظم الباحثين يتفقون على نقطتين حاسمتين: (1) اللغة البشرية تطورت بالفعل، (2) إنها فريدة من نوعها بين أنظمة التواصل الأخرى لدى الحيوانات على الأرض"[2]. فاللغة البشرية تطورت تدريجيا عبر الزمن وهي فريدة من نوعها؛ إذ تتيح التعبير عن أفكار معقدة ومجردة بطريقة لا تمتلكها أنظمة التواصل لدى الحيوانات.

التطور **(The Evolution)** هو عملية تدريجية من التغيير والتطور مثل تطور اللغة[3]. يشبه تقريبا للتعريف الذي ورد في المعجم الوسيط بأنه:" التغيير التدريجي الذي يحدث في بنية الكائنات الحية وسلوكها ويطلق أيضا على التغير التدريجي الذي يحدث في تركيب المجتمع أو العلاقات أو القيم السائدة"[4]. فظاهرة تطور اللغة لا يمكن لأحد إنكارها، تطورت تدريجيا من عصر لآخر ومن مجتمع لآخر، ظهر ذلك من خلال التغيرات التي طرأت على مفرداتها، تراكيبها ودلالتها نتيجة التغيرات الاجتماعية وغيرها. يتضح ذلك أيضا من خلال كيف " يتحدث كل جيل بطريقة مختلفة قليلا لأن اللغة دائما في حالة تغير. وليس الأمر مقتصرا على لغتنا فحسب، بل كل لغة تتغير باستمرار. لاتوجد لغة حية لا تتغير، وهده حقيقة يمكننا الاعتماد عليها بشكل مطلق[5]". يعكس هذا القول حقيقة أساسية في علم اللغة، حيث إن التغير جزء جوهري من طبيعة

[1] ينظر: رمضان عبد التواب، التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط03، 1997م، ص10.

[2] Dr Christine Cuskley, Language Evolution A BRIEF OVERVIE, Centre for Behaviour and Evolution Linguistics Section, Newcastle University, p02

[3] Dictionary Cambridge, Meaning of evolution in English, septetmber,01,2024, at 7:35am, https://dictionary.cambridge.org.

[4] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، 570/3.

[5] Dr. Refnaldi, M.litt, Langauge Change, Sociolinguistics And Language Teaching, MODULE 8, Unit01, p01.

أي لغة حية، أي يشمل كل اللغات غير مقتصر على لغة بعينها، مما يجعل التطور سمة أساسية لأي لغة حية، نتيجة تغير المجتمعات وتطورها. وما يجب الإشارة إليه كون مصطلح التغير يختلف عن مصطلح التطور.

أما مصطلح التغير (**The Change**): هو قوة تدفع اللغة نحو التطور لمواكبة حاجات المجتمع المتغيرة، لكون التغيير ليس عشوائيا، بل يأتي استجابة لحاجات المجتمع المتغير باستمرار[1]. على سبيل المثال في العصر الأموي ظهر مصطلح ديوان الرسائل الذي لم يكن موجودا من قبل، فنتيجة التغيرات السياسية التي عاشتها الدولة الإسلامية في ذلك العصر أحدثت مصطلحات جديدة، مثل الرسالة، ديوان الرسائل، الختم، ديوان البريد، ديوان التوقيع وغيرها الكثير من المصطلحات الإدارية والسياسية وألقاب رسمية وغيرها الكثير، مما يؤكد على حقيقة أن المجتمعات كلما تطورت، تطورت معها لغتها ومصطلحاتها.

2. تعريف المصطلح: (The Term):

جاء تعريفه في قاموس Collins Dictionary : " المصطلح هو كلمة أو تعبير له معنى محدد، خاصة عندما يستخدم في سياق موضوع معين"[2]. وعليه، من خلال هذا التعريف الموجز والدقيق للمصطلح يمكن الفهم من كونه عنصرا لغويا سواء كان كلمة واحدة أو مركبا من كلمتين أو أكثر يحمل دلالة معينة في سياق معين، مثل مجال علمي أو ثقافي أو أدبي. مثال مصطلح الرسالة الديوانية هو تعبير مكون من

[1] ينظر: مباركة خنقاني، التطور اللغوي، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)، ع04، مارس2016، ص167.

[2] Collins English Dictionary, Terms definition and meaning, September 02, 2024, at 8:56 am, https://www.collinsdictionary.com

كلمتين: "الرسالة" و"الديوانية". تشير إلى معنى محدد هو نوع من الكتابات الرسمية تعنى بتوثيق الأمور الإدارية والسياسية والمالية. تعكس كيفية إدارة شؤون الدولة وتوضح الأسلوب الرسمي للتواصل بين المسؤولين في الدولة.

3. تعريف التطور المصطلحي:

من خلال مفهوم التطور الذي يشير إلى التغير التدريجي والنمو المستمر عبر مراحل، ومفهوم المصطلح الذي يعبر عن وحدة لغوية تحمل معنى محدد في مجال محدد، نستنتج مفهوم التطور المصطلحي الذي يعكس التغيرات التدريجية التي تطرأ على المصطلحات عبر فترات زمنية، وكيفية تكيفها مع السياقات الاجتماعية والثقافية المختلفة. مثل المصطلحات الخاصة بالرسائل الديوانية شهدت تطورا ملحوظا خلال العصرين الأموي والعباسي نتيجة التغيرات في أنظمة الحكم، والسياسة، والثقافة. وعليه، يتضح سبب اختيار مصطلح التطور المصطلحي بدلا من التغير المصطلحي.

سنؤكد على هذا من خلال دراسة دقيقة للمصطلحات الديوانية، حيث سنقوم بتتبع التغيرات التي طرأت عليها خلال العصرين الأموي والعباسي، مسلطين الضوء على كيفية تطور استخدامها ودلالاتها في الرسائل الرسمية.

المبحث الأول: حقل مصطلحات الرسالة الديوانية:

يحتوي هذا الحقل على مجموعة من المصطلحات التي تنتمي لحقل مصطلحات خاصة بالرسالة، سواءً من ناحية مفهومها، أو من ناحية مضمونها. نبدأ مع مصطلح الرسالة.

1. مصطلح الرسالة:

الرسالة من المعلوم أنَّها كلام يُنقل بين مرسل ومرسل إليه، لتأدية غرض معين أو إيصال خبر ما، فتتكون في بنيتها من مقدمة وعرض وخاتمة، أمَّا في الرسالة الديوانية فيُضاف لها التوقيع والخاتم، لكونها صادرة عن جهة رسمية.

أول ما نشير إليه، مصطلح الرسالة، لم يستعمله عبد الحميد الكاتب في رسالته، بل بدلا منه استعمل مصطلح الكِتاب في مواضع كثيرة من رسالته، في قوله: " أنا أقول في كتابي هذا"[1]. واستخدم أيضا مصطلح الجواب كما في قوله: " في ابتداء كتاب أو جواب فلا بأس"[2]، مما يُظهر مرادفة بين مصطلحي الكتاب والجواب.

في القرآن الكريم، جاء مصطلح الرسالة في العديد من الآيات، منها قوله تعالى:

﴿**فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩**﴾ (سورة الأعراف الآية 79). فسر الطبري هذه الآية بأن صالح قال لقومه ثمود، لقد أبلغتكم رسالة ربي، وأدَّيت إليكم ما أمرني بأدائه إليكم ربي من أمره ونهيه، ونصحت لكم في أدائي رسالة الله إليكم في تحذيركم بأسه بإقامتكم على كفركم به وعبادتكم للأوثان[3]. فالرسالة حتى بمعناه المستعمل في القرآن يُقصد بها تأدية كلام من شخص لآخر لتحقيق غرض معين، مثلما أرسل الله مع كل رسول رسالة هدفها التوحيد به وإخراجهم من الجهل الذي يعيشون فيه.

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، دار الكتب العربية الكبرى، دط، 1913م، ص175.

[2] الجهيشاري، الوزراء والكتاب، ص78

[3] ينظر: الطبري محمد بن جرير بن يزيد كثير بن غالب، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل القرآن، مؤسسة الرسالة، ط01، 1994م، 462/3.

في معجم العين للخليل (ت175هـ)، لم يذكر مصطلح الرسالة كمصطلح مستقل بذاته، بل ذكره في مادة رسل: الرُّسلُ: الذي فيه استرسال ولين، والتَّرسل في الأمر والمنطق كالتَّمهل والتَّوَّقر والتَّثبت. والرَّسول بمعنى الرسالة[1]. وموحدا بهذا بين الرسالة والرسول. كذلك الأمر بالنسبة لابن منظور(711هـ) : الرَّسول بمعنى الرسالة؛ يؤنث ويذَّكر. والرَّسول: الرسالة والمُرسَل[2]. ربما قصدا أنَّ الرسالة هي الرسول كون الرسول يؤدي نفس مهمة الرسالة وهي أخذ خبر من شخص لشخص آخر؛ لكن الرسالة تكون مكتوبة والرسول ربما يحمل رسالة مشافهة.

2. مصطلح الِكتاب:

صحيح، اصطلح الدارسون على تسمية هذا النوع من الكتابة بالرسائل؛ لكن من يقرأ الرسائل منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم يجدهم، يستعملون مصطلح الكِتاب، وكذلك الأمر لعبد الحميد الكاتب، فالكِتاب في عصرهم يختلف عن معنى الكِتاب في العصور التي تلته، ومرادف لمعنى الرسالة، وفعلا استعمل الكِتاب بهذا المعنى حتى في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿**ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ٢٨**﴾(**سورة النمل الآية28**). جاء في تفسير الطبري، فعل الهدهد وسمع مراجعة المرأة أهل مملكتها: " وإني ألقي إليا كتاب كريم، إنَّه من سليمان وإنَّه بسم الله الرحمن الرحيم"[3]. فالكِتاب الذي أرسله سيدنا سليمان لملكة سبأ، أكيد أنَّه لا يتجاوز عددا معينا من الأسطر، بمفهومنا الرسالة؛ لكن الله اختار تسميته بالكِتاب. إضافة إلى ذلك استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم مصطلح الكتاب بدلا من الرسالة

[1] ينظر: الفراهيدي أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد ، معجم العين، (مادة رسل)، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السَّامرائي، سلسلة المعاجم و الفهارس، دط، دت، 241/7.

[2] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، (مادة رسل)، 282/4-283.

[3] الطبري، تفسير الطبري، 557/05.

في عهده النبوي فقال: " هذا **كِتاب** ما عهده اليوم وكل من خالف ما فيه من العهد يكون مخالفا له ولغيره"[1].

في معجم العين لم يعرف مصطلح الكتاب بل اكتفى بذكر "الكُتاب والكتابة: مصدر كتبت"[2]. في لسان العرب: " معروف، والجمع كَتُبٌ وكُتْبُ. كَتَبَ الشيءَ يكتبه كَتْبًا وكِتابا وكتابة"[3]. لم يحدد معنى الكتاب، بل اكتفى بذكر مصدره ومشتقاته؛ فحسب تعريفه كل شيء يُكتب هو كتاب.

وعليه، نفسر سبب اختيار عبد الحميد الكاتب لمصطلح الكِتاب بدلا من الرسالة، فأخذه من القرآن الكريم، فالكِتاب في زمنه والزمن الذي قبله يُقصد به كل كلام مكتوب لأداء غرض معين، مهما كان حجمه لو كان سطرا فهو كِتاب؛ وبهذا المعنى يختلف تماما عن معنى الرسالة، التي اتضح معناها في العصور اللاحقة، التي تختلف عن الكتاب من حيث الحجم فالرسالة مهما بلغ طولها لن تتجاوز صفحات معدودة عكس الكتاب فأقصر كتاب يضم العديد من الصفحات ويعالج العديد من المواضيع الخاصة بمجال ما وفق منهجية معينة وغير ذلك؛ لكن نرى عبد الحميد الكاتب في رسالته لم يقل رسالتي بل قال كِتابي، وهذا إن دلَّ على شيء فإنَّه يدل أنَّ مصطلح الكِتاب في عصر عبد الحميد الكاتب يختلف عن معنى مصطلح الكِتاب في العصور التي تلته.

3. مصطلح الجواب:

[1] فيلاق الرياشي اللبناني، عهد الرسول العربي، المطبعة الوطنية، دط، 1939م، ص41.

[2] الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، 342/5.

[3] ابن منظور، لسان العرب، 698/1.

ذكره عبد الحميد بقوله في ابتداء كتاب أو جواب، بمعنى أنَّه رادف بينهما، والجواب، جاء في قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ٨٢﴾ **(سورة الأعراف الآية82).**

فالجواب بمعنى الرد عن الكلام، كما عرفه ابن منظور الجواب معروف رديد الكلام، والفعل أجاب يجيب، يقال إنَّها التَّلبية[1]، حتى الخليل عرفه نفس تعريف ابن منظور، وعلى هذا رادف عبد الحميد بين المصطلحين فعندما يرسل أحد ما كتابا لشخص آخر ينتظر منه ردا على كلامه، فيرسله له في كتاب أو يمكن أن نسميه جواب، فذاك الشخص أرسله له كلاما بخصوص موضوع ما وينتظر من الطرف الآخر ردًا أو جوابًا، بهذا نفسر سبب مرادفة عبد الحميد بين المصطلحين. لكونه يدل على تفاعل مكتوب بين المرسِل و المستقبل.

ننتقل لمن ينشئ هذه الرسالة كما هو معروف فهو ما يطلق عليه باسم المرسل؛ لكن لم يستعمله عبد الحميد الكاتب في رسالته؛ لكن بالمقابل ذكر لمن يَكتُب الكاتب بمعنى من المسؤول عن إرسال هذا الرسائل واصطلح عليه بمصطلح الملك.

4. مصطلح المرسل:

في الرسائل الديوانية الرسمية هو **الملك**، فمن المعلوم أنَّه من عناصر الرسالة كتابة اسم المرسل، فيُكتب من السلطان أو الملك فلان في بداية الرسالة، قبل التمهيد لموضوع الرسالة؛ لكن في رسالة عبد الحميد الكاتب، غاب هذا العنصر من الرسالة. ففي العهد النبوي الذي كتبه الرسول صلى الله عليه و سلم إلى النصارى قال: " **هذا**

[1] المرجع نفسه، 283/1.

كتاب كتبه محمد بن عبد الله بشير ونذير وأمين الخلق أجمعين لوديعة الله في خلقه كي تكون حجة على الله بعد الرسول وكان الله عزيزا حكيما كتبه لمن هو على دينه **عهدا لأولئك القوم أجمعين الذين هم على دين النصرانية**"[1]. فذكر كلٌّ من المرسل والمرسل إليه، فالمرسل الرسول صلى الله عليه وسلم، والمرسل إليه النصارى، فالعهود كانت نوعا من الرسائل السياسية لأنَّها كانت تُكتب في مسائل سياسية خاصة.

وقد ذكر عبد الحميد مصطلح المَلِك في قوله: " ولا يستغني المَلِك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون وألسنتهم التي بها ينطقون وأيديهم التي بها يبطشون"[2]. من خلال قوله هذا نلاحظ مكانة الكتاب بالنسبة للملوك فهم لا يُستغنى عنهم. ، وهذا المصطلح مصطلح عربي، أخذه من القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠**﴾ **(سورة يوسف الآية 50)**، " فلما رجع الرسول الذي أرسلوه إلى يوسف، الذي قال: " أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون" فأخبرهم بتأويل رؤيا الملك عن يوسف علم الملك حقيقة ما أفتاه به من تأويل رؤياه وصحة ذلك"[3]. وردت كذلك في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧**﴾**(سورة البقرة الآية 247)**.

[1] فيلاق الرياشي اللبناني، عهد الرسول العربي، المطبعة الوطنية، دط، 1939م، ص41.

[2] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص 173.

[3] الطبري، تفسير القرآن، 363/04.

ورد المصطلح في معجم العين: "المملكة سلطان المَلِك في رعيَّته"[1]، فلم يُعرف مصطلح المَلِك كمصطلح مستقل، بل ذكره في تعريف المملكة التي يحكُمها المَلِك؛ أمَّا ابن منظور فعرَّف مصطلح الملك: بأنَّ المَلِكَ هو الله تعالى، مَلِك الملوك له الملك وهو مالك يوم الدين، فملَّك القوم فلانا على أنفسهم وأملكوه: صيَّروه مَلِكًا[2].

وعليه، فمصطلح المَلِك أخذه من القرآن الكريم، إضافة لكون مصطلح المَلك موجودا منذ العصر الجاهلي، فقد كان الشعراء ينظمون الأشعار لملوكهم، نذكر قول الشاعر، عمرو بن قميئة:

إلى ابن الشقيقةِ أعملتها إلى ابن الشقيقةِ خيرالملوكِ[3]

فالمَلِك مصطلح سياسي، يُطلق على من يتولى أمر الرَّعية سواءً أكانت مملكة أو قبيلة أو أمة. لقب يُطلق على الرئيس الأعلى للسلطة الزمنية، وهو لقب معروف في اللغات السامية، وقد ورد ذكره في النقوش العربية القديمة. وُاعتبر نقش صرواح الذي تركه "كرب ال وتر" ملك سبأ أقدم نقش عُثر عليه في جنوب بلاد العرب وورد فيه هذا اللقب"[4].

فالملك إذا هو: المصدر الأعلى للحكم في الدَّولة الإسلامية، وكما هو معلوم في التاريخ الإسلامي فالدولة الأموية بدأت بعد وفاة الخليفة الرابع علي بن أبي طالب واستمرت حتى العام 750م عندما تم إسقاطها من قبل العباسيين، وخلال فترة الحكم

---

[1] الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، 380/5.

[2] ابن منظور، لسان العرب، 492/10.

[3] العصر الجاهلي عمرو بن قميئة، نأتك أمامة إلا سؤالا، تاريخ الاطلاع: 2023/12/19، الساعة: 17: 45، https://www.aldiwan.net.

[4] ينظر: حسن باشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ و الوثائق والآثار، الدار الفنية، دط، 1979م، ص496.

الأموي كان الملك المسؤول عن تولي شؤون السلطة التنفيذية والشرعية للدولة، واتخذ من معالم الشريعة الإسلامية مرجعا لقرارته.

5. المرسل إليه:

هو الطرف المستقبل للرسالة الرسمية، قد يكون ملكا كالمرسل للرسالة، أو من الملك إلى رعيته، ذكر عبد الحميد الطرف **المرسل إليه** وأطلق عليهم مصطلح **أهل صناعة الكتابة** يقصد بذلك **الكُتَّاب**. وقد ذكر عبد الحميد مصطلح الرَّعية في قوله: "وللرَّعية متألفا"[1]، بالنسبة لمصطلح الرَّعية لم يُذكر في القرآن الكريم؛ لكن ذُكرت بعضا من مشتقاته، في قوله تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ** ﴾**(سورة المؤمنون: الآية08)**. راعون لأمانتهم محافظون عليها، "الذين لأمانتهم التي ائتمنوا عليها وعهدهم وهو عقودهم التي عاقدوا الناس راعون، يقول: حافظون لا يضيعون، ولكنهم يوفون بذلك كله"[2]. استعمله كذلك الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: " فمتى كان راهب أو سائح مجتمعا في جبل أو واد أو مغارة أو محمور أو سهل أو كنيسة أو معبد فنحن من ورائهم وإني لأذود عنهم بنفسي و أعواني وأنصاري و شعبي هم وأموالهم وأثوابهم إذ أنَّهم من **رعيتي** وأهل ذمتي وادفع عنهم كل ما يكدرهم"[3].

في معجم العين: "واسترعيته: وليته أمرا يرعاه"[4]، فالخليل في معجمه لم يذكر تعريف مصطلح الرَّعية كمصطلح مستقل، بل ذكر الفعل رعي، رعى أمرا أي تولاَّه،

---

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص175.

[2] الطبري، تفسير القرآن، 351/05.

[3] فيلاق الرياشي اللبناني، عهد الرسول العربي، ص41.

[4] الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، (مادة رعي)، 241/2.

لذلك يُقال الأمير يرعى أمر العامة. وهذا ما جاء به ابن منظور، في لسان العرب: "الرَّعية: العامة. ورعى الأميرُ رَعيَّته رِعاية"[1].

وعليه، **فمصطلح الرعية** موجود منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، يشير لعامة للمواطنين المسلمين الذين يخضعون لحكم الملك، القائد الأعلى للدولة المسؤول عن تسيير شؤونهم، فيصدر لهم قوانين أُلزم عليهم الامتثال لها، يقابل مصطلح الشعب في وقتنا الحالي الذين ينفذون قوانين بلدهم الصادرة عن رئيس دولتهم.

6. مصطلح الكاتب:

هو المحرر للرسالة الديوانية؛ يأمره المَلِك بكتابتها لغرض سياسي معين، في البداية كان الكاتب يكتب ما يملي عليه المَلِك فقط؛ لكن عندما أصبحت الكِتابة صناعة يتنافس عليها الكُتَّاب، ليحظوا بمنصب في الديوان، أصبح الكاتب يتمتع بصلاحية كتابة الرسالة الديوانية دون أن يمليها عليه الملك، وبالضرورة قبل إرسالها يطلع عليها المَلِك لأنَّه هو المرسل لها ويتحمل مسؤولية ما أُرسل فيها؛ لكن في هذه الرسالة عبد الحميد هو مرسلها وكاتبها.

ذكر عبد الحميد مصطلح **الكاتب** في عبارة: " جعلكم معشر الكُتَّاب في أشرف الجهات أهل الأدب والمروءات"[2]. وورد مصطلح الكاتب في القرآن الكريم في سورة البقرة في قوله تعالى:

﴿..**فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ...** ﴾**(سورة البقرة: الآية 282)**. يعني جل ثناؤه: إن كنتم، أيها المتداينون، في

[1] ابن منظور، لسان العرب، (مادة رعي)، 327/14.

[2] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص172.

سفر بحيث لا تجدون كاتبا يكتب لكم، ولم يكن لكم إلى اكتتاب كتاب الدَّين الذي تداينتموه إلى أجل مسمى بينكم الذي أمرتكم به باكتتابه والإشهاد عليه سبيل، فارتهنوا بديونكم التي تداينتموها إلى الأجل المسمى رهونا تقبضونها من تداينوه كذلك، ليكون ثقة لكم بأموالكم[1].

أُستعمل في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم عندما حثَّ الناس على تعلم القراءة والكتابة لحفظ القرآن الكريم من اللَّحن والضياع، فاتخذ من صحابته كتابا كل منهم يختص بكتابة ما يأمره يه الرسول صلى الله عليه وسلم، جمعهم ابن ربه في العقد الفريد: علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكان مع شرفه ونبله وقرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم يكتب الوحي، ثم أفضت عليه الخلافة بعد الكتابة، وعثمان بن عفان ـ كان يكتبان الوحي ـ فإذا غابا كتب أبي كعب وزيد بن ثابت فان لم يشهد واحد منهما كتب غيرهما.

خالد بن سعيد بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، يكتبان بين يديه في حوائجه. والمغيرة بن شعبة، والحصين بن نمير، يكتبان، ما بين النَّاس، وكان ينوبان عن خالد ومعاوية إذا لم يحضرا. كان زيد بن ثابت يكتب إلى الملوك مع ما كان يكتبه من الوحي؛ وقيل إنَّه تعلَّم بالفارسية من كسرى، وبالرومية من حاجب النبي صلى الله عليه وسلم، وبالحبشية من خادم النبي صلى الله عليه وسلم، وبالقبطية من خادمه عليه الصلاة والسلام[2].

[1] الطبري، تفسير الطبري، 192/02.

[2] ينظر: ابن عبد ربه أبو عمر بن أحمد بن محمد، العقد الفريد، تح: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1858م، 244/4.

في معجم العين، ذكر مصطلح الكُتَّاب بالجمع، مجمعُ صبيانه، واكْتَتَب فلانٌ، أي: كَتَبَ اسمه في الفرضِ[1]. فنلاحظ، مصطلح الكاتب كما استعمله عبد الحميد ليس موجودا في معجم العين، فالخليل قصد بمصطلح الكُتَّاب المكان الذي يجتمع فيه الصبيان لتعلم القراءة والكتابة والقرآن الكريم

في معجم لسان العرب جاء مصطلح الكُتَّاب يحمل معنيين مختلفين؛ أمَّا الأوَّل: الكُتَّاب: موضع تعليم الكُتَّاب، والجمع الكتاتيب والمكاتب. والثاني: رجلٌ كاتبُ، والجمع كُتَّاب وكتبة، وحرفته الكتابة، والكاتب عندهم العالم لأنَّ الغالب على من كان يعرف الكتابة، أنَّه عنده العلم والمعرفة، وكان الكاتب عندهم عزيزا، وفيهم قليلا[2]. ابن منظور استطاع أن يقف على المعنى بدقة الذي قصده عبد الحميد بمصطلح الكاتب، الذي يقصد به من يتقن صناعة الكتابة، ويشتغل بالدواوين، ومن الشروط الواجبة عليه أن يكون عالما بأمور الدنيا والدين، لما له من مسؤولية عظيمة في خدمة وتسيير أمور الخلافة.

وصفهم بأهل **صناعة الكتابة**، حيث افتتح به رسالته فقال: "أمَّا بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة"[3]، ونرى بأنَّه مصطلح مركب من جزأين مصطلح صناعة ومصطلح كتابة. لذلك سنقف على تعريف كل مصطلح على حده، ثمَّ الوقوف على مفهوم المصطلح ككل ولماذا استعمله عبد الحميد الكاتب. نبدأ بتعريف مصطلح صناعة في معجم العين.

---

[1] الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، (مادة كتب)، 342/05.

[2] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، (مادة كتب)، 699/1.

[3] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص172.

في لسان العرب: " صَنَعَ: يَصْنَعَهُ صُنْعًا، فهو مَصْنُوعٌ وصَنَعَ عمله. وقوله تعالى: صُنْعَ الله الذي أتقن كُل شيء (...) والصناعة: حرفة الصانع، وعمله الصَّنعةُ "[1]. وعليه، فالكِتابة في عصرهم أصبحت صِناعة لما لها من قوانين خاصة بها، وتُنجز من طرف صانع لها، أي: كاتب وفق شروط محددة.

والكتابة لمن تكون له صناعة، مثل الصياغة والخياطة: يقال: اكتتب الرجل إذ كتب نفسه في ديوان السُّلطان"[2]. وعليه، من خلال تعريف ابن منظور، نجد التفسير لماذا استعمل عبد الحميد الكاتب مصطلح صناعة الكتابة، فالكتابة في عصرهم أصبحت صناعة يشتغلون بها في ديوان السلطان وفق أجر محدد، وليس كل من يعرف الكتابة يستطيع أن يأخذ منصبا في هذا الديوان؛ إلاَّ إذا توفرت شروط الكاتب التي حدَّدها عبد الحميد. وعليه، ننتقل لتعريف مصطلح الكاتب. موضوع رسالة عبد الحميد. بالتالي، عبد الحميد الكاتب يشير بمصطلح صناعة الكتابة إلى عملية كتابة الرسائل بشكل متقن، مع التركيز على الجوانب التقنية والفنية للكتابة.

مصطلح الكاتب شاع استعماله كثيرا في العصر الأموي، فيشير إلى الشخص المسؤول الكتابة والتوثيق والإدارة في دواوين الدولة الأموية، وتنوع الكتاب حسب المجال الذي يكتبون فيه أو الديوان الذي ينتمون إليه، فمنهم كتاب يختصون بكتابة الرسائل وتوثيقها ما عرف باسم ديوان الرسائل كما رأينا في أنواع الدواوين في الفصل الأول، وكتاب مسؤولين عن إدارة ديوان الجند المختصين بتدوين الشؤون العسكرية وتوثيق التقارير الخاصة بالمجال العسكري، كتاب مسؤولين عن ديوان الخراج وتوثيق

[1] ابن منظور، لسان العرب، 209/8.

[2] المرجع نفسه، (مادة كتب)، 698/1.

السجلات الخاصة بموارد الدولة المالية وغيرهم من الدواوين المختلفة لكل منها كتاب وموظفين مسؤولين على تسيير شؤونهم، وكلهم يعملون تحت إشراف الملك أو الخليفة لتحقيق الاستقرار والنظام في الدولة. فالرسالة الديوانية كما رأينا يُرسلها مرسل ويستقبلها مرسل إليه ويكتبها كاتب وكذلك تميزت كتابة هذا النوع من الرسائل بخطوط خاصة بها، تفننوا الكُتَّاب و أجادوا فيها، لذلك الخط من أهم عناصر صناعة الرسالة الديوانية.

7. مصطلح الخط:

قال عنه عبد الحميد: " أجيدوا الخط فإنَّه حلية كتبكم"[1]. ففي قوله هذا وصية للكتاب بإتقان الخط لأنه زينة الكتاب. في العصر الأموي، ظهرت تطورات هامة في فن الخط العربي. فأصبح الخط أحد الوسائل الأساسية للتعبير الفني والثقافي، من أشهر الخطوط التي لقيت شهرة كبيرة هو الخط الكوفي حيث استخدم على نطاق واسع في الكتابة والزخارف الجدارية على القصور، فمعروف بتشكيله المميز. إضافة لظهور أنواع أخرى من الخطوط لكل منها خصائص خاصة واستخدمت لأغراض مختلفة على سبيل المثال خط النسخ وخط الثلث، فاستخدم الأول في كتابة الوثائق الرسمية، والثاني استخدم في التَّدوين اليومي.

في معجم العين: " الكتابة و نحوها مما يَخُطُّ"[2]، نفس المعنى نقله ابن منظور: "خطَّ القلم أي كتب: وخطَّ الشيء يَخُطُّهُ خطًّا، كتبه بقلم أو غيره"[3].

---

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص174.

[2] الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، (مادة خط)، 137/4.

[3] ابن منظور، لسان العرب، (مادة خط)، 287/7.

الفصل الثالث: التطور المصطلحي في رسالة عبد الحميد الكاتب خلال العصر الأموي

كان للخط والكتابة أثر كبير في تقلد المناصب في الدَّولة، لما لها من أهمية في تسيير إدارة الدَّولة وشؤونها وشؤون الناس، وكذلك ما يتعلق بالمراسلات والمكاتبات بين ولاة الأمر والدُّول والقضاة. فيطلق على الخطوط أسماء تميزها بحسب الوظائف، فيقال: الامانات، الحوافي، الأشعار، الحرم، المؤامرات، العهود، القصص، المكاتبات، الديواني، التوقيع وغيرها كثير، والخط الكوفي الذي ظهر في الحجاز أول من اختص لتدوين الدواوين والمراسلات[1]. فقد أولوا الخلفاء الأمويين الخط عناية بالغة وذلك لحاجتهم إليه سواء في الكتابة على العمائر والتحف أم في استعماله في كتابة المصحف الشريف والدواوين والمراسلات[2].

سواءًا كان الخط في العصر الأموي يتراوح بين دواوين الدولة بين الخط الجليل الضخم، أو الخط الدقيق المتقارب الحروف. فإنَّه لم تصل إلينا كتابات على الطومار من زمن خلفاء بني أمية[3]. والمراد بالطومار الكامل من مقادير قطع الورق أصل عمله، فهو قلم جليل قدَّر الكُتَّاب مساحة عرضه بأربع وعشرين شعرة من البِرْذَوْن، وبه كانت الخلفاء تكتب علاماتهم في الزمن المتقدم في أيام بني أمية فمن بعدهم[4]. قال

[1] ينظر: وليد عبد الله المنيّس، فضل الخط والتوزيع الجغرافي لنساخ القرآن الكريم، جامعة الكويت، دط، 2016م، 32/28.

[2] سميعة عزيز محمود، الأصول التاريخية للخط العربي وتطوره في العصر العباسي، مجلة الفتح، كلية التربية (الأصمعي)، جامعة ديالي، 2009م، ع41، ص12.

[3] صلاح الدين المنجد، دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، دار الكتاب الجديد، ط02، 1979م، ص82.

[4] القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشا، 53/3.

عنه القلقشندي: "وأظنه من الأمور التي رتبها معاوية بن أبي سفيان، إذ هو أوَّل من قرر أمور الخِلافة ورتَّب أحوال المُلك وبه استقرت كتابة ملوك الديار المصرية"[1].

مصطلح الخط في العصر الأموي، يشير إلى فن الكتابة بأسلوب جميل ومتقن، حيث كان يُستعمل للكتابة اليدوية ويعد فنا مميزا يتطلب مهارة وتدريبا مكثَّفا لإتقانه، فالكاتب كان لا يستطيع أن يتقلَّد منصب في الكتابة في إحدى الدواوين قبل أن يتقن الخط الذي يعتبر من أهم ما يميز الرسائل الديوانية، وظهرت العديد من الأنواع في العصر الاموي للخطوط؛ لكن لم يقتصر هذا الأمر عليهم وحسب، بل اتسع نطاق استخدامه وتطور في الفترات اللاحقة، والحديث بخصوص الخطوط وأنواعها في العصر الأموي يتطلب صفحات عديدة فاكتفينا بذكر أسماء الخطوط دون تفصيل لها فوحدها تحتاج فصلا بأكمله.

مما سبق يمكن القول، أنَّ هيكل الرسالة الديوانية من حيث الشكل حسب رسالة عبد الحميد تكمن في: المرسل، المرسل إليه، الكاتب، الخط. أمَّا من ناحية المضمون فيمكن تقسيمها لما يأتي:

8. مصطلح الابتداء(المقدمة):

المقدمة من المعلوم بأنها الجزء الأول من النص أو الكتاب أو الرسالة، فتهدف إلى إعطاء تصور عام عن الموضوع الذي سيتم مناقشته. أمَّا بالنسبة لمقدمة الرسائل الرسمية فقد يكتفي كاتب الرسالة بالحمدله والبسملة والدعاء، ثمَّ الدخول لموضوع الرسالة مباشرة.

[1] المرجع السابق، ص53.

بدأت الرسالة بالدعاء، فورد فيها بعد لفظة البعدية وهي "أمَّا بعد"، وقولُه: "حفظكم الله، يا أهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم". ومثل هذه الأدعية في الافتتاح أو في الاختتام فهو نهج متبع في فن الرسائل، والبليغ من يُحسن هذه الأدعية، ويربط بينها وبين غرض رسالته[1]. أطلق عبد الحميد على مقدمة الكتاب أو الرسالة مصطلح **الابتداء** في قوله: " وليوجز في ابتداءه"[2]. عرفه ابن المنظور: " أَبْدَأْتُ بالأمر بدْءً ابتدأت به و بدأت الشيء، فعلته ابتداءً"[3]. وصَّى عبد الحميد الكُتَّاب بالايجاز في الابتداء، وفعلا الرسائل منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعصر الراشدين وكذلك الأموي موجزة في ابتدائها، فتبتدأ بالبسملة والحمدلة؛ لا نرى كلاهما في بداية رسالة عبد الحميد، كذلك غياب كل من عنصري المرسل والمرسل إليه؛ فلم يقل من عبد الحميد إلى الكُتَّاب. فافتتح رسالته مباشرة بعبارة أما بعد التي عادة ما تستعمل بعد ابتداء الكتاب بالبسملة أو ذكر اسم صاحب الرسالة ولمن مرسلة، للانتقال لموضوع الرسالة. مثال على ذلك: فنجد ما كتبه عمرو بن الخطاب في عهد الصلح: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم... "[4].

كذلك فيما كتبه عمر رضي الله عنه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى يزيد بن أبي سفيان، سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الله

[1] ينظر: محمد يونس عبد العال، في النثر العربي قضايا وفنون ونصوص، ص214

[2] الجهيشاري، الوزراء و الكتاب، ص78.

[3] لسان العرب، ابن منظور، 27/1.

[4] جمال الدين ابي المحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، دط، دت، ص24.

الذي لا إله إلا هو"[1]. وعليه، عبارات الابتداء لا تتجاوز كلا من البسملة، الحمدلة، الدعاء، أما بعد، فاختار عبد الحميد أن يبتدأ رسالته كما قلنا بعبارة أمَّا بعد، يبدو أنَّه نهج كتابة الرسائل في عصره فيوجد العديد منها من بدأت بهذه الطريقة، نذكر مثالا عليها رسالة معاوية إلى ابن عباس: " أمَّا بعد، فقد بلغني إبطاؤك عن البيعة ليزيد ابن أمير المؤمنين... "[2].

فالمقدمة في الرسالة الديوانية تتنوع وفقا لنوع الديوان وأسلوب الكاتب، إلاَّ أنَّها تشترك في عناصر محددة منها: السلام والتحية: فيتم الترحيب بالقارئ وتحديد الهدف من الكتابة والتواصل مع الجمهور المستهدف، كذلك قد تحتوي المقدمة على اسم المرسل والمرسل إليه وقد يكتفي بذكر الأسماء وأحيانا يقدم معلومات من أصله ومكانته وغير ذلك، وقد يعرض في المقدمة أحيانا الهدف العام للرسالة التي يود إيصالها إلى القارئ حسب الموضوع التي تعالجه.

9. موضوع الرسالة:

حددَّ الفئة المستهدفة الموجهة لهم الرسالة (الكُتَّاب)؛ إلاَّ أنَّه سماهم أهل صناعة الكِتابة، ودعا لهم بالحفظ والارشاد، ثم بدأ بموضوع رسالته. فمن خلال قراءتي لها، فالرسالة يمكن تقسيمها للمواضيع التالية، التي تدور كُلُّها حول الكُتاب؛ إلاَّ أنَّه عالج كل ما يخص الكاتب من جميع الجوانب:

9.1 موقع الكُتَّاب ودورهم:

[1] محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، ط05، 1975م، ص497.

[2] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 58/2.

حيث صنَّف الكُتاب، بأنَّهم أشرف خلق الله بعد الأنبياء والرسل، والكُتَّاب هنا يقصد بهم موظفي الدواوين، ربط وجودهم بانتظام الخِلافة، حيث قال: "فإنَّ الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ومن بعد الملائكة المكرمين أصنافا وإن كانوا في الحقيقة سواء وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم فجعلهم معشر الكتاب في أشرف الجهات أهل الأدب والمروءات"[1].

وبالفعل، فالكاتب يعتمد عليه الوزير بالدرجة الأولى في تسيير شؤون الدَّولة. ذلك أنَّ مهمتهم" لم تقتصر في العصر الأموي على تدوين ما يمليه عليه الخليفة من عهود أو رسائل إخوانية وسياسية. وإنَّما كانت لها أبعاد أخرى ذات صلة وثيقة بسياسة الدولة وأمور الحرب"[2]. حدد دورهم في استقامة أمور الخِلافة، فهم لسان حال الخلفاء فيوصلون لهم الأخبار ويرشدونهم، ترجمة وجهات الرأي العام وتسيير شؤون الدَّولة الخارجية، كما الصحافة اليوم تترجم أفكار وسياسات الحُكَّام. قدَّم عبد الحميد للكُتَّاب ثروة من النصائح النبيلة مثل: البعد عن المطامع ومساوئ الأمور، البعد عن السعاية والنميمة، تجنب الكبر والخيلاء، حب بعضهم بعضا وغيرها من الصفات الحميدة التي يجب أن يتصف بها الكاتب[3]. وظلت الرسالة حتى نهايتها توضح الطريق وتنصح وتحذر لم تترك جانبا من الجوانب إلاَّ ونبهت إليه الكُتَّاب وأهم ما ألَّحت إليه أن يتوخى

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص173.

[2] حمادي الزنكي، عبد الحميد الكاتب آثاره وحياته، دار سحر، كلية الآداب والعلوم الانسانية بالقيروان، ط01، 2007م، ص23.

[3] ينظر: مصطفى الشكعه، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، 232/2 –233.

الكُتَّاب الإيجاز سواءً في ابتداءات رسائلهم أو في جواباتها، أن يلتمسوا الحجج الدامغة والبراهين المقنعة لما يريدون إثباته[1].

9.2 حقل صفات الكاتب:

يمكن تقسيم صفات الكاتب، إلى قسمين ، من خلال الجدول التالي:

صفات أخلاقية	صفات معرفية
أن يكون: عفيفا، عادلا ومنصفا، كاتما للأسرار، وحدد لهم هذه الصفات بالذات لأن الكاتب لو يستغل منصبه للشر والأذى سيضر الدولة ويمس بأمنها. وفيا عند الشدائد(كما كان عبد الحميد الكاتب وفيا لمروان بن محمد ولم يتخل عنه حتى عند سقوط الدولة الأموية حتى قُتِلَ معه) ـ التَّرفع عن الكِبر، والمطامع الكبيرة والصغيرة و خدمة الدولة بأمانة وصدق. ـ التضامن مع من قلت مكانته بين الكُتَّاب، أو طُرد من منصبه في الديوان، ولا ينسوا له فضله ومجهوداته، حتى يخففوا عنه أزمته. ـ التصرف بما يرضي الله مع الرَّعية، فيحكم بالعدل، و ينصف المظلوم، ويرافق الضعيف، وبهذا يكون متواضعا في مجلسه، متجنبا للغرور والتكبر.	أول ما يجب عليه: الفقه به الدين، فيبدأ بكلام الله عز وجل، لكي يعينهم على إدارة شؤون الدَّولة لأنهم مؤتمنون على شؤونها فيخدمونها بما يرضي الله. ثم الفرائض، لكي يتمكنوا من معرفة الأحكام والتشريعات، ثم التمكن من اللغة العربية، ليس إجادة الكتابة بها فقط، فيضع الكلمة في موطنها المناسب، وعليه فيجب أن يكون مثقفا فيعرف شيئا في كل شيء، ويعرف كل شيء عن شيء واحد. الخط: يجب عليه إجادته، لأنَّ كلام الرسالة يُرى قبل أن يُقرأ، فلو كانت الرسالة مكتوبة بخط غير مفهوم وغير متناسق، فقد لا يقرأها المرسل إليه إطلاقا. معرفة الأشعار غريبها ومعانيها، ففي الرسائل قد يستشهد فيها المرسل ببيت شعري، قد لا يستطيع فهم معناه وبالتالي

[1] ينظر: يونس عبد العال، قضايا ونصوص في النثر، 217.

ـ إتقان خدمتهم والابتعاد عن التبذير والتضييع. ـ الايجاز في الابتداء والجواب. ـ الموضوعية في اتخاذ القرارات السياسية من غير اغترار بالرأي.	لا تُفهم الرسالة. معرفة أيام العرب(معرفة التاريخ)، فيحتاج ذلك عند الفخر بدولته في مواقف ما، للتعزيز من مكانتها ويبين للطرف الآخر ذلك. الحِساب(الرياضيات)، يحتاجه كُتَّاب الخراج المسؤولين عن أمور الزكاة، وحساب أموال الخَراج الذي يتم أخذه سنويا.

جدول رقم 05: يوضح صفات الكاتب وفقا لعبد الحميد الكاتب

قراءة تحليلية للجدول:

وعليه، فموضوع الرسالة الديوانية ليس مقتصرا على جانبٍ واحد، فالكاتب كان يكتب هذه الرسائل وفقا للظروف السياسية والاجتماعية للدولة، حيث شهد هذا النوع من الرسائل تطورا كبيرا وتنوعا في المواضيع المطروحة، ووفقا لأهداف المجتمع الذي كانت تكتب له، فمن خلال هذه الرسائل الديوانية استطاع الدارسين لها تحديد بنية النظام السياسي والاجتماعي للدولة والمجتمع الأموي.

وعليه، فالكاتب بالنسبة لعبد الحميد الكاتب ليست مهمته الكتابة فقط بل عدَّه عالما ذو تخصصات عديدة فيكون بذلك:

ـ رجل دين: قريب إلى الأصول، فاهم لها من خلال تفقهه في العلوم الدينية وتعلم كتاب الله عز وجل والفرائض.

ـ عالم لغة: يجب أن يهتم بالمعاجم وقضايا النحو ومشكلاته، مع الإلمام بغريب اللغة ومعانيها فيكون بذلك ذو حس لغوي متميز فيتمكن بذلك من الكتابة دون تعثر أو صعوبة.

ـ أديب وراوية: يعرف أشعار القدماء، ويحفظ منها ما يُقوم لسانه، وتزدحم به ذاكرته، مما يزيد كتابته توثيقا وتوكيدا وعمقا.

ـ مؤرخ: يعرف مصادره وينقد أخباره ويستكشف الوقائع والأحداث، ويقف على أيَّام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإذا ما عرض لموقف تاريخي كان واثقا من مادته ومدركا لما حولها من تفاصيل وعلل.

ـ كاتب متخصص: يجيد الخط حتى يلاقى القبول في بيئة المثقفين من أبناء جيله، خاصة أنَّ الخط هنا ضرورة من ضرورات الكاتب، في مقابل فصاحة اللسان[1].

10. الخاتمة:

(لم يستعمل عبدالحميد هذا المصطلح في رسالته؛ لكن ذكرناه لكونه من عناصر بنية الرسالة الديوانية). ختمها بالدعاء للكتبة، وبعبارة السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، في قوله: "**وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل من تلزمه النصيحة يلزمه العمل. وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل فلذلك جعلته آخره وتتمته به. تولانا الله وإيَّاكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولَّى به من سبق علمه باسعاده وإرشاده فإنَّ ذلك إليه وبيده والسلام عليكم ورحمة الله**

[1] ينظر: مي يوسف خليفة، النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي دراسة تحليلية، ص141-142.

وبركاته"[1]. نلاحظ كيف ختم رسالته بالدعاء للكتاب وأن يلتزموا بنصائحه وفي الأخير ألقى عليهم التحية فاقتدى في هذا الأمر بمن سبقوه في كتابة الرسائل في ختم كلامهم بتحية الإسلام فهي أحد الرموز الدينية التي اعتمد عليها الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده في إنهاء كتبهم.

وعليه، **فخاتمة الرسالة الديوانية** كمقدمتها أيضا تحتوي على عناصر ينسقها الكاتب، حيث من المهم أن تكون تعبيرا عن المشاعر الصادقة لإنهاء الرسالة بشكل لائق وملائم، فقد تكون خاتمة الرسالة الديوانية عبارة عن دعوات للمرسل إليه، أو قد تكون اعتذارا لتأخر الرسالة مثلا أو تصحيح خطأ وقع فيها، أو قد تكون تعبيرا عن الحزن في حالة تقديم التعازي للمرسل إليه، أو عن الفرح في حالة المباركة للمرسل إليه بانتصاره في معركة ما وغير ذلك، فتتنوع باعتبار المقام الذي كُتبت له ولأجله.

هذا بالنسبة لحقل مصطلح الرسالة، ننتقل لحقل بنية النظام السياسي، اتخذنا له هذا الاسم نسبة للمصطلحات السياسية المتصلة بسلطة الدولة في العصر الأموي التي استعملها عبد الحميد في ثنايا رسالته، فيستطيع القارئ فهم طبيعة الحكم في ذلك العصر.

المبحث الثاني: حقل مصطلحات بنية النظام السياسي:

يضم هذا الحقل مجموعة من المصطلحات السياسية، أو مصطلحات لها علاقة بالنظام والسلطة، نبدأ مع مصطلح السياسة. (مادامت الرسالة الديوانية من أجهزة النظام السياسي في الدولة الأموية، وجب علينا معرفة مصطلحات بنية النظام السياسي

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص175.

أيضا، فاستطعنا إحصاء بعضا من المصطلحات التي لها علاقة ببنية النظام السياسي في العصر الأموي، من ثنايا رسالة عبد الحميد الكاتب):

1. مصطلح السياسة:

عرَّف عبد الحميد الكاتب مصطلح الكاتب بطريقة غير مباشرة في قوله: " قد علمتم أنَّ سائس البهيمة بصيرا بسياستها التمس معرفة أخلاقها فإن كانت جموحا لم يهجمها إذا ركبها وإن كانت شبوبا اتَّقاها من بين أيديها وإن خاف منها شرودا توَّقاها من ناحية رأسها وإن كانت حر وناقع برفق هواها في طرقها فإن استمرت عطفها يسيرا فيسلس له قيادها"[1]. فبين كيف من يقود البهيمة يعرف كيف يقودها حسب طبعها وحالتها وهذه هي السياسة فتعرف كيف تقود أمر ما حسب ما يتطلبه الأمر وبانتظام. فبدأ بمثال سائس البهيمة ليُقرب المعنى لأذهان المتلقين في ذلك الوقت، ثمَّ استمر في شرح المصطلح في قوله: "في هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم والكاتب بفضل أدبه وشريف صنعه ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تحير جوابا ولا تعرف صوابا ولا تفهم خطابا إلاَّ بقدر ما يصيرها إليه صاحب الراكب عليها"[2]. وعليه، عبد الحميد ربط مصطلح السياسة بالكاتب الذي يجب عليه أن يتمتع بسياسة في طريقة كتابته فعليه أن يراعي الحالة والموقف الذي يكتب فيه وله، فأضاف قائلا: " ولا يقول أحد منكم أنَّه أبصر بالأمور وأحمل لعبء ما يكتفي به يعرف بغزيرة عقله وحسن أدبه وفضل

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص173.

[2] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص173.

تجربته ما يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره فيعد لكل أمر عُدَّته وعتاده ويهيء لكل وجه هيئته وعاداته"[1]. بالنسبة لمصطلح السياسة، لم يُذكر في القرآن؛ لكنه ذكر مصطلحات مقترنة بها، منها: الخِلافة، الحكم، المُلك، السلطان، الوالي، الولاية.

جاء في معجم ابن منظور السياسة: "القيام على الشيء بما يُصلحه. والسياسة فعل السائس. يقال: هو يَسُوس الدَّواب إذا قام عليها ورضاها، والوالي يسوس رعيته"[2]. فابن منظور كذلك شبَّه الوالي الذي يسوس الرعية بسائس البهيمة. والمصطلح بدأ تطبيقه مع مجيء الإسلام، فهو نظام حددت معالمه بالوحي ولا محل لبشر فيه وهذا أمر بديهي بالنسبة للدولة التي أنشأها الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة، حيث أنَّ النبي مبلغ عن ربه ومنفذ لأمره ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن مجرد مبلغ لآيات متعددة في مجال الحكم، والقضاء وتوزيع المال وقسمته على الناس، وتنفيذ الحدود، وتسيير الجيوش، وعقد المعاهدات، فهي الآيات التي لا يتعين معناها بدون الممارسة العملية للحكم والسلطان[3]. مازال هذا المصطلح يُستعمل في عصرنا الحالي، فهو مصطلح خاص بالدَّولة وبرجال السياسة فيها.

من الطبيعي أن تكون لكل دولة سياسية خاصة بها في تسيير شؤونها وأمور رعيتها، كذلك الأمر بالنسبة للعصر الأموي، فقد استخدمت السياسة لتحقيق غايات محددة منها: استخدمت لتوسيع الحكم وزيادة القوة العسكرية نتيجة للظروف السياسية

---

[1] المرجع نفسه، ص174.

[2] ابن منظور، لسان العرب، 108/06.

[3] حسان عبد المنعم عبد الهادي سمارة، النظام السياسي في الإسلام . نظام الخلافة الراشدة .، ط01، 2000م ص31.

غير المستقرة آنذاك وكثرة الحروب، فكان الخلفاء والامراء يتخذون القرارات السياسية بناءً على مصلحة الدَّولة والدفاع عنها ضد الاطراف الخارجية. إضافة، لاستخدامها لترسيخ الدَّولة الأموية من خلال إنشاء الدواوين التي تعددت وتنوعت لكل مجال ديوان خاص به، وعددا من الموظفين المشتغلين فيه هذا كله لأجل تحقيق الاستقلال السياسي للدولة. من مظاهر السياسية المعروفة أيضا الغنية عن التعريف ظهور ما عُرف بمصطلح الجِزية للأقليات الدينية غير الإسلامية كالمسحيين واليهود، وهي عبارة عن ضريبة خاصة تفرض عليهم مقابل حمايتهم والاستمرارية في ممارسة ديانتهم، وبالتالي يمكن اعتبار السياسة في العصر الأموي نهجا إداريا شاملا يهدف إلى تحقيق القوة والاستقرار للدولة، وكل هذه القرارات السياسية كان مرجعها الشريعة الإسلامية بالدرجة الأولى. ننتقل لمصطلح الخلافة نظام السياسة في العصر الأموي.

2. مصطلح الخِلافة:

ورد المصطلح في قوله: "بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ويعمر بلدانهم"[1]. فيتضح من خلال قوله الأهمية الكبيرة للكاتب في ذلك العصر فلم يكن مجرد ناسخ لحروف الرسالة، بل تجاوز هذا الأمر ليتمتع بمكانة مهمة في الخلافة من خلال توليه لإنشاء الرسائل الصادرة عن الملوك والخلفاء الساعية لتسيير شؤون الدولة.

في معجم العين لم يرد مصطلح الخلافة بتعريف مستقل، إلاَّ أنَّه ذكره في قوله "خلفك الله بأحسن خِلافة، وفلان يخلُفُ فُلانا في عياله بخلافة حسنة"[2]، فالخليل

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص172.

[2] الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، (مادة خلف)، 268/4.

استعمل مصطلح الخِلافة بمعنى أن يترك الأب خلفه خِلافة حسنة أي: ابناءً صالحين؛ لكن عبد الحميد لم يقصد هذا المعنى؛ بل قصد ما ذكره ابن منظور في قوله: " خَلَفَ فلان فلانا إذا كان خليفته. يقال: خَلَفَهُ في قومه خِلافةً و الخِلافة: الإمارة"[1]. وهذا ما قصده عبد الحميد فالخِلافة بمعنى الإمارة أي: الوِلاية، فيخلُف الملك أو سلطانا من بعده أميرا، هذا النظام لازال في الأنظمة الملكية حتى في وقتنا الحالي.

قال عنها ابن خلدون: حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشَّرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا، فهي حمل الكافة على أحكام الشريعة ولم يجر للملك ذكر لما أنَّه مظنة الباطل ونحلة يومئذ لأهل الكفر وأعداء الدين فقام بذلك أبو بكر ما شاء الله متبعا سنن صاحبه وقاتل أهل الردة حتى اجتمع العرب على الإسلام ثمَّ عهد إلى عمر فاتبع أثره وقاتل الأمم فغلبهم وأذن للعرب في انتزاع ما بأيديهم من الدنيا والملك فغلبوهم عليه وانتزعوه منهم ثم صارت إلى عثمان ثم إلى على[2]. قال عليه الصلاة والسلام عن الخِلافة: "إنَّ أوَّل دينكم بدأ بنبوة ورحمة، ثمَّ يكون خِلافة ورحمة، ثمَّ يكون ملِكا وجبرية"[3].

ظهر المصطلح بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، " الصحابة رضوان الله عليهم باشروا الاشتغال بأمر الخِلافة فور بلوغهم خبر وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واستمرت الدعاية الانتخابية والمنافسة المشروعة على منصب الخِلافة ليلتين، وفي اليوم الثاني اجتمع المسلمون على بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه البيعة العامة

[1] ابن منظور، لسان العرب، (مادة خلف)، 9/84-83.

[2] ينظر: ابن خلدون، المقدمة، 1/367-393.

[3] جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم، ط02، 2003م، ص13.

في المسجد"[1]. وعليه، الخلافة ضرب من الملك خاص بالإسلام لم يكن في سواه من قبل وهي من قبيل السلطة الملكية المطلقة، ولكنَّها تمتاز عن القباصرة والامبراطوريون والأكاسرة بأنَّ الخلافة تشمل السلطتين الدينية والدينوية، مقيدة بقوانين دينية شرعية يسوس الخليفة بها أمَّته ويحمل الناس على أحكامها بالنيابة عن النبي صاحب تلك الشرعية[2].

فيمكن تلخيص مفهوم مصطلح الخلافة حسب ما سبق إلى أنَّه مصطلح ظهر نتيجة للتغيرات السياسية والظروف التي طرأت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ساهمت في إنتاج مصطلح جديد، لذلك فالمصطلح فعلا يكون وليد المجتمع ويُصاغ حسب الظروف التي ظهر فيها، يشير إلى منصب الحاكم الأعلى الذي يملك صلاحيات سياسية ودينية وعسكرية وقضائية في الدولة الإسلامية. وكان الهدف من وضع مصطلح الخلافة والعمل به أن يكونوا فعلا خلفاء رسول الله صلى عليه وسلم في قيادة أمور الدولة وتسييرها وفقا للشريعة الإسلامية المصدر الرسمي لسياسة خلافة الدولة الاموية.

3. مصطلح السلطان:

ذكره عبد الحميد في قوله: "بنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ويعمر بلدانهم"[3]، فيربط عبد الحميد مجددا صلاح سُلطان الملوك بالكاتب الذي تمتع بمكانة سامية في الدولة تمكنه من إعطاء النصيحة للملك الذي يشتغل عنده، فقد لا يكتب فقط ما يمليه عليه بل قد ينصحه بما يفيده ويعود عليه بالنفع ولدولته. ذُكر هذا

[1] حسان عبد المنعم عبد الهادي سمارة، النظام السياسي في الاسلام ـ نظام الخِلافة الراشدة ـ ، ص49.
[2] ينظر: جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، دط، دت، 123/1.
[3] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص172.

المصطلح في قوله تعالى: ﴿**... وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ...**﴾**(سورة إبراهيم: الآية 22)** جاء في تفسير الطبري: " وما كان لي عليكم من سلطان، يقول: وما كان لي عليكم، فيما وعدتكم من النُصرة، من حجة تثبت لي عليكم"[1].

في معجم العين، السلطان: قدرة المَلْكِ، وقدرة من جُعِلَ ذلك له وإن لم يكن مَلِكاً، كقولك: قد جعلت له سلطانا على أخذ حقي من فلان[2]. فالسلطان حسب تعريف الخليل الملك وقدرته في رد الظلم وإرجاع حقوق الأشخاص حتى إن لم يكن سلطانا، فيكفي أنَّ له القدرة.

في لسان العرب، السلطان: الحُجَةُ والبرهان، والسلطان إنَّما سُمي سلطانا لأنَّه حجة الله في أرضه، ولذلك قيل للأمراء سلاطين لأنَّهم الذين تُقَام بهم الحجة والحقوق[3]. في تعريفه فسَّر سبب تسمية الأمير بالسلطان لأنَّ لديه القدرة والحجَّة في حل أمور رعيتهم.

استعمل المصطلح عمر بن الخطاب، لمَّا أوتي بمال كثير ـ قال أبو عبيد: أحسبه قال: من الجِزية ـ فقال: إني لأظنكم قد أهلكتم الناس. قالوا: لا، والله، ما أخذنا إلا عفوا صفوا قال: لا سوط ولا نوط؟ قالوا: نعم. قال: الحمدلله الذي لم يجعل ذلك على يدي ولا في **سلطاني**[4].

---

[1] الطبري، تفسير القرآن، 449/4.

[2] الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، (مادة سلط)، 214/07.

[3] ابن منظور، لسان العرب، (مادة سلط)، 321/7.

[4] عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأموال، دار الشروق، ط01، 1989م، ص119.

وعليه، فمصطلح السُلطان في العصر الأموي لم يستخدم بنفس المعنى الذي نعرفه، بل استُخدم للإشارة لقدرة الملك أو الخليفة، فمصطلح السلطان بمعناه الحاكم العلوي للدولة ظهر في العصر العباسي وشاع استعماله فيه كثيرا، عكس العصر الأموي فقد شاع فيه مصطلح الخليفة.

4. مصطلح المُلْكُ:

ذكر عبد الحميد في قوله: " بكم ينتظم المُلك"[1]، ربط انتظام المُلك بالكاتب، لما له من دور في مرافقة الملك في تسيير أمور مُلكه في دولته ومع رعيته، فالرسائل التي كان يكتبها الكُتَّاب لم تكن عبارة عن كلمات إنشائية أو تؤدي أغراضا شخصية، بل هي رسائل رسمية صادرة عن ملك أو ممن تمتعوا بالسلطة في الدولة، اتخذوا لها كُتَّابا مختصين بكتابتها. رأينا ذلك في ثقافة الكاتب، حيث تمتعوا بدور بارز في قيادة أمور الدولة، وذلك للمكانة التي منحها لهم الملوك في ذلك العصر، وأبرز دليل على ذلك عبد الحميد الكاتب الذي لم يكن كاتبا فقط، بل تمتع بمناصب مهمة في دواوين الدولة. ورد المصطلح في العديد من الآيات القرآنية، منها قوله تعالى: ﴿**... قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (سورة البقرة: الآية 247)** جاء في تفسير الطبري: "يعنى تعالى ذكره بذلك إنَّ المُلك لله وبيده دون غيره، <<يؤتيه>>، يقول: يؤتي ذلك من يشاء، فيضعه عنده ويخصُّه به، ويمنحه من أحبَّ من خلقه"[2]. كذلك، قال عبد الملك بن مروان(ت86هـ): "المُلك لا يصلح إلاَّ بالرجال و الجال لا يقيمها إلاَّ الأموال"[3].

---

[1] الجهيشاري، الوزراء والكتاب، ص74.

[2] الطبري، تفسير الطبري، 108/2.

[3] نجدة خماش، الإدارة في العصر الأموي، دار الفكر، ط01، 1980م، ص276.

في معجم العين: " المُلك لله المالكِ المَليك. والملكوت: مُلْكُ الله: سلطانه والمملكة سلطان الملك في رعيته"[1]، فالخليل خصَّ مصطلح المُلْكُ والملكوت بالله عز وجل مالك كل شيء، والمملكة خصَّها بالسلطان. كذلك الأمر لتعريف ابن منظور" "المُلْكُ: معروف وهو يذكر ويؤنث كالسلطان؛ ومُلْكُ الله تعالى وملكوته: سلطانه وعظمته"[2]، فخصَّ مصطلح المُلْك بالله عزَّ وجل، لما له من عظمة وسلطان على عباده.

وعليه، فالمُلك صفة من صفات الله عز وجل، لذلك من أسمائه الحسنى المالك؛ لكن عبد الحميد الكاتب، استعمل مصطلح المُلْك نسبة للملوك والسلاطين، لما لديهم من سلطة على رعيتهم.

5. مصطلح الحُكْمُ:

جاء في قوله تعالى: ﴿**يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا**﴾**(سورة مريم: الآية 12)**. فسر الطبري قوله تعالى "وآتيناه الحكم صبيا"، يقول تعالى ذكره: وأعطيناه الفهم لكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه أسنان الرجل[3].

في معجم العين: "وحكَّمنا فلانا أمرنا: أي يحكُمُ بيننا. وحاكمناه إلى الله: دعوناه إلى حكم الله"[4]، فالحكم لله عزَّ وجل؛ لكنَّه لم يعرفه بالمعنى الذي قصده عبد الحميد الكاتب. فالحكم مصطلح قصد به القضاء، كما ذكره ابن منظور: " الحُكمُ: العِلْمُ والفقه والقضاء"[5].

---

[1] الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، (مادة ملك)، 380/5

[2] ابن منظور، لسان العرب، (مادة ملك)، 492/10.

[3] الطبري، تفسير الطبري، 146/5.

[4] الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، (مادة حكم)، 67/3.

[5] ابن منظور، لسان العرب، (مادة حكم)، 141/12.

لم يكن القضاء بين العرب في الإسلام مسنودا إلى أحكام شرعية، وإنَّما كان يتولَّى الحكم رؤساء العشائر والقبائل وذلك بالأخذ من القوي للضعيف، ونصرة المظلوم على الظالم، وإجارة المستجير، وتأمين الخائف، وأمَّا بعد الإسلام فكانت الأحكام تجري على مقتضى ما في معرفة الحكام بالكتاب والسنة والحديث فكانت القضية إذا نزلت بأبي بكر أول الخلفاء قضى فيها بما عنده من ذلك أو سأل من بحضرته من الصحابة الذين كانوا يفتون في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم. كان الخليفة عمر بن الخطَّاب أوَّل من استناب في القضاء وكتب لمن فوض إليه الكتاب المشهور الذي عليه تدور أحكام القضاة حيث جاء فيه: " وإنني لا أفضل ألف مرة الحكم بنور السليقة على الحكم بمقتضى الشريعة، فالشريعة لا تخدع ولا تُخدع. والشريعة واسعة مجال الظن والاجتهاد تضيع بين أيدي ذوي الميل والهوى، ويفسدها زيغ الناس وطغيانه... "[1]

6. مصطلح الوالي:

ذكره عبد الحميد في قوله: "يحتاج إليكم الملك في عظيم ملكه، والوالي في القدر السني والدني من ولايته"[2]. فالوالي يحتاج كذلك الكاتب في تسيير شؤون ولايته. في القرآن الكريم ذُكر المصطلح بصيغة الوليُّ وهو الله سبحانه تعالى ولي كل مخلوقاته، في قوله تعالى: ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾(**سورة البقرة: الآية 120**).

[1] ينظر: فيلاق الرياشي اللبناني، عهد الرسول العربي، ص60/59.

[2] الجهيشاري، الوزراء والكتاب، ص74.

هذا المصطلح لم يذكره الخليل في معجمه، مما يدل أنَّه لم يكن مستعمل في عصر تأليفه للمعجم؛ أمَّا في معجم لسان العرب عرَّف المصطلح باعتباره اسم من أسماء الله عز وجل" ومن أسمائه عزَّ وجل: الوالي، وهو مالك الأشياء جميعها المُتَّصرف فيها"[1].

إضافة لقول الرسول صلى الله عليه و سلم: "لا تسبوا الوُلاَّة، فإنَّهم إن أحسنوا كان لهم الأجر وعليهم الشكر، وإن أساؤا الوزر وعليكم الصبر... "[2]. في العصر الأموي، يطلق مصطلح الوالي على الحاكم المحلي لإدارة إحدى الأقاليم التابعة للدولة الإسلامية، يتمتع بصلاحيات تشريعية وتنفيذية وقضائية في محافظته، وتتعدى مسؤوليته حسب طبيعة المحافظة وتحديدات الخلافة الأموية. يتم تعيينه من قبل الخليفة الأموي يتمتعون بسلطة محددة ومراقبة من قبل الخليفة.

مثلما هو الأمر في وقتنا الحالي، الوالي لا يخرج عن سلطة رئيس الدولة، والقرارات الكبرى التي تخص المنطقة المتولي لها يعود بها إلى السيد رئيس الجمهورية، فنلاحظ أنَّ مصطلح الوالي مازال بنفس الصيغة والمفهوم لم يطرأ عليه حتى تغير.

الكاتب ليست مهمته مقترنة بالكتابة وحسب بل يشتغل مهاما في تسيير شؤون الدولة ويُعطى له مناصب يكون المسؤول عنها، كما قال عبد الحميد: " حتى إذا وُلي الرجل منكم أو صُير له من أمر خلق الله وعياله أمرا فليراقب الله عز وجل وليؤثر

[1] ابن منظور، لسان العرب، (مادة ولي)، 407/15.

[2] القاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دط، 1979م، ص10.

طاعته"[1]. فوصى الكتاب إن حظي أحدهم بمنصب الوالي أن يتقول الله في تسيير شؤون رعيتهم.

7. مصطلح الوِلاية:

ذكره عبد الحميد في قوله: " في ولايته"[2]. جاء في لسان العرب" ابن السكيت: الوِلاية، بالكسر السلطان، والوَلاية والوِلاية النَّصرة. وقال سيبويه: الوَلاية، بالفتح، المصدر، والوِلاية، بالكسر. الاسم مثل الإمارة والنَّقابة"[3]. فمن خلال تعريفه مصطلح الوِلاية، يحمل ثلاث معاني: فوالي الشيء نصرته، الوِلاية: السلطان، الوِلاية: الإمارة والنقابة. استعمل المصطلح كذلك عبد الملك " وذكروا أنَّ الوليد بن عبد الملك كان لحانا، وكان عبد الملك فصيحا، وعرف بلحن ابنه، فقال له: إنَّك يا بني لا تصلح **للوِلاية** على العرب و أنت تلحن"[4]. كذلك، يحمل المصطلح معنى آخر خِلاف معنى إمارة السلطان أو توليه لشؤون الرعية، أُطلق هذا المصطلح على تسمية المناطق الإسلامية بعدما تمَّ تقسيمها.

مصطلح الولاية في العصر الأموي، يطلق على الإقليم الذي يتم تعيين والي لإدارته، ضمن نطاق جغرافي محدد، من أهم الولايات في العصر الأموي ولاية العراق وولاية الشام حيث حظيا بأوسع الصلاحيات في الإدارة والقوة العسكرية.

8. مصطلح المجلس:

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص175.

[2] الجهيشاري، الوزراء و الكتاب، ص74.

[3] ابن منظور، لسان العرب، (مادة ولي)، 407/15.

[4] محمد كرد علي، أمراء البيان، 19/1.

ورد في قوله: " ولا يجاوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه"[1]. حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ **(سورة المجادلة: الآية 11)**.

في معجم العين: " جلس يجلس جلوسا، وهو حسن الجِلسة"[2]، لم يستعمل مصطلح المجلس، بل ذكر مشتقات الفعل جلس؛ أمَّا في معجم لسان العرب فعرَّفه المَجْلَسُ، بفتح اللام، المصدر، موضع الجلوس، والمجلِس جماعة الجُلُوسِ[3]. فالمجلس إذا هو المكان الذي كان يُجلس فيه لذلك سُمي مجلسا من الجلوس.

بالنسبة للمصطلح مستعمل منذ عصر الراشدين فكانوا يجلسون في المسجد أو المنزل، يقعدون على حصير أو جلد يلتفون بعباءة أو نحوها، فيدخل عليهم الناس في حوائجهم ويخاطبونهم بأسمائهم، ثم لما توسعت الدولة الإسلامية مع الدولة الأموية، أقام الأمويين مجالس خاصة بالخلفاء، فاتخذوا لأنفسهم قصورا كانت للدولة السابقة أو بنوا قصورا لأنفسهم نصبوا بها الأسرة أول من اتخذها معاوية. المجلس كان ينعقد في قاعة أو بهو كبير، على جدرانه صور ممثلة بالذهب والفضة ويكسو أرضه بساط واحد أو عدة أبسطة وفي أطراف البهو مناور من الذهب أو الفضة توضع عليه الشموع ويسبل على أبواب المجلس ونوافذه ستائر من الحرير مطرزة بشارة الدولة أو آيات أو

[1] المرجع السابق، ص 173.

[2] الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، 54/6.

[3] ابن منظور، لسان العرب، 39/6.

أحاديث أو رسوم مدن وفي وسط القاعة سدة أو سرير يجلس عليه الخليفة يصنع من العاج يُحلَّى بالذهب[1].

فنلاحظ، تطور مفهوم مصطلح المجلس بين عصر الراشدين والعصر الأموي؛ فبينما كان يُقصد به الجلوس في المسجد أو المنزل بجلسة بسيطة دون تكليف أو مبالغة، أصبح يعبر به عن مكان جلوس الخلفاء بطريقة رسمية وفخمة من حيث الملابس والأثاث وغيرها من أمور الرفاهية. فالمجلس في العصر الأموي، كان يعقد في قصر يتمتع بكل عناصر الرفاهية، يعقده الخليفة لتقديم المشورة وتبادل الآراء بشأن قضايا الدولة المختلفة، ويشتمل على ولاة المناطق الأموية، ومن العلماء والعسكريين والأعضاء البارزة في الدولة، هذا كله لصنع قرارات حكومية في خدمة الدولة والرعية. والمصطلح مزال مستعملا في وقتنا بنفس الصيغة والمفهوم و هو ما يُطلق عليه اليوم مصطلح المجلس الرئاسي بقيادة رئيس الدولة وأعضائه من الوزراء والولاة وغيرهم من رجال السياسة بالدولة.

9. مصطلح الخدم:

ذكر المصطلح في قوله: " وخدمه"[2]، لم يرد المصطلح في القرآن الكريم، ذكره ابن منظور الخدام بضم حرف الخاء في قوله: "الخُدَّام، الواحد خادمٌ غُلاماً كان أو جارية"[3].

[1] ينظر: جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، مؤسسة الهنداوي للتعليم و الثقافة، دط، 2012، 158/5.
[2] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص173.
[3] ابن منظر، لسان العرب، (مادة خدم)، 235/4.

الخادم: لقب يرد في المكاتبات يعبر به صاحب الكتاب عن نفسه وهو بهذا يبين أصله بين المكتوب عنه والمكتوب إليه، ويسمى في مصطلح الكُتَّاب الترجمة، وكان استعمال الخادم يغلب في الترجمة إذا كانت الكتابة مرسلة عن أحد الملوك إلى ديوان الخِلافة[1]. فالكاتب حسب ما ذكره عبد الحميد لديه خاصين به وهو في حد ذاته برغم من مكانته العظيمة خادم، نجد هذا في قوله: " فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صناعتكم خدم، لا تحتملون في خدمتكم على التقصير"[2]. فهو بكلامه هذا كأنَّه يقول لهم لا تغركم مكانتكم التي حظيتم بها، فأنتم في حد ذاتكم خدم لا يجب عليكم التقصير والتهاون.

بالنسبة لمصطلح الخدم في العصر الأموي، ضمَّ طبقتين: أمّاَ الأولى هي ما اصطلح عليها في ذلك العصر بالموالي، والثانية العبيد.

لما توالت الفتوحات الإسلامية تدفق سيل من الرقيق على العرب فلم يجد هؤلاء اسما يطلقونه عليهم سوى الموالي، فكان لهم نصيب في الحياة الاقتصادية كالزراعة وكان المسؤول عن مزارع معاوية في المدينة من الموالي ابن ميناء، كما زاولوا الصناعة كصناعة المنسوجات. بالرغم من نظرة الاحتقار لهم من الأمويين لكنهم؛ أسندوا إليهم مصالح الدَّولة التي تحتاج إلى أمانة وثقة كالحراسة، وأمانة السر، وخصصوا لهم رواتب سنية؛ لكن حرموهم من المناصب الرفيعة التي تقتضي الشرف وعلو المنزلة كالقضاء[3].

---

[1] ينظر: حسن باشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ و الوثائق والآثار، ص267.

[2] الجهيشاري، الوزراء والكتاب، ص77.

[3] ينظر: أسيمة العظم، المجتمع في العصر الأموي، دار العلم للملايين، ط01، 1996م، ص 37-40-47.

كان هؤلاء العبيد، وخاصة السود منهم، يستخدمون في قضاء شتَّى الأعمال سواءً في المنزل أو في خارجه، كالزراعة والفِلاحة أو أبناء الدور واستصلاح الأراضي في المزارع التي كان يملكها أسيادهم، فقد استخدم معاوية أربعة آلاف من الرقيق وأسرهم في بلدة الخضارم في إقليم اليمامة بنجد لاستصلاحها واستثمارها[1].

10. مصطلح الخُزَّان:

أطلق عبد الحميد على الكُتَّاب مصطلح الخُزَّان في قوله: " وخزان وحفظة لا يُحتمل منكم التضييع و التبذير"[2]. جاء في قوله تعالى: ﴿**تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِۖ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِير**﴾**(سورة الملك: الآية08)**، قال الطبري عن خزنتها: " سأل الفوج خزنة جهنم"[3]. " الخزانة: الموضعُ الذي يُخْزن فيه الشيء. والخِزانة عمل الخازن"[4]. نفس المعنى عند ابن منظور: " والخزانة: عمل الخازن"[5].

وعليه، فالخازن هو من يشتغل في خزانة الدولة الأموية المسؤولة عن إدارة المال العام للدولة، حيث تشمل جمع الضرائب وتمويل الجيوش وغير ذلك من الأعمال التي يؤديها موظفون مسؤولون عن إدارة الخزانة وتنظيم أعمالها وضمان نزاهتها وتوفير الأموال اللازمة للخليفة الأموي.

---

[1] ينظر: المرجع السابق، ص44.

[2] الجهيشاري، الوزراء والكتاب، ص77.

[3] الطبري، تفسير الطبري، 337/7.

[4] الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، (مادة خزن)، 209/4.

[5] ابن منظور، لسان العرب، (مادة خزن)، 139/13.

المبحث الثالث: حقل مصطلحات كاتب الخراج:

يحتوي هذا الحقل على مصطلحات خاصة بكاتب الخراج، فمع تنوع الدواوين كما رأينا تعددت معها الكتاب، فأصبح لكل ديوان كاتب يتولى الإشراف عليه وعلى رسائله من خلال توثيقها والمحافظة عليها، فذكر عبد الحميد من بينهم كاتب الخراج وبعضا من المصطلحات الخاصة به، نبدأ مع مصطلح كاتب الخراج:

نلاحظ بأنَّه مصطلح مركب من جزأين، الأول الكاتب، الثاني الخراج، بالنسبة لمصطلح الكاتب تعرفنا على مفهومه فيما سبق، أمَّا مصطلح الخراج يتمثل مفهومه في ما يأتي:

1. مصطلح الخراج:

قال تعالى: ﴿**أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ**﴾**(سورة المؤمنون: الآية 72)**. جاء في تفسير الطبري: " يقول تعالى ذكره: أم تسأل هؤلاء المشركين يا محمد، من قومك خراجا، يعني أجرا على ما جئتهم به من عند الله من النصيحة والحق "فخراج ربك خيرٌ": فأجر ربك على نفاذك لأمره، وابتغاء مرضاته خير لك من ذلك"[1].

ذكره الخليل: " الخرُج والخَرَاجُ: ما يُخْرَج من المال في السَّنة بقدر معلوم"[2]، فالخَراج، يُسَّمى أيضا بالخرُج، فنرى أنَّه لم يحدد من أين يخرج هذا المال، لا من طرف مسلمين أو كفَّار، كذلك الأمر بالنسبة لتعريف ابن منظور، الخَرَجُ والخَرَاجُ، واحد: وهو شيء يُخْرِجُه القوم في السنة من مالهم بقدر معلوم، والخَرَجُ والخَراج: الإتاوة تؤخذ من أموال النَّاس[3]. وعليه، فالخَراج حسب الخليل وابن منظور، لا يتطابق مع

---

[1] الطبري، تفسير القرآن، 376/5.

[2] الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، (مادة خرج)، 158/4.

[3] ابن منظور، لسان العرب، (مادة خرج)، 252/2.

مفهوم الفيء والجِزية؛ لأنَّ المال الذي، يتم إخراجه بسبب الفيء والجِزية، من طرف الكُفَّار.

استعمل كذلك الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: " ولا يُطرح خَرَاج على قضاتهم ورهبانهم ولا من كان مشغولا في العبادة منهم ولا شيء آخر غرامة كانت أو خراجا ولا مظلمة أخرى"[1].

يشير مصطلح الخراج إلى ضريبة على الأراضي الزراعية يتم فرضها على الفلاحين المؤجرين أو المستخدمين للأراضي، حيث يعد أحد المصادر الرئيسية للدخل العام في العصر الأموي، حيث تم استخدامها لتمويل الحكومة والخدمات العامة، ويتم جمعه من طرف مسؤولي الحساب والمالية في الدولة.

2. مصطلح كاتب الخراج:

فكاتب الخراج هو المشرف على الموظفين المسيرين لشؤون ديوان الخراج، يتمتع بمنزلة عالية لدى الأمير ومن أشهر من تقلَّد هذا المنصب في العراق زادان فروخ بن بيري وابنه مردانشاه، ثم صالح بن عبد الرحمن الذي تمَّ على يديه تعريب سجلات دواوين الخراج في العراق[2]. ومن شروط كاتب الخراج كما ذكر عبد الحميد أن يُتقن الحساب.

[1] فيلاق الرياشي اللبناني، عهد الرسول العربي، ص42.

[2] ينظر: نجدة خماش، الإدارة في العصر الأموي، ص277.

3. مصطلح الحساب:

ربط عبد الحميد الكاتب الحساب بكتاب الخراج في قوله: " ولا تضيعوا النظر في الحساب فإنَّها قوام كُتَّاب الخراج"[1]. فالحساب خصَّه لكُتَّاب الخراج. فجاء في قوله:﴿**أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ** ﴾ **(سورة البقرة: الآية 202)** . وصف جلَّ ثناؤه نفسه بسرعة الحساب، لأنَّه جلَّ ذكره يحصي ما يحصي من أعمال عباده بغير عقد أصابع، ولا فكر ولا روية، فامتدح نفسه جلَّ ذكره بسرعة الحساب، وأخبر خلقه أنَّه ليس لهم بمثل، فيحتاج في حسابه إلى عقد كفٍّ أو وعي صدر[2].

في كلٍّ من معجم العين، معجم لسان العرب، عدَّك الأشياء، الحساب الحسابة: عدَّك الشيء، حسبه حسبا وحسبانا(...)، عدَّه والمعدود، محسوب[3].

بالنسبة، لهذا العلم يحتاجه الكُتَّاب الذين يشتغلون بديوان الخراج. فكاتب الحساب ثلاثة: كاتب مجلس، كاتب عامل، كاتب جيش، فيجب أن يكونوا ضابطين لما يشرعون فيه من فنون الحساب حتى لا يقع عليهم خطأ فيه، وأن خفت أيديهم في العقود وأسرعت كان ذلك زائدا في كمالهم[4].

يشير مصطلح الحساب، إلى النظام المالي والاقتصادي المتبع في الدولة، حيث تعد الضرائب من المصادر الرئيسية للدخل العام في العصر الأموي، حيث تفرض على الأراضي والممتلكات والتجارة والعمل وتعيين مسؤولين لجمعها وتوجيهها لخزانة

---

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص174

[2] ينظر: الطبري، تفسير الطبري، 555/1.

[3] ينظر: معجم العين، (مادة حسب)، 149/3.

[4] ينظر: ابن وهاب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تح: حنفى محمد شرف، مطبعة الرسالة، دط، دت، ص288.

الدولة. فيحتاج بهذا الكاتب تعلم الحساب وإتقانه لحساب الموارد القادمة من موارد الفيء والخراج.

4. مصطلح الفيء:

ورد مصطلح الفيء في قوله: " ويكون للفيء موفرا"[1]. جاء في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾**(سورة الحشر: الآية07)**. بالنسبة لهذه الآية، يرى الطبري أنَّ أهل العلم اختلفوا في تفسيرها، فآخرون عنى بذلك الجزية والخراج، وآخرون عنى بذلك الغنيمة التي يصيبها المسلمون من عدوهم من أهل الحرب بالقتال عنوة، لكن الطبري يرى أنَّ الصواب وجعلنا ما أفاه الله على رسوله من أهل القرى لهذه الأصناف، كيلا يكون ذلك الفيء دولة يتداوله الأغنياء منكم بينهم، يصرفه هذا مرة في حاجات نفسه، وهذا مرة في أبواب البر وسبل الخير، فيجعلون ذلك حيث شاؤوا، ولكننا سننا فيه سنة لا تغير ولا تبدل[2].

توجد رسالة لعمر رضي الله عنه، وضح فيها كيف يقسم الفيء، فيما كتبه إلى سعد حين افتتح العراق: أمَّا بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه أنَّ الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم، وما أفاه الله عليهم. فإذا أتاك كتاب هذا فانظر ما أجلب الناس عليك به إلى العسكر من كراع ومال، فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الأرضيين والأنهار لعمالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين، فإنَّك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء، وقد كنت أمرتك أن تدعو من لقيت إلى الإسلام قبل القتال فمن أجاب إلى ذلك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، وله سهم

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص176.

[2] ينظر: الطبري، التفسير، 7/ 258-275.

في الإسلام. ومن أجاب بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل من المسلمين وماله لأهل الإسلام لأنَّهم قد أحرزوه قبل إسلامه. فهذا أمري وعهدي إليك[1].

ذكر المصطلح الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء عنه في أعراب المسلمين: أنَّه ليس لهم في الفيء والغنيمة شيء، إلاَّ أن يجاهدوا مع المسلمين و لم يك فقيرا أو شغل بتجارة أو عمل غير ذلك، فلا شيء له في الغنيمة والفيء، إلاَّ أن تصيبه حاجة فيدخل مع أهل الحاجة[2].

وعليه، مصطلح الفيء هو ما يجمع من قبل مسؤولي الحساب والمالية، حيث يقومون بتقييم الإنتاج وتقدير قيمة الفيء المستحقة، ثم يتم جمعها من المزارعين وتوجيهها إلى الخزينة المركزية للاستخدام في تمويل النشاط الحكومي والاقتصادي.

5. مصطلح سجلات:

ورد في قوله: " في سجلات خراجه"[3]. بمعنى السجلات الخاصة بكاتب الخراج التي يجمع فيها حسابات موارد الفيء و الخراج. قال تعالى: ﴿**يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ**﴾ **(سورة الأنبياء: الآية 104).**

جاء في تفسير الطبري: واختلف أهل التأويل في معنى السجل الذي ذكره الله في هذا الموضع. فقال بعضهم: هو اسم مَلَكٍ من الملائكة. وقال آخرون: السجل: رجل كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال آخرون بل هو الصحيفة التي يكتب فيها.

---

[1] القاضي أبي يوسف، كتاب الخراج، ص24.

[2] يحي بن آدم القرشي، كتاب الخراج، تح: أحمد محمد شاكر، ط02، 1384م، ص20.

[3] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص 175.

وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: السجل في هذا الموضع: الصحيفة، لأنَّ ذلك هو المعروف في كلام العرب، ولا يعرف لنبينا صلى الله عليه وسلم كاتب كان اسمه السجل، ولا في الملائكة مَلَكٌ ذلك اسمه[1].

عرَّفه الخليل بن أحمد: "السجل: كتاب العهدة: ويجمع سجلات"[2]؛ أمَّا في لسان العرب فذكر معنى المصطلح على ثلاث أوجه: المعنى الأوَّل كما ذكره الفراهيدي كتاب العهدة. المعنى الثاني: السجل الكاتب، وقد سجَّل له. المعنى الثالث: في حديث يوم القيامة، فتوضع السجلاَّت في كفَّة؛ وهو جمع سِجِلٍّ بالكسر والتشديد، وهو الكاتب الكبير[3].

فمعاوية هو أوَّل من أمر بتسجيل أو حفظ سجلات بمقادير الجِزية والخراج لكل منطقة أو إقليم، كان كل ما يرد يسجل في ديوان الخراج واتبع الخلفاء الأمويين القاعدة نفسها، فكان يسجل كل ما يرد من أموال الفيء، وحال البلد هل فُتح عنوة أو صلحا وما استقر عليه حكم أرضه، وتسجيل جميع الأراضي الخراجية وأسماء أصحابها والمبالغ المستحقة عليها[4].

وعليه، فالسِّجل، كتاب العهد، والإقرار بالحكم، ولازال المصطلح يُستعمل في وقتنا الحالي، السجلات الملفات التي يتم تسجيل فيها الأحكام، والمعلومات وغيرها، والتي يتم تسجيلها من طرف شخص مختص. تستخدم لتوثيق المعاملات المالية والتجارية، حيث تحتوي على تفاصيل العمليات المالية، مثل الايرادات من الضرائب

---

[1] الطبري، تفسير الطبري، 285/5.

[2] الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، (مادة سجل)، 54/6.

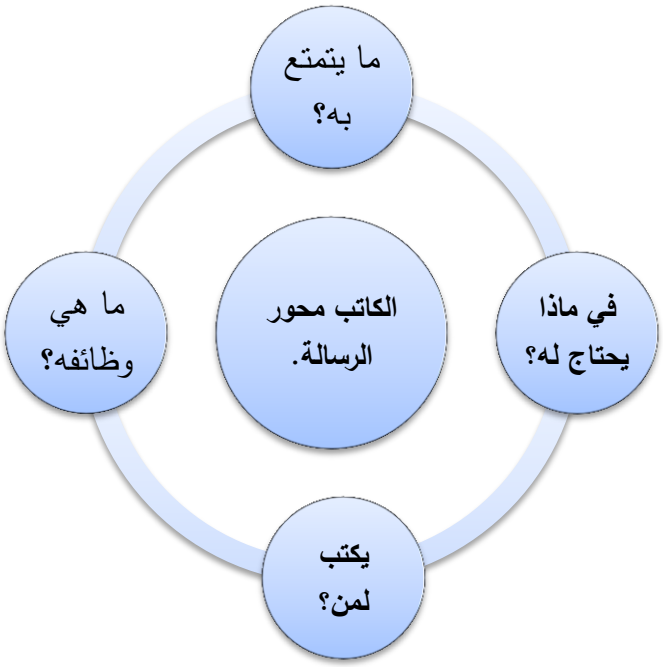
[3] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، (مادة سجل)، 326/11.

[4] ينظر: نجدة خماش، الإدارة في العصر الأموي، ص276.

والعوائد من الأراضي والمنتجات الزراعية، فمن خلالها أصبحت الحكومة قادرة على ضبط ومراقبة النشاط الاقتصادي والمالي بشكل أدق.

وعليه، نستنتج مما سبق، رسالة عبد الحميد الكاتب للكتاب يمكن أن نقول عنها أنَّها تعليمية إرشادية موجهة للكتاب بصفة خاصة، ركز على كل ما يخص الكاتب وما يجب عليه الالتزام به ليصبح كاتبا يستحق أن يحظى بمنصب في الديوان وصناعة الكتابة، وركز بصفة خاصة على النصائح الأخلاقية والمعرفية التي يجب عليه الالتزام بها، ويلاحظ القارئ أثناء قراءته لهذه النصائح أنَّها نصائح تدل على ثقافته الإسلامية فكل الصفات التي حددها للكتاب من شريعتنا الإسلامية من الصدق والتواضع والتوكل على الله و التعاون وغيرها كلها نصائح أخلاقية مستمدة من الشريعة الإسلامية، كذلك بالنسبة لنصائحه المعرفية نصحهم بحفظ القرآن وتعلم الفرائض الإسلامية. هذا بالنسبة لنصائحه للكتاب جوهر رسالته لهم.

بالنسبة للمصطلحات التي استعملها في ثنايا رسالته كما قسمناها لحقول مصطلحية؛ إلاَّ أنَّها كلها مرتبطة بالكاتب، فمن خلالها استطعنا الوقوف على كل ما يخص الكاتب، فكأنَّها أجابت على الأسئلة التالي التي سنوضحها من الخلال المخطط التالي:



شكل رقم 09: يوضح دور الكاتب وفقا لعبد الحميد الكاتب.

قراءة تحليلية للشكل:

من خلال المخطط يتضح لنا، أن الحاجة للكاتب تتجلى في صلاح السياسة والخلافة والمُلك والسلطان. فقد ربط عبد الحميد صلاح هذه الأمور بصلاح الكاتب، واتضح ذلك من خلال الأقوال التي سبق ذكرها، ويكتب للملك والوالي ولا يمكن الاستغناء عنه في كتابة رسائلهما، وربما حتى نصحهما بما ينفع المُلك والوِلاية. في قوله: "أنتم إذا آلت الأمور إلى موئلها وصارت إلى محاصلها، ثقاتهم دون أهليهم وأولادهم وقراباتهم ونصاحهم"[1]، يبين حاجتهما إلى الكتاب، حيث يشير إلى أن الكتاب هم أول من يحتاجهم الملوك والولاة في حال تعرضهم للمشاكل في قيادة أمور دولتهم، وهم أكثر بهم من أهلهم. حدد وظائف الكاتب، فقد يصبح الكاتب هو الوالي في حد

[1] الجهيشاري، الوزراء والكتاب، ص74.

ذاته، وهو مع شرف مكانته وصناعته خادم وخازن. ووضح ما يملكه الكاتب من مجلس وخدم يعينونه على أداء صناعته.

المبحث الرابع: المرجعية الفكرية لعبد الكاتب في وضع مصطلحات خاصة بالرسائل الديوانية:

قبل التطرق لدراسة مرجعيته، لنعرف أصله وجذوره:

عبد الحميد الكاتب(132هـ/750م) هو عبد الحميد بن يحي بن سعد العامري بالولاء، المعروف بالكاتب. عالم بالأدب من أئمة الكتاب. كان جده للعلاء بن وهب العامري، فنُسب إلى بني عامر. يضرب به المثل في البلاغة، وعنه أخذ المترسلون، أصله من قيسارية، سكن الشام واختص بمروان بن محمد آخر ملوك بني أمية في المشرق، يقال" فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد"، وهو أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب[1].

فعبد الحميد بن يحي فارسي الأصل، ولكنه ولد في البيئة العربية الإسلامية، التحق بديوان الرسائل على عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، فلما نبغ عبد الحميد وعلت منزلته الفنية اتخذه مروان بن محمد كاتبا وأمينا له. وقد كان نعم الكاتب الناصح الأمين، وعند بداية سقوط الدولة الأموية عرض عليه الخليفة مروان بأن يلتحق بالجيش العباسي، فرفض عبد الحميد الكاتب وقال له: " الذي أمرتني به أنفع

[1]ينظر: محمد علي جمّاز، معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 2003م، 359/3.

الأمرين لك، وأقبحهما لي، ولك عليَّ الصبرُ معك إلى أن يفتح الله عليك أو أُقتل معك"[1].

فنفهم من رفضه لعرض خليفته، أن نصائحه التي قدمها للكتاب من الصدق والاخلاص والوفاء في خدمتهم لملوكهم وخلفاءهم لأنهم أيديهم التي يبطشون بها، وأعينهم التي يرون بها؛ لم تكن مجرد حروف كتبها في رسالته، أو مجرد نصائح نظرية وجهها للكُتَّاب؛ بل كان مطبقا لنصائحه وظلَّ مخلصا لخليفته ودولته حتى قتله العباسيون، فاختار الموت على أن يبيع ولاءه لدولته. فأثبت بذلك بأنه من أهل البر ينصح به ويطبقه.

من خلال دراستي لمصطلحات الرسالة، استطعت الوقوف على ثقافة عبد الحميد الكاتب ومرجعيته في اختيار هذه المصطلحات؛ لكن قبل إبداء رأيي حول هذا، سنرى رأي بعض الدارسين حول ثقافة عبد الكاتب.

1. المرجعية الفكرية لعبد الحميد الكاتب في تأسيس مبادئ الكتابة الديوانية:

صرَّح الشكعه بأنَّ ثقافة عبد الحميد عربية وليست فارسية فقال: "إنَّ عبد الحميد لم يقل إنَّه أُوتِيَ البلاغة من الفرس أو الرُّوم، وإنَّما قال إنَّه أخذها عن العرب والمسلمين، لقد قيل له: ما الذي مكنَّك من البلاغة، وخرَّجك فيها؟ فأجاب عبد الحميد: حفظ كلام الأصلع يعني بذلك أمير المؤمنين وإمام البلغاء علي بن أبي طالب"[2]. فالشكعه، اعتمد في رأيه أنَّه ذو ثقافة عربية على قول عبد الحميد فقد صرَّح بنفسه أنَّه

[1] ينظر: مصطفى الشكعه، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، 2/217-218.

[2] مصطفى الشكعه، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، ص224.

تمكن من البلاغة وأبدع فيها من العرب لا من الفرس ولا الرُّوم، وفعلا المتأمل في مصطلحات الرسالة وألفاظها، يجدها عربية الأصل، وقد حظي عبد الحميد ببلاغة لا يمكن إنكارها، فنجده يستعمل اللفظ وضده بدقة، وتناغم فتحس وأنت تقرأ رسالته بالرغم من أنَّها كلام نثري؛ كأنها بيوت شعرية مثلا في عبارة: "وارغبوا بأنفسكم عن المطامع، سنيها ودنيها، وسفساف الأمور ومحاقرها، فإنَّها مذلة للرقاب، مفسدة للكتاب... فاستشعروا ذلكم، وفقكم الله، من أنفسكم في حالة الرخاء والشدة، والحرمان والمواساة والإحسان، والسَّراء والضرَّاء. . . فنلاحظ بلاغته في اختيار الألفاظ، فكل لفظ يذكر له ضده، فبلاغته عربية أصيلة، نرى ذلك أيضا في استعماله للصور البيانية، والأساليب الخبرية بأغراضها المختلفة، المحسنات البديعية من طباق وجناس، أذكر بعضا منها:

الصور البيانية، أغلبها الاستعارة المكنية منها: الكاتب يحتاج من نفسه، حيث شبه النفس بإنسان يُحتاج له، أخذ منه بمقدار ما يكتفي به، حيث شبه العلم بشيء له حجم ومقدار يؤخذ منه، والأمثلة لازالت كثيرة في الرسالة.

المحسنات البديعية: يمكن القول أغلب عبارات الرسالة بين الطباق والجناس منها:

الجناس: الحلم، الحكم، جناس ناقص يعطي جرسا موسيقيا يثير النفس وتطرب إليه الأذن. عدته، عتاده، عادته، جناس ناقص أيضا والأمثلة كثيرة.

الطباق: مقداما، محجاما، طباق يبرز المعنى ويوضحه بالتضاد. العرب، العجم، طباق يبرز المعنى بالتضاد أيضا، والأمثلة كثيرة جدا بالنسبة لأسلوب الطباق في الرسالة، وكل هذه الأساليب تنتمي لعلم البلاغة بفروعها: علم البيان من تشبيه واستعارة وغيرها،

وعلم البديع من محسنات لفظية ومعنوية من طباق وجناس وغيرهما، وعلم المعاني من تراكيب وأساليب منها أسلوبي الخبر والإنشاء، الذي بدأ به الرسالة، حفظكم الله: أسلوب خبري لفظا إنشائي معنى غرضه: الدعاء، يا أهل صناعة الكتابة: أسلوب إنشائي، غرضه النداء، والرسالة كلها تتفاوت بين أسلوب خبري وإنشائي حسب ما رآه الكاتب يُناسب المعنى. هذا بالنسبة لرأي الشكعه، ننتقل لرأي طه حسين، الذي ذكره الزنكي، وأثارت معرفة عبد الحميد لليونانية اهتمام الدكتور طه حسين فجعلها محور بحثه في سمات النثر في أواخر العهد الأموي واعتمد في ذلك على قراءة بعض الرسائل، فوجد تأثره برسائل الحرب عند اليونان من حيث المبنى، والمعنى في إسرافه في استعمال الحال وهو خصائص اللغة اليونانية[1]. أول ما نشير إليه، طه حسين لم يقصد برأيه بأنَّ أسلوبه متأثر باليونانية، عن رسائله الحربية، لا رسالته للكُتَّاب، ربما فعلا متأثر باليونانية في رسائله الأخرى؛ لكن رسالته للكُتَّاب بنية ومعنى، عربية الألفاظ والمعاني والأساليب وهذا الذي لاحظناه من خلال الأمثلة البلاغية، التي ذكرناه في الرسالة.

يقال: "وتجلت في القرن الثاني الطريقة الفارسية في العربية، ووضع عبد الحميد ين يحي أساس هذا الأسلوب المطول، وكان يحسن الفارسية، وهو أوَّل من أطال الرسائل، ولم يعهد تطويل مثل تطويله في أهل القرن الأول"[2]. نعود كذلك لرأي الشكعه، الذي ركز على جانب النثر في تاريخ الأدب العربي، فصرَّح برأيه في كتابه مناهج التأليف عند العلماء العرب، أنَّ ثقافته عربية قائلا: "فالكتابة معينها غربي وسبيلها غربي حتى لو جرى بها قلم من لم يكن عربي لأرومة مثل عبد الحميد على

[1] ينظر: حمادي الزنكي، عبد الحميد الكاتب آثاره و حياته، ص19/18.

[2] محمد كرد علي، أمراء البيان، مكتبة الثقافة الدينية، ط01، 2012م، 19/1.

أنَّه إذا لم يكن عربي لأرومة فقد كان عربي الثقافة واللسان والمعرفة والمشاعر"[1]، فعلا فهو فارسي الأصل، لا أحد ينكر هذا، فنسبه فارسي؛ لكن ثقافته ومعرفته عربية الأصل.

وحسب رأيه، أيضا فالذين يردون كل شيء عربي إلى أصل فارسي، لأنهم يعانون من عقدة الفارسية، وعقدة اليونانية، فلو ربطوا بين النِتاج العربي الإسلامي بعضه مع البعض الآخر، وبين كلام عبد الحميد وأسلوبه المشرق العذب، وبين كلام من سبقوه من بلغاء العرب من خطباء من أمثال الحسن البصري وغيلان الدمشقي ويحي بن يعمر؛ فسيجدون فعلا أن الفيض الحضاري الإسلامي نشأ متواضعا ثم بدأ ينمو ويزدهر ويثمر[2]. فعلا، أتفق مع رأيه، المتتبع لتاريخ الرسالة يجدها بدأت بسيطة لا تتجاوز السطر، وبكلمات بليغة وموجزة، وهنا تكمن بلاغة العرب منذ أول عصورها، التي لا جدال فيها. ثم بدأت تنشأ مع الرسول صلى الله عليه وسلم، من رسائل دينية وسياسية، حتى أخذت شكلها النهائي مع العصر الأموي مع عبد الحميد الكاتب، فقد بدأت الرسالة معه تتحول من كونها رسائل تُكتب لغرض معين، لا تتجاوز بضع الأسطر، إلى فن يُكتب من طرف كُتَّاب توظفهم الدولة في دواوينها، لتصل إلى أن أصبح لها ديوان خاص بها، وورق خاص، وخط كذلك. وفعلا، تفنن العرب في صناعة هذه الرسائل، من العصر الأموي إلى العصور التي تلته.

كذلك، بعض الدراسات الحديثة بخصوص عبد الحميد الكاتب، أخذت نفس الاتجاه في أنَّ ثقافته عربية، هذا ذهب إليه إبراهيم عوض في مقال له، حيث صرَّح

[1] مصطفى الشكعه، مناهج التأليف عند العلماء العرب، دار العلم للملايين، بيروت، ط06، 1991م، ص72.
[2] ينظر: المرجع نفسه، ص75.

بأنَّه قد قيل إنَّ ثقافته فارسية يونانية؛ لكني أرى العكس، أنَّ ثقافته عربية إسلامية. ذلك أنَّ له رسالة وجهها إلى أمثاله من الكُتَّاب ينصحهم بالاستفادة من القرآن والحديث والأشعار العربية وأيام العرب، وهذه كلها ثقافة عربية إسلامية، وإن كان قد أضاف إلى ذلك العجم أيضا؛ إلاَّ أنَّها تأتي على هامش العناصر الأصيلة السابقة. كما عمل الرجل محفظاً للقرآن زمنا طويلا قبل أن يكون كاتبا، ولا ننس أنَّه كان كاتبا عند الأمويين، وكان وفيا لهم إلى آخر رمق في حياته، ومعروف أنَّ الأمويين ذو نزعة عربية لا أعجمية[1].

أرى أنَّ رأيه صحيح، فحسب دراستي للرسالة ومصطلحاتها، يتبين بالدرجة الأولى أنَّ ثقافته عربية وإسلامية خالصة. المصطلحات التي استعملها كلها عربية الأصل، باستثناء بعض المصطلحات الفارسية مثل مصطلحي الديوان السجل، بالنسبة لمصطلح الديوان فإنَّه لم يتفرد باستعماله؛ لأنَّ النظام الديوان في أصله فارسي حيث عُرب المصطلح، وكان أصله الفارسي ديوا. بالإضافة إلى ذلك استعمل مصطلحات إسلامية مثل الفرائض، الفقه، الفيء، الخراج وغيرها؛ كما أنَّ نصائحه للكتاب كانت أخلاقية بالدرجة الأولى، إذ بين لهم أساس المعاملة في خدمتهم من خلال تطبيق ما جاء في القرآن والسنة، وتقوية حججهم في الكتابة بأشعار العرب وتاريخهم وأيامهم. هذا كله يدل على أنَّ ثقافته عربية وإسلامية. ولم يأخذ من الثقافة الفارسية شيئا، صحيح أنَّ أصله فارسي، لكنه نشأ على ثقافة إسلامية عربية خالصة، تجلَّت في رسائله المتعددة، حيث كان يفتتحها بالبسملة والتحميدات، ويختمها بالدعاء.

[1] ينظر: إبراهيم عوض، عبد الحميد كاتب مروان بن محمد (تحطيم مقولات شائعة)، /تاريخ النشر: 8. 11. 2018، تاريخ الاطلاع: 25. 02. 2023، ساعة: 13: 39، https://pulpit.alwatanvoive.com.

وعليه، يتأكد لنا أنَّ ثقافته عربية إسلامية. أمَّا الذين ينسبون له الثقافة الفارسية واليونانية، فربما يعود ذلك إلى انحيازهم لفكرة أنَّ العرب لم يعرفوا النثر في العصر الجاهلي، وبالتالي استحال عليهم ـ في نظرهم ـ أن يمتلكوا هذه الثقافة. ووفق تفكيرهم، فإنَّ نظام الرسائل الديوانية مأخوذ من الفارسية. لكن كما لاحظنا، فقد ظهرت الرسالة السياسية مع الرسول صلى الله عليه وسلم وإن لم تكن بنفس المصطلح.

2. المرجعية الفكرية لعبد الحميد الكاتب في وضع المصطلحات الخاصة بالرسالة الديوانية:

وعليه، مما سبق يمكن تقسيم المصطلحات التي استعملها عبد الحميد الكاتب إلى فئتين: الاولى مصطلحات ذات مرجعية عربية أصلها عربي موجودة في المعاجم العربية، والثانية مصطلحات ذات مرجعية إسلامية مأخوذة من القرآن الكريم، سنوضحها في الجدول الآتي:

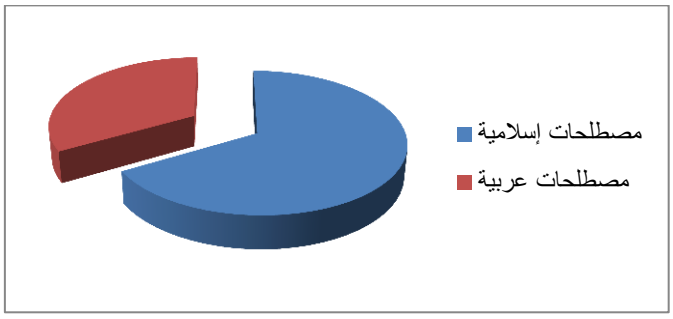
مصطلحات ذات مرجعية عربية	مصطلحات ذات مرجعية إسلامية
صناعة الكتابة	الرسالة
كتاب الخراج	الكتاب
الخط	الجواب
الابتداء	الكاتب
السياسة	الخلافة
الولاية	الملك
الخدم	الملك
	السلطان
	الحكم

	الوالي المجلس الخزان الحساب الخراج الفيء السجلات.

جدول رقم 06: يوضح المرجعيات الفكرية للمصطلحات المستعملة من قبل عبد الحميد الكاتب

قراءة تحليلية للجدول:

نلاحظ، من خلال الجدول كون المصطلحات ذات المرجعية الإسلامية تفوق في نسبتها المصطلحات ذات المرجعية العربية، مما يؤكد أنَّ عبد الحميد الكاتب استند في استعماله للمصطلحات إلى إسلامية عربية، سنوضح نسبة هذه المصطلحات من خلال الدائرة النسبية التالية:



شكل رقم 10: يوضح نسبة مرجعيات المصطلحات المستعملة من قبل عبد الحميد الكاتب بين العربية والإسلامية.

قراءة تحليلية للشكل:

وعليه، فإنَّ المصطلحات ذات المرجعية الإسلامية شكلت نسبة 66%، بينما المصطلحات ذات المرجعية العربية قد شكلت نسبة 33%، وهذا يؤكد أنَّ المصطلحات الخاصة بالرسالة الديوانية تعود بأصولها إلى الثقافة العربية والإسلامية، حيث استُمدت من المعاجم العربية ومن القرآن الكريم. هذا يدل على أصالة الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة التي تأثر بها عبد الحميد الكاتب، كما يتضح من أسلوبه البليغ والفصيح وتوصياته المستمرة بتعلم اللغة العربية. إضافة إلى ذلك، فإنَّ مرجعية المصطلحات التي استعملها تُبرهن على التزامه بهذه الثقافة.

الفصل الرابع:

التطور المصطلحي في الرسالة العذراء لابن المدبر خلال العصر العباسي

المبحث الأول: حقل مصطلحات رسوم صنعة الرسالة.

المبحث الثاني: حقل مصطلحات أنواع الرسالة الديوانية.

المبحث الثالث: حقل مصطلحات صناع الرسائل الديوانية.

المبحث الرابع: حقل مصطلحات أدوات الكتابة الديوانية.

المبحث الخامس: المرجعية الفكرية لابن المدبر في وضع مصطلحات خاصة بالرسائل الديوانية.

الفصل الرابع: التطور المصطلحي في الرسالة العذراء لابن المدبر خلال العصر العباسي:

استمرت صناعة الرسائل حتى العصر العباسي؛ بل وتطورت مع تطور الدولة واتساع دواوينها وظهور دواوين جديدة لم تكن موجودة في العصر الأموي، واتساع نفوذ خلفاء العصر العباسي. وبالطبع، مع اتساع دواوين الدولة كثرت رسائلها الديوانية وتنوعت، من حيث أساليبها تُشبه إلى حد ما الرسائل في العصر الأموي من حيث طريقة ابتدائها ومواضيعها وطريقة اختتامها، وصلنا العديد من هذا النوع من الرسائل المنتمي إلى العصر وتنوعت طرق الكتابة الديوانية ومواضيعها وتعدد كتابها.

أشهرها الرسالة التي صدرت من الكاتب ابن المدبر الذي كان يكتب لصالح الخليفة العباسي المتوكل بالله، فكتب رسالة مطولة أجاب فيها عن كل ما يخص الكتابة وخاصة كتابة الرسائل الديوانية، وما يلزم الكاتب من أدوات وآلات للكتابة، ولم يغفل عن صفات الكاتب ونصائح لهم، فالقارئ لها يُلاحظ الفرق بينها وبين رسالة عبد الحميد الكاتب الذي سبقه، فإن كان عبد الحميد ركز بصفة خاصة على كاتب الرسالة الديوانية وصفاتهم الأخلاقية والمعرفية كما رأينا؛ فابن المدبر ركز على كل الجوانب الخاصة بكتابة الرسائل الديوانية من عناصر بنيتها، وأساليبها، ومواضيعها وغير ذلك من العناصر التي سنوضحها خلال هذا الفصل، فقسمنا دراسة الرسالة أيضا بعد قراءتها إلى حقول مصطلحية تضم كل المصطلحات الخاصة بالرسالة الديوانية، معتمدين في دراسة مرجعية هذه المصطلحات على معجم لسان العرب(ت711هـ)، ومعجم القاموس المحيط(ت817هـ)، لكونهما عاشا خلال فترة الحكم العباسي، وعلى الآيات القرآنية، ونصوص من الرسائل الديوانية من العصر العباسي من كتاب جمهرة

رسائل العرب، وبعد ذلك درسنا مرجعيات ابن المدبر في اختيار المصطلحات ومرجعياته الثقافية في كتابة هذه الرسالة. نبدأ مع حقل ارتأينا تسميته بحقل مصطلحات صنعة الرسالة وسنوضح السبب وراء تسميته هكذا.

المبحث الأول: حقل مصطلحات رسوم صنعة الرسالة:

بالنسبة لهذا الحقل، يضُّم مفهوم مصطلح صناعة الرسالة، ورسوم هذه الصنعة:

1. مصطلح صنعة الرسالة:

كما رأينا مع عبد الحميد الكاتب، استعمل مصطلح صناعة الكتابة؛ لكن ابن المدبر استعمل مصطلح صنعة الرسالة فقال: " وإن حاولت صنعة رسالة أو إنشاء كتاب فزن اللفظة قبل أن تخرجها بميزان التصريف"[1]. فعبد الحميد لم يستعمل مصطلح الرسالة مطلقًا في رسالته للكتاب بل استعمل كما وضحنا، مصطلح الكتاب المرادف لمعنى الرسالة في زمانهم؛ أما ابن المدبر فاستعمل كلاهما الرسالة والكتاب. (لم نعرف الصناعة والرسالة لأنه تم تعريفهما في الفصل السابق). فحدد من خلال هذا المصطلح ما الذي تناسب مع هذه الصنعة فقال: "واعلم أنَّه لا يجوز في الرسائل ما أتى في القرآن من الايصال والحذف ومخاطبة الخاص بالعام والعام بالخاص لأنَّ الله سبحانه وتعالى إنَّما خاطب بالقرآن أقواما فصحاء فهموا عنه جلَّ ثناؤه أمره ونهيه ومراده والرسائل إنَّما يُخاطب بهم قوم دخلاء على اللغة لا علم لهم بلسان العرب"[2]. بقوله هذا وضَّح أنَّه يجب على الكاتب أن لا يكتب بفصاحة في رسائله ويراعي حال المكتوب لهم من العجم ويكتب لهم بطريقة موجزة بعيدة عن المبالغة والتكلف. ثم استمر بقوله: "

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص182.

[2] المرجع نفسه، ص181.

لا يجوز في الرسائل ما يجوز في الشعر لأنَّ الشعر موضع اضطرار فاغتفروا فيه الإعراب وسوء النظم والتقديم والتأخير والاضمار في موضع الاظهار، ينبغي في الرسائل أن لا يصغر الاسم موضع التعظيم وإن كان ذلك جائزا على مثل قولهم ذو بهية وجذيل وعزيق، مما لا يجوز في الرسائل كلمت إيَّاك وعنى إيَّاك"[1]. يصرح بقوله هذا كون الرسالة تختلف على الشعر وهذا أمر بديهي، فالشعر لديه قواعده والرسالة كذلك، علاوة أنَّ الرسالة من أنواع النثر والنثر نوع مستقل بأنواعه وخصائصه عن الشعر.

يشير مصطلح صناعة الرسالة إلى مهنة إنتاج وتنسيق الرسائل الديوانية في العصر العباسي، التي تعد وسيلة تواصل رسمية بين الحكام والمسؤولين، وقد حرص الكُتَّاب الذين اشتهروا بكتابتها سواءً في العصر الأموي والعباسي على تحديد خطوات رئيسة يجب على كل كاتب لهذه الرسائل أن يتعلمها ويتقنها، منها: تحديد طريقة الكتابة ونوع الخط المستخدم، مثل الخط الكوفي والنسخ وغيرها من الأنماط. تحديد طريقة التوقيع وتوضيح مصدر جهة الرسالة عادة ما تكون في الجزء الافتتاحي للرسالة. فهذه الصناعة كانت تعتمد على مهارات كتابية سواءً من الناحية الجمالية من ناحية الخط أو من ناحية المضمون حيث يركز الكاتب على اختيار المصطلحات والعبارات المناسبة للمقام الذي يكتب له، لذلك عُرفت بصناعة الرسالة لأنها كانت مهنة في ذلك العصر وبفضلها يرتقي الكاتب حتى لدرجة وزير ويتمتع بمكانة مهمة في جهاز الدولة. وعليه، نفسر سبب اختيار المدبر لمصطلح صنعة الرسالة لكونها صناعة يصنعها كاتب مختص وفق شروط معينة.

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص181.

2. مصطلح رسوم صنعة الرسالة:

وأطلق على عناصر صناعة الرسالة مصطلح الرسوم، فقال ابن المدبر: " فامتثل هذه الرسوم والمذاهب واجر على آدابهم فلكل رسوم امتثلوها وتحفظ في صدور كتبك وفصولها وافتتاحها وخاتمتها"[1]. والرسم عرَّفه ابن منظور بقوله: " رسمت له كذا فارتسمه إذا امتثله"[2].

حدد هذه **الرسوم** فيما يأتي:

2.1 مصطلح الافتتاح:

اصطلح ابن المدبر على مقدمة الرسالة بمصطلح الافتتاح الذي يعرف في اللغة" الاستنصار والافتتاح وفاتحة الشيء أوله"[3]. وعادة اتفقت أغلبية الرسائل السياسية على عبارات معينة، تفتح بها الرسالة. لم تزل الكتب تستفتح: باسمك اللهم، حتى أنزلت سورة هود وفيها: " بسم الله مجراها ومرساها"، فكُتب بسم الله؛ ثم أصبحت تُكتب بسم الله الرحمن الرحيم، لما نزلت سورة النمل: " إنَّه من سليمان وإنَّه بسم الله الرحمن الرحيم"، فاستفتح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصارت سنة[4]. كذلك، استفتح ابن المدبر رسالته بالبسملة، والدعاء فكانت بهذا الشكل: " بسم الله الرحمن الرحيم، فتق الله بالحكمة ذهنك، وشرح بها صدرك، وأنطق بالحق لسانك، وشرُف به بيانك[5]. فنلاحظ كيف دعا لمن يكتب له بأن يرزقه الله الحكمة والبيان، فلم يدع له

---

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص 181.

[2] ابن منظور، لسان العرب، 242/12.

[3] الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص233.

[4] ينظر: ابن ربه، العقد الفريد، 240/4.

[5] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص176.

مثلا بطول العمر والبقاء وغير ذلك من أساليب الدعاء المعروفة في الرسائل، فابن المدبر اختار صيغة هذا الدعاء نظرا للموضوع الذي يكتب فيه ولمن يكتب له لأنَّه سأله عن أساليب البلاغة والكتابة وأدواتها وقد ذكر هذا بعد الدعاء له في قوله: "وصل إلي كتابك العجيب الذي استفهمتني فيه بجوامع كلمك جوامع أسباب البلاغة، واستكشفتني عن غوامض آداب أدوات الكتابة، سألتني أن أقف بك على وزن عذوبة اللفظ وحلاوته، وجدود فخامة المعنى وجزالته، ورشاقة نظم الكتاب ومشاكلة سرده، وحسن افتتاحه وختمه، وانتهاء فصوله واعتدال وصوله، وسلامتها من الزلل، وبعدها من الخطل، ومتى يكون الكاتب مستحقا اسم الكتابة، والبليغ مسلما له معاني البلاغة، في إشاراته، واستعارته، وإلى أي أدوات هو أحوج، وبأي آلاته هو أعمل"[1]. عرض له الأسئلة التي طرحها عليه في الكتاب الذي وصله منه، فبهذا يستطيع القارئ أن يطلع على موضوع الكتاب الآخر حتى دون رؤية النص الأصلي للرسالة، فصرَّح في مقدمة رسالته ما الذي سيتناوله في موضوع رسالته عن بلاغة الكتابة وأدواتها، ونظم الرسائل وما يحتاج إليه الكاتب.

ما نشير إليه، بالنسبة لافتتاح الرسائل، ظلت البسملة حتى في رسائل الخلفاء العباسيين، مثل الكتاب الذي وجهه كل من أبي عبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد إلى أخيهما الخليفة أمير المؤمنين المنتصر يخلعان فيه نفسيهما من ولاية العهد التي جعلها لهما من بعده أبوهما المتوكل: " بسم الله الرحمن الرحيم إنَّ أمير المؤمنين المتوكل

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص176.

على الله رضي الله عنه قلَّدني هذا الأمر وبايع لي وأنا صغير من غير إرادتي ومحبتي... "[1].

حدد ابن المدبر، العبارات التي تُفتتح بها الرسالة في قوله: "أمَّا في صدور السلف، فإنما كانت من فلان بن فلان إلى فلان كذلك جرت كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العلاء بن الحضرمى وإلى أقيال اليمن وإلى كسرى وقيصر وكتب أصحابه والتابعين كذلك حتى استخلص الكُتَّاب هذه المحدثات من بدائع الصدور"[2]. اعتمد في تحديد هذه العبارات على رسائل من سبقوا العصر العباسي من رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم، ورسائل الخلفاء الراشدين، ورسائل الخلفاء الأمويين، فكانوا مرجعا لمن بعدهم اقتدوا بهم في كتابة هذا النوع من الرسائل. مثل الرسالة التي كتبها المنتصر إلى عماله يخلع أخويه المعتز والمؤيد من ولاية العهد، وهي موجهة لأبي العباس محمد بن عبد الله بن طاهر مولى أمير المؤمنين، وذلك في صفر سنة 248هـ، حيث قال في بداية الرسالة: " من عبد الله محمد الإمام المنتصر بالله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله أمير المؤمنين..."[3]. لكن؛ بالنسبة لابن المدبر فاكتفى كما رأينا بالبسملة والدعاء، فلم يكتب من ابن المدبر إلى فلان. أضاف المدبر: "وليكن في صدر كتابك دليل واضح على مرادك وافتتاح كلامك برهان شاهد على مقصدك ولا تطيلن صدر كلامك إطالة تخرجه عن حده ولا تقصر به عن حقه"[4]. مثلما، رأينا في

[1] ينظر: محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة، مؤسسة الرسالة، ط02، 1985م، ص88.

[2] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص181.

[3] ينظر: محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والادارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة، ص88.

[4] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص181.

فاتحة رسالته كيف أنَّه وضح فيها المراد منها، دون إطناب ودون تقصير حسب ما يتطلبه الموضوع.

كذلك، رسالة المهتدي إلى العامة وأنصاره الذين تجمَّعوا لنصرته: "بسم الله الرحمن الرحيم والحمدلله وصلى الله على محمد النبي وعلى آله وسلَّم تسليما كثيرا أرشدنا الله وإيَّاكم، وكان لنا ولكم وليا وحافظا لفهمت كتابكم وسري ما ذكرتم من طاعتكم وما أنتم عليه فأحسن الله جزاءكم وتولَّى حياطتكم"[1].

وعليه، **الافتتاح** في الرسالة الديوانية هو الجزء الاول من الرسالة، فيعد جزءً مهما إذ يقدم الغرض منها ويبدأ بعبارات محددة كالبسملة او تحية المتلقي بالشكل المناسب له أي حسب مقامه، والدعاء له أيضا حسب مقامه والموضوع المتوخَّى من الرسالة، وقد يتضمن الافتتاح بعد البسملة والدعاء اسم كلا من المرسل والمرسل إليه، ويبقى لكل كاتب طريقته التي يختارها في افتتاح رسالته؛ إلاَّ أنها لا تتجاوز هذه العناصر.

2.2 مصطلح الفصول:

بالنسبة لهذا المصطلح لم أجد تعريفه بتعريف خاص؛ لكنه من الفصل كما قال ابن منظور: "الفصل الحاجز بين الشيئين، فصل بينهما يفصل فصلا فانفصل، وفصلت الشيء فانفصل أي قطعته فانقطع"[2]. فنفسر سبب تسميته لمتن الرسالة أو موضوعها بالفصول لكونها تفصل بين الافتتاح والاختتام. والفصول طبعا ربما تحمل موضوعا واحدا او عدة مواضيع حسب الموضوع العام للرسالة، فمثلا في رسالة ابن

[1] محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والادارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة، ص107.

[2] ابن منظور، لسان العرب، 521/11.

المدبر، عالج في فصول رسالته العديد من المواضيع التي لها علاقة بكتابة الرسائل وأدواتها وكاتبها على شكل فقرات متتالية، كل فقرة شكلت فصلا للرسالة.

2.3 مصطلح الاختتام:

وقد تختم به ومن كل شيء: عاقبته، وآخرته، كخاتمته[1]. حدد ابن المدبر، عباراتً للاختتام، تتناسب والمقام الذي كُتبت فيه الرسالة، فقال: "وليكن ما تُختم به فصولك في موضع ذكر الشكوى بمثل والله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل. وفي موضع ذكر البلوى نسأل الله دفع المحذور ونسأل الله صرف السوء وفي موضع ذكر المصيبة بمثل إنا لله وإنا إليه راجعون. وفي ذكر النعم بمثل الحمدلله خالصا والشكر لله واجبا"[2].

فعلا، هكذا خُتم نص بيعة المعتز بالخلافة، لما ثار الأتراك بالمستعين فهرب منهم إلى بغداد، ودعوه للعودة إلى سامراء فرفض فاعلنوا خلعه وبايعوا المعتز بالخلافة، فختم نص الرسالة بعبارة: " ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل"[3]، لأنَّه في حال شكوى، كما ذكر ابن المدبر.

في رسالة الخليفة إلى ولي العهد لعبد الله بن علي، ختمها بالحمدله: "أمير المؤمنين يحمد الله على قديم نعمه عنده وحديثها، وباطنها و ظاهرها، ويسأله إعانته على التأدية لشكره بها"[4]. لأنَّه في حال الشكر والحمد.

---

[1] الفيروزآبادي، القاموس المحيط: ص 1099.

[2] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص181.

[3] ينظر: محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والادارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة، ص 104/101.

[4] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 15/3.

بالنسبة لرسالة ابن المدبر ختمها كذلك على نهج السلف كما قال: " الحمدلله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى صحبه وسلم" [1].

وخلاصة القول، يشير مصطلح الاختتام في الرسالة الديوانية إلى الجزء النهائي من الرسالة، فيختم الكاتب ختاما رسميا للتعبير عن الاحترام للمرسل، فيتضمن أحيانا تعبيرا عن الشكر والامتنان أو تحيات الود والتحية النهائية.

2.4 مصطلح التاريخ:

ذكر مصطلح التاريخ : "قال أتربوا كتبكم فإنَّه أنجح للحاجة ولا تدع التاريخ فإنَّه يدُّل على تحقيق الأخبار وقربها وبعدها وانظر إلى ما مضى من الشَّهر وما بقي منه فإن كان الماضي أقَّل من نصف الشَّهر قلت لكذا ليلة مضت من شهر كذا وإذا كان الباقي أقل من النصف قلت لكذا أيضا بقيت وقد قال بعض الكُتَّاب أنَّ الماضي من الشهر أن تحصيه والباقي لا تحصيه لأنَّك لا تدري أيتم الشهر أو ينقص وليس من الأحكام في شيء وما على الكاتب أن يكتب إلاَّ بما ظهر و ليس بما يظن"[2]. (أسند هذا القول إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، لكن لم نجده في الأحاديث النبوية)

أغلبية الرسائل لم تحتو تاريخًا في خاتمتها، لكن يوجد البعض من رسائل العصر العباسي من ذكر التاريخ في نهاية رسالته، نذكر من بينها رسالة خلع المعتز من الخلافة، فوَّقع عليه: " أقرَّ أبو عبد الله بجميع ما في هذا الكتاب وكتب بخطه وكتب الشهود شهاداتهم: شهد الحسن بن محمد ومحمد بن يحي وأحمد بن جناب ويحي بن زكريا بن أبي يعقوب الأصفهاني وعبد الله ابن محمد العامري وأحمد بن

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص191.

[2] المرجع نفسه، ص184.

الفضل بن يحي وحماد بن اسحاق وعبد الله بن محمد وإبراهيم ابن محمد وذلك يوم الاثنين لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين"[1]؛ لكن ابن المدبر لم يكتب التاريخ في نهاية رسالته.

وعليه، التاريخ كان عنصرا مهما في الرسائل في العصر العباسي، كان يستخدم لتحديد إرسال الرسالة وتاريخ إستلامها وغالبا ما يتم وضعه في نهاية الرسالة، حيث يتم تدوين التاريخ باليوم والشهر والسنة، وبفضل التواريخ تمكن الدارسين لهذا النوع من الرسائل من تتبع الأحداث والاتصالات وفهم السياق التاريخي والسياسي لتلك الفترة الزمنية.

2.5 مصطلح الختم:

قال ابن المدبر عنه: "وأمَّا قراءة الكتب المختومة والتلَّطف لنقص خواتيمها عما لا نذكره خوفا من سفيه وأمَّا تضمين الأسرار حتى لا يقرأها غير المكتوب إليه ففيه أدب وقد تعلقت العامة بالقمى والاصبهاني فيجب أن يبدل الحروف تبديلا يخفى وألطف من ذلك أن تأخذ لبنا طيبا فتكتب به في قِرطاس فيذر المكتوب إليه عليه رمادا من رماد القراطيس فإنَّه يظهر وإن كتب بماء الزاج فذرَّ عليه العفص المدقوق بجاز أو بماء العفص وذُرَّ عليه شيئا من الزاج أو ينقع شيئا من وشق ثم تكتب به ثم نثرت عليه الرماد فإنَّه يظهر وإن أحببته لا يُقرأ بالنهار ويُقرأ بالليل فاكتبه بمرارة السلحفاة"[2]. فنفهم من طريقته هذه في صنع الخواتيم أنَّ الرسالة عندهم كانت صناعة، والمهارة التي تمتعوا بها في هذا المجال بوسائل طبيعية بسيطة ابتكروها مما يدل على وعيهم،

[1] محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية العائدة للعصور العباسية المتتابعة، ص107.

[2] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص184.

فابتدعوا طريقة يجعلون بها الختم مخفيا ويظهر إلا بعد ذر بعض المواد التي ذكرها عليه، نظرا لسرية المعلومات التي تحملها الرسالة ففكروا في طريقة يحافظون عليها على سرية الخبر الذي تحمله الرسالة فلا يستطيع قراءتها إلاَّ المكتوب إليه. والختم في اللغة والطابع كما قال عن الفيروزآبادي: " ختم يختم ختما وختاما، طبعه. الطين يختم به على الشيء"[1]. ولا زال يستعمل المصطلح حتى وقتنا الحالي بنفس الصيغة والأسلوب فيقال الختم الرئاسي، يختم به الرئيس في كل رسالة رسمية.

بعد تحديده لمصطلحات بنية الرسالة من افتتاح، فصول، اختتام، تاريخ، وختم. تطرَّق للطرف المستقبل للرسالة، أطلق عليه مصطلح المكتوب إليه.

2.6 مصطلح المكتوب إليه:

فنلاحظ أنَّه صاغ المصطلح من خلال اشتقاقه من مصطلح الكتابة، فالرسالة تسمى بالكتاب، ومن يكتبها كاتبها، ومن يستقبلها مكتوب إليه.

المكتوب إليه: استعمل هذا المصطلح في قوله: "وإنَّ إلباسك المعنى وإن شرف وصلح لفظا مختلفا عن قدر المكتوب إليه لم تجر به عادتهم تهجين للمعنى وإخلال بقدره وظلم لحق المكتوب إليه"[2]. فينبغي للكاتب أن يراعي الألفاظ ومعانيها حسب مكانة المكتوب إليه حتى لا يُخل بقدره وينقص منه. ثم، حدد الأدعية المناسبة لكل مكتوب إليه حسب قدره ومكانته. فقال: "لكل مكتوب إليه قدر ووزن ينبغي للكاتب أن لا

[1] ينظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص1099

[2] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص178.

يتجاوز به عنه ولا يقصر به دونه"[1]. فمثلا هو في رسالته الدعاء بهذه الصيغة: "أيدك الله"، في قوله: " اعلم أيدك الله"[2]. فاستعمل صيغة دعاء تتناسب مع المكتوب إليه.

بذلك حدَّد ابن المدبر ألفاظا تتناسب ودرجة المكتوب إليه أو متلقي الرسالة، على النحو التالي:

عندما يكون المكتوب إليه ملكا: يستعمل الكاتب عبارة أبقاك الله طويلا وعمرك مليا وإن كنا نعلم أنَّه لا فرقان بين قولهم أطال الله بقاءك وبين قولهم أبقاك الله طويلا ولكنَّهم جعلوا هذا أرجح وزنا وأنبه قدرا في مخاطبة الملوك والسادات[3].

الملوك(سبق تعريفهم)، أمَّا السادات في اللغة: "تقول العرب فلان سيدنا أي رئيسنا والذي تعظمه؛ وساد يسودهم سيادة وسُوددا وسيدودة، فهو سيد وهم سادة"[4]. وقد أطلق كلقب على الاجِلاَّء من الرجال. واصطلح على إطلاقه على أبناء علي بن أبي طالب ولم يقتصر السيد على المنتسبين إلى النبي صلى الله عليه وسلم، بل أُطلق أيضا على بعض الوُلاَّة و الوزراء: فأطلق على السامانية وأمراء بخارى وخوفند وخيوة. من أمثلة ذلك إطلاقه على الأمير نصر ابن أحمد في سكة بتاريخ سنة315ه من فرغانة[5].

وعليه، يمكن تعريف مصطلح السادات أنهم النخبة المرموقة وأصحاب النفوذ في المجتمع التي حظيت بالامتيازات من قبل الخلافة العباسية، حيث تميزوا بمكانة

[1] المرجع السابق، ص180.

[2] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص176.

[3] ينظر: المرجع نفسه، ص179.

[4] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 230/3.

[5] ينظر: حسن باشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص346.

مرموقة في الدولة. وكانوا يترأسون مناصب مهمة في الحكومة مثل الوزراء، حظوا بصلاحيات واسعة في اتخاذ القرارات المتعلقة بشؤون الدولة.

مثلما كتب بعض الهاشميين إلى المهدي(ت 169هـ) وهو ولي عهد يشكر له: "نسأل الله الذي بلغ الأمير في نفسه وعلى ألسن الناس ما بلَّغ، أن يتممه له بأحسن ما تمَّمه لأحد قط في طول البقاء لأمير المؤمنين، أطال بقاءه وأتَّم النعمة عليه فيه"[1].

عندما يكون **المكتوب إليه من الظرفاء والأدباء:** "جعلوا أكرمك الله وأبقاك حسن منزلة في كتب الظرفاء والأدباء من جعلت فداك على اشتراك معناه واحتماله أن يكون فداء من الخير كما يكون فداءً له من الشر ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسعد بن أبي وقَّاص: فداك أبي وأمي لكرهت أن يكتب بها أحد على أنَّ كتاب العسكر وعوامهم قد أولعوا بهذه اللفظة حتى استعملوها في جميع محاوراتهم"[2].

أطلقوا عليهم مصطلحي **الظرفاء والأدباء** نسبة للظرف والأدب، فالظرف في اللغة: " الظَّرف إنَّما هو في اللسان، أو هو حسن الوجه والهيئة، أو يكون في الوجه واللسان"[3]، لذلك سماهم الظرفاء لظرافتهم في الكلام والمظهر؛ والأدب في اللغة كذلك: " حسن التناول، أدب كحسن أدبا فهو أديب، ج: أدباء"[4]، واصطلح عليهم بالأدباء لحسن أدبهم وتصرفاتهم، فوصفهم بأنهم "أهل القدر والجلالة والظرف والحلاوة والعلم

[1] ينظر: محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية العائدة للعصور العباسية المتتابعة، ص145/146.

[2] ينظر: محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص179.

[3] الفيروزآبادي، قاموس المحيط، ص834.

[4] المرجع نفسه، ص58.

والأدب فإنَّهم يضطرونك بحدة أذهانهم وشدة تميزهم وانتقائهم إلى الاستقصاء على نفسك في مكاتبتهم"[1].

ظهر مصطلح الظرف في العصر العباسي باعتباره نوعا من آداب السلوك واللَّيقان، فقد نشر الجواري نوعا من الثقافة، وهو الفنون الجميلة، وما يتبعها من رقي في الذوق الفني، فكانوا يميلون إلى الغناء والرَّقص. وإلى التفنن في الملبس، فأخذوا يعلمون الجواري هذه الفنون، وسرعان ما تحوَّل النبوغ فيها من الرجال. من انواع الظرافة التي نشرنها: حب الأزهار وتعشقها، كتابة الأشعار الرَّقيقة والجمل الظَّريفة، والتطريز على الأقمشة والأردية والاكمام وغيرها من الفنون. ونجح الجواري في إشعار الناس بالظَّرف، والتزام حدوده، حتى أصبح للظرفاء عرف خاص في الزي والنظر، والطعام، والشراب، وما إلى ذلك[2].

وعليه، فمصطلح الظرفاء في العصر العباسي يشير إلى النخبة المثقفة والثرية، فكانوا يتمتعون بنفوذ سياسي واقتصادي واجتماعي، فامتازوا بحضورهم القوي في الثقافة والأدب والعلوم، وعُرفوا كذلك بدعمهم للشعراء والعلماء والفنون. بالتالي فالتغيرات الاجتماعية والثقافية التي ظهرت في العصر العباسي أنتجت مصطلح جديد في المجتمع، لهذا يُقال عن المصطلحات أنَّها وليدة المجتمع.

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص178.

[2] ينظر: محمد بن إسحاق بن يحي الوشاء، الموشى أو الظرف والظرفاء، تح: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، ط02، 1953م، ص08-10.

عندما يكون المكتوب إليه عالما: قال عنهم ابن المدبر: " العلماء الذين يجب توقيرهم في الكتب لشرف العلم وعلو درجة أهله"[1]. جاء في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾**(سورة فاطر الآية 28)**، " من صفات الله عز وجل العليم والعالم والعلاَّم؛ قال الله عز وجل: وهو الخلاَّق العليم، قال عالم الغيب والشهادة، وقال علاَّم الغيوب، وهو الله العالم بما كان ويكون قبل كونه"[2]، وسُمِيَ لذلك العالم الذي لديه المعرفة بعلم ما بالعالم.

من ألقاب العلماء، إلاَّ أنَّه كان في الحقيقة من الألقاب المشتركة في الاصطلاح بين رجال الحرب والإدارة. وكان من الألقاب التي يعتز بها الملوك وقد وردت في النقوش ضمن ألقاب هذه الطوائف المختلفة: فأطلقت مثلا على معز الدولة أرسلان تكيف أبي الفضل العباسي في نص بتاريخ سنة 433هـ في الطريق بين أسفره وبين وره[3]. في العصر العباسي كان لمصطلح العالم، أهمية كبيرة، فيطلق على الشخص الذي يتمتع بالمعرفة والثقافة الواسعة في مختلف المجالات، مثل تبليغ العلم ونشر المعرفة، توجيه الناس في الشؤون الدينية والعلمية، لذلك تمتع بدعم الدولة العباسية، فيمنح له مكانة اجتماعية مرموقة ومكافآت مادية. لذلك أعلى ابن المدبر من شأنهم أثناء مراسلتهم.

ثم قال عن هذه الطبقات: "لكل طبقة من هذه الطبقات معان ومذاهب عليك أن تراعيها في مراسلتك إليهم في كتبك وتزن كلامك في مخاطبتهم بميزانه وتعطيه قسمه وتوفيه نصيبه فإنَّك متى أضعت ذلك لم آمن بك أن تعدل بهم غير طريقهم وتجري

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص178.

[2] ابن منظور، لسان العرب، 416/12.

[3] ينظر: حسن باشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص390.

شعاع بلاغتك في غير مجراه وتنظم جوهر كلامك في غير سلكه فلا يفيد المعنى الجزل ما لم تلمسه لفظا جزلا لائقا بمن كاتبته ومشابها لمن راسلته"[1].

وعليه، مصطلح المكتوب إليه في العصر العباسي يطلق على الشخص الذي تتجه إليه الرسالة وتكون موجهة له بشكل خاص، وقد يكون المكتوب إليه شخصا محددا مثل الملك أو الحاكم أو الأمير، أو قد يكون للعامة، هذا كله يعتمد على سياق الزمان والمكان والنوعية الاجتماعية والسياسية. وقد قسمه ابن المدبر إلى طبقات حسب العصر الذي عاش فيه.

ثم تطرَّق للحديث عن الخط وأهمية إتقانه في صناعة الرسائل، تماما كما رأينا مع عبد الحميد حينما وصى الكُتَّاب بإجادة الخط؛ لكن ابن المدبر فصَّل فيه كثيرا.

2.7 مصطلح الخط:

قال عنه ابن المدبر: "لسان اليد، وبهجة الضمير، ودليل الإدارة، والناطق عن الخواطر، وسفير العقول، ووحي الفكر، وسلاح المعرفة، ومحادثة الأخلاَّء على التنائي، وأنس الإخوان عند الفرقة، ومستودع الأسرار، وديوان الأمور، وترجمان القلوب، والمعبر عن النفوس، والمخبر عن الخواطر، ومورث الآخر مكارم الأوَّل، والناقل إليه مآثر الماضي، والمخلد له حكمته، وعلمه، والمسامر للعين يسر القلب، والمخاطب عن الناصت، والمجادل عن الساكت، والمفصح عن الأبكم، والمتكلم عن الأخرس، الذي تشهد له آثاره بفضائله وأخباره بمناقبه"[2]. نلاحظ كم امتدح الخط ووصفه بصفات عديدة، فيؤكد عن الأهمية الكبيرة التي حظي بها الخط في صناعة

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص178.

[2] المرجع نفسه، ص190.

الرسائل في العصر العباسي وهو من أهم الركائز الأساسية التي يجب على الكاتب أن يتقنها؛ إلا ستكون صناعته ناقصة. فالخط كما رأينا بدأ الاهتمام به منذ العصر الأموي؛ إلاَّ أنَّه زاد تطوره في أوائل الدَّولة العبَّاسية، فزادوا على الخطوط التي ابتدعها قطبة المحرر، وتفننوا في صناعة الأقلام منها: الجليل، السجلات، الديباج، الطومار الكبير، الثلثين، الزنبور، المفتح، الحرم، المؤامرات، العهود، القصص، الخرفاج وغيرها حتى انتهت جودة الخط وتحريره على رأس الثلاثمائة إلى الوزير أبي علي محمد بن مقلة وأخيه عبد الله وابن مقلة هو الذي هندس الحروف وقدَّ مقاييسها[1]. ففي أوائل الدولة العباسية اشتهر رجلان في جودة الخط هما الضَّحاك بن عجلان في خلافة السفَّاح فزاد على قطبة، فزادوا اثني عشر قلما لكل منها عمل خاص به، نذكر منها ما كان مختصا بالديوان، قلم الحرم: كان يكتب به الأميرات من بيت الملك، قلم المؤامرات: كان لاستشارة الأمراء ومناقشتهم، قلم العهود: لكتابة العهود والبيعات[2].

وأخذ يوسف أخو إبراهيم الشجري القلم الجليل عن إسحاق بن حمَّاد واخترع قلما أدَّق منه وكتبه كتابة حسنة فأعجب به ذو الرئاستين ووزير المأمون وأمر أن تحرر به الكتب السلطانية ولا تكتب بغيره وسمَّاه القلم الرئاسي ويظن أنَّه قلم التوقيعات[3].

ذكر ابن المدبر قولا عن الخط لعلي بن زيز النصراني الكاتب: "أعلمك الخط في كلمة واحدة لا تكتُبُنَّ حرفا حتى تستفرغ مجهودك في كتابة الحرف المبدوء به وتجعل في نفسك إنَّك لا تكتب غيره حتى لا تجعل عنه إلى غيره، وإيَّاك والنقط

[1] ينظر: سميعة عزيز محمود، الأصول التاريخية للخط العربي وتطوره في العصر العبَّاسي، ص14-15-16.

[2] ينظر: سهيلة ياسين الجبوري، الخط العربي وتطوره في العصور العبَّاسية في العراق، مطبعة الزهراء، بغداد، دط، 1962م، ص68.

[3] المرجع نفسه، ص69.

والشكل في كتابك إلاَّ أن تمر بالحرف المعضل الذي تعلم أنَّ المكتوب إليه يعجز عن استخراجه فلأن يشكل عليَّ الحرف أحَّب إلى من أن يعاب بالنقط والإعجام"[1].

فالخط اليدوي أصبح لديهم صناعة، كل حرف وطريقته في الكتابة والنقط والاشكال ولكل خط مميزاته وطريقته في الكتابة، فالكاتب قبل أن يدخل صناعة الرسائل عليه التمكن من صناعة الخط فهو وسيلته الأولى لإيصال أفكاره وحلية الرسالة وزينتها كما وصفه عبد الحميد الكاتب، والمخلد لأفكار الكاتب كما وصفه ابن المدبر.

خلاصة القول، الخط في العصر العباسي طور فيه فنانو الخط أنماطا عن الانماط التي ظهرت في العصر الأموي، فاحتضنت بغداد العديد من المراكز الخطية التي تعلمت فيها الخط بجميع أنماطه في ذلك العصر من الخط الكوفي، والثلث، والرقعة، والديواني وغير ذلك من الأنماط لكل منها ما يميزها. وقد ترك هذا التطور والتنوع الكبير في الخط العربي أثرا دئما على الفنون والثقافة الإسلامية في فترة ما بعد العصر العباسي.

المبحث الثاني: حقل مصطلحات أنواع الرسائل الديوانية:

يضم هذا الحقل مجموعة من أنواع الرسائل الديوانية التي ذكرها ابن المدبر، منها:

1. مصطلح العهود:

الوصية، والتقدم إلى المرء في الشيء، والمَوْثق، واليمين، وقد عاهده، والذي يكتب للوُلاة، من عهد إليه: أوصاه، والعَهْدة، بالضم: كتاب الحلف، وكتاب الشراء،

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص183.

كتب عليه عهدة، من يتعاهد الأمور والولايات[1]. وثيقة رسمية تعطى لتسليم منصب كبير في الدَّولة، أو لمزاولة عمل مهم فيها، وهو أشبه ما يكون بدستور مصَّغر أو منهج مرسوم يسلمه الموَّكل بإحدى الاعمال في تسيير عمله. قال هارون الرشيد:

قلد أمور عباد الله ذا ثقة مُوَّحدٍ لرأي لا يكس ولا برم

واترك مقالة أقوام ذوي خطل لا يفهمون إذا ما معشر فهموا[2]

عهد الخليفة المهدي لأحد ولاته:

هذه نسخة عهد كتب بها الخليفة عبد الله المهدي ومحمد أمير المؤمنين إلى أحد وُلاَّته حيث ولاَّه على أرمينيا وجميع أعمالها، وجاءت نسخته على النسق التالي:

هذا عهد به عبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين إلى فلان، بتقوى الله في سرائره وعلانيته، والاعتصام بالله والعمل بطاعته، والايثار لحقه على ما سواه، والمراقبة له والخشية منه...

وأمره أن يشعر قلبه مخافة الله وهيبته، وأن يعلم أنَّه لا حول ولا قوة في شيء إلاَّ بالله والعمل بطاعته، فإنَّ الله عزَّ وجل إذا علم بذلك صدق نيته وصحة يقينه، وأحسن عونه...

وأمره أن يعلم أنَّ الثَّغر الذي ولاَّه أمره، من أعظم الثغور عنده، وأهَّم أعماله إليه، لقربه من العدو، وإطلاله عليهم، وموقعه من المسلمين، وأنَّه لم يسنده إليه إلاَّ لحالة عنده...

[1] ينظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص303.

[2] محمد حرب، النثر العربي، كلية العلوم التربوية والآداب، الآرنو، دط، دت، ص84.

وأمره أن يصلي الصلوات لمراقبتها في مسجد الجماعة، ولا يتشاغل عنها بغيرها، فإنَّ الله جعلها عمود الدين...

وأمره أن يفتح بابه لأهل عُمَّاله، ويقل الاحتجاب عنهم، ويلين كنفه لهم، وينظر في أمورهم ومطالبهم، وينصف بعضهم من بعض، ولا يخاف شريفا لشرفه...

وأمره أن يحسن الولاية ورفق السياسة، وإظهار العدل والعمل بالحق، كف الظلم، وإبطال الجور...

هذا عهدي إليك، وأمري إيَّاك فيما وليتك، وأسندت إليك وقلدتك، فامتثله وأعمل به ولا تجاوزه، واستعن بالله فيما عليك، يعينك الله، الله أسأل أن يصلي على محمد عبده ورسوله، وأن يوفقك ويحسن كفايتك"[1].

ومجمل القول، مصطلح العهود في العصر العباسي يشير إلى العقود المبرمة بين الخلفاء والدول، وهي عبارة عن اتفاقيات متبادلة وقوانين يتم الاتفاق عليها بين الأطراف المعنية، وبالطبع تتنوع هذه العهود حسب السياق الذي كُتبت فيه فقد تكون عهودا سياسية، أو عسكرية، وكلها تسعى لتحقيق أغراض بين الأطراف المتعاهدة.

2. مصطلح الأمانات:

بالنسبة لتعريفها اللغوي، فكل من ابن منظور والفيروزآبادي، عرَّفا الأمان ضد الخيانة؛ لكن لم أجد تعريف الأمانات باعتبارها نوع من الرسائل الديوانية، فتعرف بكونها" من الكتب التي برع فيها العباسيون وتفننوا في صياغتها وضبطها، ونعني

[1] ينظر: أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 3/152-154.

بالأمان ما كان يصدر من الخلفاء في شأن أحد من رعيتها أو وزرائها عندما يخرجون عن الحدود"[1].

أمان أبو جعفر المنصور لابن هبيرة:

حصر أبو جعفر المنصور ابن هبيرة شهورا، ثم جرت السفراء بينهما بالصلح حتى جعل له أبو جعفر أمانا، وكتب له به كتابا مكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعين يوما عن رضيه، وأنفذه إلى أبي جعفر، فأنفذه أبو جعفر إلى أبي العباس، فأمر بامضائه وهو: " بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من عبد الله بن محمد بن علي أبي جعفر ولي أمر المسلمين، ليزيد بن هبيرة ومن معه من أهل الشام والعراق وغيرهم في مدينة واسط وأرضها من المسلمين والمعاهدين، ومن معهم من وزرائهم. إني أمنتكم بأمان الله الذي لا إله إلاَّ هو، الذي يعلم سرائر العباد، ويعلم ما تخفي الصدور، وإليه الامر كله، أمانا صادقا لايشوبه غش، ولا يخالطه باطل، على أنفسكم وذراريكم وأموالكم، وأعطيت يزيد ابن عمر بن هبيرة، ومن أمنته في أعلى كتابي هذا، الوفاء بما جعلت لهم من عهد الله و ميثاقه الذي واثق به الأمم الماضية من خلقه"[2]، فنلاحظ كيف أن الأمانات كذلك تحتوي على نفس الرسم التي تم ذكرها مع غياب التاريخ.

3. مصطلح التوقيعات:

قال ابن المدبر: "بضرورة الاطلاع على رسائل الفرس وتوقيعاتهم، لكون التوقيعات ضرب آخر من الأدب كان للفرس فيه أثر كبير، فكانت القصص ترفع إلى الملك، أو من يليه تبعا لموضوعها، وتبعا للمنظم وقدره، وقد جرت عادة الملوك والولاة

[1] أسماء عبد الرؤوف عطية الله، الرسائل في العصر العباسي أنواعها وخصائصها الفنية، ص72.

[2] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 4/3.

من الفرس أن يوقعوا هذه القصص بعبارة بليغة، أو حكمة، يتخير لها أحسن اللفظ، وأجود المعنى. من ذلك أنَّ رجلا رفع إلى كسرى بن قباذ رقعة يخبره فيها أنَّ جماعة من بطانته قد فسدت نياتهم، وخبثت ضمائرهم منهم فلان وفلان فوقَّع في أسفل كتابه، إنَّما أملك ظاهر الأجسام لا النيات، وأحكم بالعدل لا بالهوى، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر"[1]. فيُصرح بقوله هذا كون التوقيعات برع فيها الفرس أكثر من العرب، فأكد على الكاتب بضرورة الاطلاع عليها، مما يدل على اطلاعه على الثقافة الفارسية وإعجابه بها، فالتوقيعات في اللغة تعرف بأنها: " التوقيع ما يوَّقع في الكتاب"[2].

فالتوقيعات إذا، تعقيب موجز كان يكتبه الخلفاء على الرسائل الواردة إليهم، في عهد الخلفاء الراشدين عندما كان يرد إليهم رسائل من وُلاَّة البلدان، فيرد الخليفة بما يراه مناسبا وكانت توقيعات الخلفاء الراشدين تتصف بالبلاغة وإجازة التعبير ودقته. وفي العصر العبَّاسي الذين كانوا يقومون بها هم الخلفاء، وكبار رجال الدَّولة والوزراء والقادة وكُتَّاب الدَّواوين، كانوا يختارون آية كريمة أو حديثا شريفا أو مثلا مشهورا أو بيتا من الشعر[3]. ففن التوقيع إذا موجود منذ العصر الراشدي، وهذا الأمر لم يشر إليه ابن المدبر فبحصره على إلزامية الاطلاع على توقيعات الفرس كأنهم هم من ابتدعوها؛ في حين أنَّه عرفه العرب منذ عهد عمر بن الخطَّاب، ذلك ما وقَّعه عمر بن الخطَّاب إلى عمرو بن العاص: "كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك"[4]، فنلاحظ الدقة والايجاز مع بلاغة المعنى.

---

[1] ينظر: أحمد أمين، ضحى الإسلام، كلية الآداب للجامعة المصرية، ط01، 1933، 1/ 188.

[2] الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص773.

[3] ينظر: محمد حرب، النثر العربي، ص81.

[4] ينظر: ابن ربه، العقد الفريد، 287/4.

من أمثلة التوقيعات في العصر العباسي، ما وقَّعه جعفر بن يحي، رفع إليه رجل قصته يسأله الاستعانة به، وكان يعرفه ويخبره، فوقع:

قد رأيناك فما أعجبتنا وبلوناك فلم نرض الخبر[1].

وعليه، كانت التوقيعات في العصر العباسي تجسد دورا هاما في تأكيد الأمانات والوثائق الهامة والرسائل الديوانية والعهود وغيرها، تكتب عادة في نهاية الرسالة وتكون عبارة عن توقيع يدوي بالحبر أو بالختم الشمعي، وكان يعتبران من الأساليب الشائعة في ذلك العصر، كذلك أخذت هذه التوقيعات أشكالا متعددة على سبيل المثال، التوقيع ببيت شعري أو آية كريمة أو حديثا نبويا شريفا.

المبحث الثالث: حقل مصطلحات صُنَّاع الرسائل الديوانية:

أول ما أشير إليه، لم يستعمل ابن المدبر هذا المصطلح "صُنَّاع الرسائل"، فأخذته من مصطلحه صنعة الرسالة، وبالتالي ما دامت الرسالة صنعة فمن يكتبها يمكن أن نسميه صانعا، واستنتجت هذا الأمر من خلال تقسيمه للمجتمع في العصر العباسي لطبقات اجتماعية متفاوتة المكانة اجتماعيا وسياسيا، وتحديده للعبارات التي يجب على صانع الرسالة استخدامها طبقا لمكانة المكتوب إليه، فطبعا عندما يكتب الخليفة لخليفة مثله، ليس كما يكتب الخليفة لأحد عماله، أو رعيته، فلكل مقام مقال، كل هذا الأمر فصَّل فيه ابن المدبر. كذلك أنوه لأمر آخر من خلال اطلاعي على الرسائل الديوانية فصانع الرسالة ليس دوما الكاتب الخاص بكتابتها، ففي بعض المواضيع مثلا يكتب الخليفة بنفسه، أو الأمير، أو الوزير وحتى القاضي والتاجر وكلها

[1] ينظر: الجهيشاري، الوزراء والكتاب، 205.

مراسلات رسمية تُرفع للخليفة أو الملك المتولي لشؤون الدولة، وتارة يكون صانع الرسالة هو المكتوب عنه وتارة يكون المكتوب إليه وهكذا، سيتم توضيح هذا الكلام كلها بشكل أدق فيما سيأتي.

كما قلنا، قسم ابن المدبر المجتمع لطبقات من أعلى طبقة، لأدناها، تمثلت الطبقة الأولى في:

1. الطبقة العليا للخلافة:

التي أعلى الله شأنها عن مساواتها بأحد من أبناء الدنيا في التعظيم والتَّوقير والمخاطبة والترسل[1]:

اتخاذ العباسيين للألقاب الرسمية السلطانية الخاصة كان ظاهرة جديدة لم يسبقها إليهم الخلفاء الأمويين أو الراشدين، من الألقاب الرسمية العامة التي شاعت في الفترة العباسية المبكرة والخاصة بالخلفاء العباسيين مثل: أمير المؤمنين، خليفة الله، ملك[2].

1.1 مصطلح الخليفة:

السلطان الأعظم، ويؤنث، كالخليف. ج: خلائف وخلفاء، وخلفه خِلافة، كان خليفته وبقي بعده[3]. يقال خلفه في قومه خِلافة، وخلفته أيضا إذا جئت بعده[4]. كما جاء في قوله تعالى:

---

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص 178.

[2] ينظر: فاروق عمر، ألقاب الخلفاء العباسيين ودلالاتها الدينية السياسية، قسم التاريخ، ص377.

[3] الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص808.

[4] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 82/9.

﴿ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾(سورة الأعراف: الآية 142)، بمعنى كن خليفتي فيهم إلى أن أرجع[1].

استعمل اللفظ كلقب الحاكم الاعلى الذي أُسند إليه أمر الإشراف على الأمَّة الإسلامية بعد النبي(صلَّى الله عليه وسلم) وقد أُطلق لأوَّل مرة على أبي الصديق، وكان يحمل إذ ذاك معنى الخِلافة النبي(صلى الله عليه وسلم) على حكم المسلمين. وعلى الرغم من استمرار استعمال هذا اللقب فإنَّ مدلوله كان يختلف باختلاف الأسرات الحاكمة: ففي صدر الإسلام كان يقصد منه خلافة النبي(صلَّى الله عليه و سلم) بينما في الدَّولة العباسية عُني به خلافة الله. قد ظهر لقب الخليفة على النقود والنقوش كلقب عام على الخلفاء، ومن أقدم استعمالاته على الآثار وروده في نقش بتاريخ سنة101ه على الكعبة خاص بالوليد بن يزيد الأموي وعلى النقود وروده على سكة بتاريخ سنة161ه من أرمينيا باسم المهدي العباسي(سنة276)[2].

الرسائل التي كتبها الخلفاء العباسيون لا تعد ولا تحصى، نذكر مثالا منها، في سنة 235ه كتب المتوكل إلى عماله في الآفاق، بشأن النصارى وأهل الذمة: "بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد، فإن الله تبارك و تعالى بِعزَّته التي لا تحاوَل، وقدرته على مايريد... "[3]، ذكرنا فقط مثالا لكون الخلفاء في حد ذاتهم كانوا هم أيضا من صناع هذا الفن.

[1] الطبري، تفسير الطبري، 494/3.

[2] ينظر: حسن باشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص 260.

[3] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 139/4.

وعليه، يشير مصطلح الخليفة إلى الحاكم السياسي والديني الأعلى في الدولة الإسلامية. واستعمل المصطلح للإشارة إلى من خلف مكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته في قيادة الدولة الإسلامية، بمعنى أنَّ المصطلح ظهر منذ العصر الأموي، وبقي استخدامه حتى العصر العباسي.

2. الطبقة الثانية:

قال عنهم ابن المدبر: " الوزراء والكُتَّاب الذين يخاطبون الخلفاء بعقولهم وألسنتهم"[1].

1. 2 مصطلح الوزراء:

قال عنه ابن المنظور: " الوزير في اللغة اشتقاقه من الوَزَرْ والوِزْرْ، الحبل الذي يعتصم به لينجي من الهلاك، وكذلك وزير الخليفة معناه الذي يعتمد على رأيه في أموره ويلتجئ إليه"[2]، ولا يختلف عنه تعريف الفيروزآبادي في قوله: " حبأ الملك الذي يحمل ثقله، ويعينه برأيه، وقد استوزره فتوزر له ووزارة[3]. جاء في قوله تعالى: ﴿**وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي**﴾(**سورة طه: الآية 29**)، فسرها الطبري: " واجعل لي عونا من أهل بيتي هارون أخي"[4].

الوزارة أسمى الرتب السلطانية، وليست من محدثات الإسلام بل هي فارسية الأصل اتخذها المسلمون في عهد الدولة العباسية، أمَّا إذا أريد بالوزارة استعانة الخليفة بمن يشد أزره أو يعاونه في الحكم، فهي تتصل بصدر الاسلام، لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يشاور أصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصَّة، أمَّا في العصر

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص178.

[2] ابن منظور، لسان العرب، 283/5.

[3] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص492.

[4] الطبري، تفسير الطبري، 193/5.

الأموي عرفوا نظام الكتاب أو كتاب الخلفاء، ووظيفة **الكاتب هي الأصل الذي تطور فيما بعد إلى وظيفة الوزير**، فلَّما أفضت الخلافة إلى بني العباس، عظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعهد، وأوَّل وزراء بني العبَّاس أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال وزير أبي العبَّاس السَّفاح وهو أوَّل من سُمي وزيرا في الإسلام. والعباسيون أوَّلمن عوَّل على الوزراء، فسلموا إليهم أمور الدَّولة، وأكثرهم من الفرس وأشهر وزرائهم البرامكة[1]. لكن؛ المصطلح مستعمل منذ عصر بني أمية، ذكره عبد الملك بن مروان عندما كتب رسالة لأخيه عبد العزيز، قال له فيها: " المصطلح موجود منذ العصر الأموي، ذكره عبد الملك بن مروان لأخيه عبد العزيز قال له: "إني قد ولَّيت أخاك بشرا البصرة فأشخص معه موسى بن نصير وزيرا و مشيرا... "[2]. لهذا لا يمكن القول بأنَّه مصطلح محدث إلا في العصر العباسي.

كان الوزير قائما مقام الخليفة في كل الشؤون، فينظر في الشؤون الحربية، وفي الشؤون المالية، و**يكتب الرسائل إلى الجهات المختلفة**، وبوقع على ما يرفع إليه من أوراق. فكان لحسبان المال وزيرا، وللترسل وزيرًا، وللنظر في حوائج المتظلمين وزيرا، ثمَّ جمعوا بين السيف والقلم، فالوزير كان يجمع إلى الإدارة الحربية والمالية وخطة القلم ـ إنفاذ الرسائل إلى كل الجهات ـ فجعلوا من شروط الوزير أن يكون عالما، مطلعا، بليغا[3]. من الوزراء المعروفين في العصر العباسي، ابن الزيات وزير المعتصم بالله، من رسائله، ما كتبه إلى الحسن بن وهب:

قالوا: جَفَاك فلاه عهدٌ ولا خَبَرٌ ماذا تراه دهاه؟ قلت: أيلولُ

[1] ينظر: جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، مؤسسة الهنداوي للتعليم و الثقافة، دط، دت، 157-158/1

[2] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، 155/2.

[3] ينظر: أحمد أمين، ضحى الإسلام، كلية الآداب بالجامعة المصرية، ط01، 1933، 166/1.

شهر تُجذُّ حِبال الوصل فيه فما عقدٌ من الوصل إلاَّ و هو محلول[1]

وعليه، مصطلح الوزير في العصر العباسي يشير إلى عون الخليفة في تسيير أمور خلافته ودولته، المصطلح مستعمل منذ العصر الأموي، كان له دور مهم في كتابة الرسائل السياسية والمصادقة عليها، والمصطلح مزال مستعمل حتى وقتنا هذا بنفس الصيغة والوظيفة.

2.2 مصطلح الكُتاب:

(تم تعريف مصطلح الكاتب في الفصل السابق).

حدد ابن المدبر صفات للكتاب، يمكن تقسيمها لما يلي:

- **صفات متعلقة بشخصية الكاتب:**

حددها ابن المدبر على النحو الآتي: "حلو الشمائل، عذب الألفاظ، دقيق الفهم، حسن القامة، بعيدا من الفدامة خفيف الروح، حاذق الحس، محنكا بالتجربة، عالما بحلال الكتاب والسنة وحرامهما، وبالملوك وسيرها وأيامها، وبالدهور في تقلبها وتداولها، مع براعة الأدب، وتأليف الأوصاف. ومشاكلة الاستعارة، وحسن الإشارة وشرخ المعنى بمثله من القول حتى تنصب صورا منطقية تعرب عن أنفسها، وتدل على أعيانها، لأن الحكماء قد شرطوا في صفات الكتابة طول القامة، وصغر الهامة، وخفة اللهازم، وكثافة اللحية، وصدق الحس، ولطف المذهب وحلاوة الشمائل وملاحة الزي حتى قال بعض المهالبة لولده: تزينوا بزي الكتاب فإن فيهم أدب الملوك وتواضع

[1] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 21/4.

السوقة"[1]. نلاحظ، أنَّ الصفات التي حددها للكتاب لا تختلف كثيرا عن الصفات التي ذكرها عبد الحميد الكاتب. كلها صفات تجمع بين المهارات الأدبية والشخصية، وشدد على أهمية الاطلاع الواسع للكاتب على الأدب، السير، والتاريخ، مما يمكنه من تشكيل صور منطقية ومعبرة في كتاباته. بالتالي، نلاحظ من خلال طرحه تأكيد على أن صفات الكاتب ليست مقتصرة على مهارات الكتابة فقط، بل تمتد لتشمل المعرفة بالعديد من العلوم.

- **صفات فنية خاصة بالكتابة:**

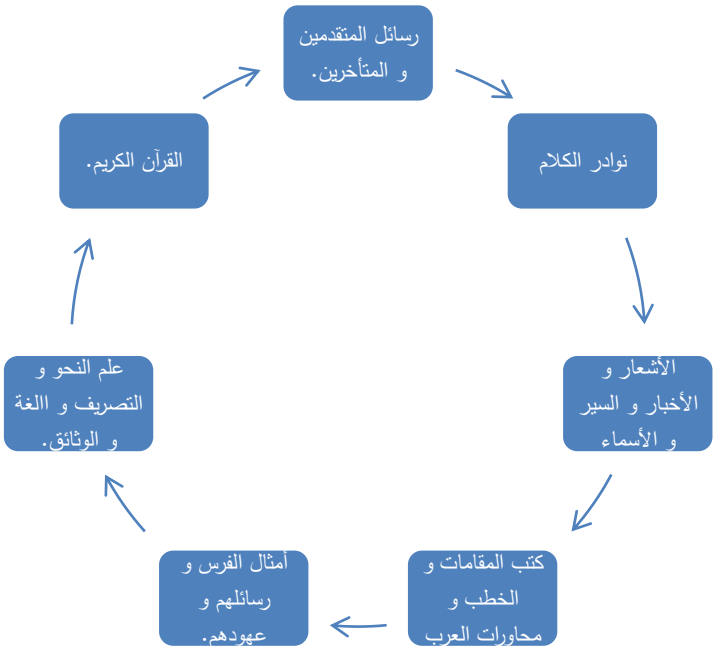
قال: "فإنما يكون كاتبا إذا وضع كل معنى في موضعه وعلق كل لفظة على طبقتها من المعنى فلا يجعل أوَّل ما ينبغي له أن يكتب في آخر كتابه في أوله ولا أوله في آخره فإني سمعت جعفر بن محمد الكاتب يقول لا ينبغي للكاتب أن يكون كاتبا حتى لا يستطيع أحد أن يؤخر أول كتابه[2]. يوضح أن الكاتب يجب أن يكون قادرًا على وضع كل معنى في موضعه المناسب، وأن يربط كل لفظة بالمعنى الملائم لها. هذا يقتضي القدرة على ترتيب الأفكار بشكل منطقي، مما يعزز من قوة الرسالة المكتوبة و يزيد من تأثيرها على القارئ.

- **مصادر صنعة الرسالة:**

حدد ابن المدبر مصادر يعتمد عليها الكاتب في إنشاء رسالته، سأوضحها في المخطط التالي:

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص 176، 177.

[2] المرجع نفسه، ص178.



شكل رقم11: يوضح مصادر صنعة الرسالة

قراءة تحليلية للشكل:

بالنسبة للمصدر الأول، قال عنه ابن المدبر، إنَّ تصفح رسائل المتقدمين والمتأخرين يلقِّح ذهن الكاتب، ثمَّ الاطلاع على نوادر كلام الناس ما يستعين به. كذلك أكد على ضرورة الاطلاع على الأشعار والأخبار والسير والأسماء، لما يتسع به منطق الكاتب، ويعذب به لسانه، ويطول به قلمه، إضافة إلى ذلك النظر في كتب المقامات والخطب ومحاورات العرب ومعاني العجم وحدود المنطق وأمثال الفرس ورسائلهم وعهودهم وتوقيعاتهم وسيرهم ومكايدهم في حروبهم. وقد ربط ابن المدبر بين ضرورة الاطلاع على تاريخ العرب وضرورة الاطلاع على تاريخ الفرس ومراسلاتهم وتوقيعاتهم، إذ يعود ذلك إلى أن "الوزراء والكُتَّاب نشروا الثقافة العامة، وضموا إلى

الآداب العربية الآداب الفارسية، فأصبح مما يتطلَّبه الأدب؛ أن تعرف حكم بزر جمهر كما تعرف حكم أكثم بن صيفي، وتعرف تاريخ الفرس كما تعرف تاريخ العرب، وتعرف أقوال كسرى وسابور وأبرويز وموبذه وبذان كما تعرف أقوال الخلفاء الراشدين والأمويين"[1].

أضاف قائلا: "بعد أن تتوسط في علم النحو والتصريف واللغة والوثائق والشروط ككتب السجلات والأمانات فإنه أول ما يحتاج إليه الكاتب، وأخيرا التمهر في وضع آيات القرآن في مواضعها واجتلاب الأمثال في أماكنها واختراع الألفاظ الجزلة وقرض الشعر الجيد وعلم العروض، حيث قال: "اجتلاب الشعر في كتب الخلفاء والجلة الرؤساء عيب واستهجان للكتب إلاَّ أن يكون الكاتب هو القارض للشعر والصانع له فإنَّ ذلك مما يزيد في أبهته، ويدل على براعته"[2]. سلط لضوء على مجموعة من المهارات والمعارف الأساسية التي يجب أن يتحلَّى بها الكاتب، حيث اعتبر كل من العلوم التي ذكرها هي الأساس الذي يُبنى عليه الكاتب قدرته على التعبير بوضوح ودقة، مع التمهر في الاقتباس من القرآن والحديث والشعر، وبناءً على هذا ابن المدبر يرى أن الكاتب المثالي من يجمع بين المعرفة العميقة بالعلوم اللغوية والدينية والأدبية، مع قدرته على توظيف هذه المعارف بطريقة إبداعية ومؤثرة ليستحق لقب الكاتب.

3. الطبقة الثالثة: قال عنهم ابن المدبر: " أمراء ثغورهم وقوَّاد جيوشهم"[3].

3.1 مصطلح الأمراء:

[1] أحمد أمين، ضحى الإسلام، 172/1.

[2] ينظر: محمد كرد علي، رسائل البلغاء، 177/176.

[3] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص178.

الملك، وهي بهاءٍ، بين الإمارة، ويفتح، ج: أمراء[1]. وهو لقب من ألقاب الوظائف التي استعملت كذلك كالألقاب الفخرية، ويرجع استعماله في الإسلام كاسم لوظيفة في عمر النبي صلى الله عليه وسلم حين كان يقصد به الولاية على الحكم أو رئاسة الجيش ونحو ذلك. وكان اللقب في الدَّولة العبَّاسية يُطلق على ولي العهد وإن لم يكن ابنا الخليفة وأوضح مثل لذلك إطلاقة على الرضا ولي عهد المأمون في سكة بتاريخ سنة 203هـ بالمحمدية "لله، محمد رسول الله. المأمون خليفة الله، مما أمر به الأمير الرضا"[2].

قال ابن خلدون أنَّ قوَّاد البعوث كانوا يسمون باسم الأمير وفعيل من الامارة وقد كان الجاهلية يدعون النبي صلى الله عليه وسلم أمير مكة وامير الحجاز وكان الصحابة أيضا يدعون سعد بن أبي وقَّاص أمير المسلمين لإمارته على جيش القادسية[3]. وعليه، فحسب ما ذكره ابن خلدون فمصطلح الأمير مستعمل منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، ليس محدثا إلا في العصر العباسي.

مصطلح الأمير في الدولة العباسية يشير إلى المسؤول الذي يحكم منطقة معينة، سواءً كانت مدينة أو إقليما. حيث يتمتع بصلاحيات كبيرة في تسيير الشؤون المحلية. مزال المصطلح مستعمل حتى وقتنا الحالي في بعض الدول التي نظامها ملكي. ظهر كذلك **مصطلح أمير المؤمنين**.

[1] الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص344.

[2] ينظر: حسن باشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ و الوثائق والآثار، ص182.

[3] ينظر: ابن خلدون، المقدمة، 409/1.

قال ابن المدبر: "ونحن نعلم أنَّ كل أمير تولَّى أمر من أمور المؤمنين شيئا فهو أمير المؤمنين غير أنَّهم لم يطلقوا هذه اللفظة إلاَّ للخلفاء خاصة"[1]. من الألقاب المركبة على لقب أمير ويقصد بالمؤمنين المصدقين تصديقا قبليا بعقيدة الإسلام. ولُقب أمير المؤمنين ثاني ألقاب الخلفاء ظهورا وقد جاء بعد لقب خليفة؛ وأوَّل من لُقب من ألقاب الخلفاء العامة، وصار يُطلق على الخلفاء ومدعى الخِلافة في جميع أنحاء العالم الإسلامي سواءً أكانوا سنيين أم شيعة[2].

قال ابن خلدون عن المصطلح بأنَّه محدث منذ عهد الخلفاء وذلك أنَّه لمَّا بويع أبو بكر رضي الله عنه كان الصحابة وساير المسلمين يسمونه خليفة رسول الله، ولم يزل الامر على ذلك إلى أن هلك فلما بويع لعمر رضي الله عنه بعهده إليه كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله وكأنَّهم استثقلوا هذا اللقب لطوله حتى اتَّفق بعد الصحابة بمناداة عمر رضي الله عنه باسم أمير المؤمنين فاستحسنه النَّاس واستصوبوه ودعوه به، يقال أوَّل من دعاه بذلك عبد الله بن جحش وقيل عمرو بن العاص والمغيرة ابن شعبة[3].

قد ذكر هذا المصطلح، رسالة يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد، وقد بلغه عنه بعض التحبس عن بيعته، فكتب إليه: " من عبد الله أمير المؤمنين يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد، فإني أراك تقدَّم رجلا وتؤخر أخرى. فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت[4]. كذلك، في نص البيعة التي بايع بموجبها المنتصر الجند والعامة

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص181.

[2] ينظر: حسن باشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص194.

[3] ينظر: ابن خلدون، المقدمة، 409/1.

[4] ابن وهاب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص158.

والخاصة، فجاء في نص البيعة: " بسم الله الرحمن الرحيم. تبايعون عبد الله المنتصر بالله أمير المؤمنين بيعة طوع واعتقاد ورضا ورغبة وإخلاص من سرائركم. . . "[1].

خلاصة القول، مصطلح أمير المؤمنين مصطلح إسلامي يطلق على الخليفة العباسي، تم استخدامه أول مرة منذ العهد الراشدي، عكس الدور الديني للخليفة وكونه القائد الروحي للمسلمين، وهذا الدور كان له تأثير كبير على الشؤون الدينية والفقهية والتعاليم الإسلامية في العصر العباسي، ومن جانب آخر يعبر عن السلطة والقوة والسياسة للخليفة.

3.2 مصطلح قواد الجيش:

رجل قائد من قُود وقُوَّاد وقادة، وأقاده خيلا أعطاه خيلا ليقودها[2]. اسم لوظيفة يطلق على من يتولَّى قيادة الجيش وكان اللقب يوصف أحيانا "بالأعلى" فيقال "القائد الأعلى" الذي أطلق على ذي الوزارتين أبي عيسى بن ليون في نقش بتاريخ سنة 483هـ على كرسي من إسبانيا[3].

قد ذُكر مصطلح القواد في رسالة أبي السفاح إلى الحسن بن قحطبة: "إنَّ العسكر عسكرك، والقُوَّاد قوادك، ولكن أحببت أن يكون أخي حاضرا، فاسمع له وأطع، وأحسن موازنته ومكانفته"[4].

[1] محمد ماهر حمادة، سلسلة الوثائق الادارية والسياسية العائدة للعصور العباسية المتتابعة، ص85.

[2] الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص313.

[3] ينظر: حسن باشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، ص427.

[4] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 02/3.

مصطلح قواد الجيوش في العصر العباسي يبدو أنَّه يشير إلى المسؤولين عن قيادة القوات العسكرية، دورهم المحافظة على استقرار وأمن الدولة، مازال المصطلح مستعمل حتى وقتنا الحالي.

4.الطبقة الرابعة:

قال عنهم ابن المدبر: "القضاة فإنَّهم وإن كان لهم تواضع العلماء وحلية الفضلاء فمعهم أبهة السلطنة وهيبة الأمراء"[1].

4.1 مصطلح القضاة:

واستُقضي: صُير قاضيا، وقضَّاه السلطان تقضية[2]. فالقاضي هو القاطع للأمور المحكم لها، واستقضى فلان أي جُعِلَ قاضيا يحكم بين النَّاس، وقضَّى الأمير قاضيا كما يقول أمَّر أميرا[3]. ظهر منصب القاضي في خلافة عمر مؤسسة إسلامية نتاج الظروف التي رافقت عملية الفتح وتمصير الأمصار. ولم يكتف بتعيين القضاة فحسب، بل اهتم باختيارهم، وكان يقول: أنزعنَّ فلانا من القضاء حتى استعمل عوضه رجلا إذا أتاه الفاجر فرق. كما كان يكتب إليهم في أصول القضاء ومنهجه[4].

أوَّل من ولَّى القضاة عمر بن الخطَّاب، فولَّى أبا الدرداء معه في المدينة، وولَّى شريحا في البصرة، وولّى أبا موسى الأشعري في الكوفة، وكتب إليه كتابا هو قاعدة الفقه

---

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص178.

[2] الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص1325.

[3] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 186/15.

[4] عبد الرزاق علي الأنباري، منصب قاضي القضاة في الدولة العباسية منذ نشأته حتى نهاية العصر السلجوقي، الدار العربية والموسوعات، ط01، 1987م، ص31.

الإسلامي وعليه تدور أحكام القضاة إلى اليوم: "أمَّا بعد، فإنَّ القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أدَّى إليك، فإنَّه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، ساوس الناس في وجهك ومجلسك وعدلك. . . "[1]. اكتسب منصب القاضي مكانة مرموقة في الدولة، قد جاء في كتاب كتبه عبد الحميد بن يحي الكاتب عن الخليفة مروان بن محمد لبعض من وُلاَّه: فاعلم أنَّ القضاء من الله بمكان ليس به شيء من الاحكام، ولا يمثل محلَّه أحد من الوُلاَّة: لما يجري على يديه من مغاليظ الأحكام ومجاري الحدود فليكن من تولية القضاء في عسكرك من ذوي الخير في القناعة والعفاف...[2]

كان النبي صلى الله عليه وسلم هو القاضي الأعلى للمسلمين، وكذلك كان خليفته من بعده، وكان ولائه على البلاد يباشرون هذه السلطة بالنيابة عنه. ثم أن كثرت الواجبات تطلبت الاستعانة ببعض القضاة، كما كان يحكى عن المختار فإنَّه كان يجلس للقضاء بنفسه، حتى كثرت عليه الأعمال فاضطر إلى تعيين القضاة. في عهد العباسيين القاضي أصبح يعينه الخليفة مباشرة، وكان أبو جعفر المنصور أول خليفة ولَّى قضاة الأمصار من قبله، وقد عظم شان القضاة وقوى مركزهم منذ عهد الخلفاء الأولين من بني العباس، فأصبحت هذه المناصب القضائية في الحياة الديوانية غالبة عليها نزعة قوية إلى جعل المناصب وراثية من الأب إلى الابن، ففي القرنين الثالث والرابع تقلَّد قضاء القضاة من أسرة واحدة هي أسرة أبي الشوارب ثمانية رجال ببغداد، هذا عدا ستة عشر قاضيا آخرين من هذه الأسرة[3].

[1] ينظر: جرجي زيدان، تاريخ التَّمدن الإسلامي، 250/1.

[2] ينظر: عبد الرزاق علي الأنباري، منصب قاضي القضاة في الدولة العباسية منذ نشأته حتى نهاية العصر السلجوقي، ص32-34.

[3] ينظر: نبيلة حسن محمد، في تاريخ الدَّولة العباسية، ص250-271-251.

وكان مما حققه العباسيون الأوائل هو الربط الدائم بين وظيفة القاضي والشريعة. وأصبح قاعدة ثابتة فكان القاضي فقيه متخصصا. ولم يبق مجرد عالم فقيه للحاكم يعين من قبل الدَّولة وبقي من يوم تعيينه لا يرجع إلى غير الشريعة. من غير تدخل للجهة الإدارية. ويعتبر الخليفة المنصور أول من فصل القضاء عن سلطة عماله، فكان أوَّل من وُلي القضاة الأمصار من قبله[1]. إضافةً، اكتسب القضاة الذين يختارهم الخلفاء الاستقلال في الرأي ولم يكن الوُلاَّة أن يتدخلوا في شأنهم، فقد حرص الخلفاء في العصر العبَّاسي الأوَّل على صون حصانة القاضي من تدخل أي متدخل حتى من الخليفة نفسه، فإنَّك ذلك تعطيل لمسار العدالة، وشيوع المحسوبية، وضياع حقوق النَّاس وفساد المجتمع[2].

- **نموذج لرسالة القاضي أبي خازم إلى المعتضد:**

كان أبو خازم قاضيا في الشرقية من بغداد، فارتفع إليه خصمان فاجترأ أحدهما بحضرته بما أوجب تأديبه، فأمر بتأديبه فمات في الحال فكتب إلى المعتضد يقول: "أعلم أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ أنَّ خصمين حضراني فاجترأ أحدهما بما اوجب عليه معه الادب عندي فأمرت بتأديبه فأدب فمات فإذا كان المراد به مصلحة المسلمين فمات في الأدب فالدية واجبة في بيت مال المسلمين، فإن رأى أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ أن يأمر بحمل الدية إليَّ لأحملها إلى ورثته فعل[3].

[1] موسى جواد، القضاة والمسؤولية القضائية في العصر العباسي الأول بين الإعفاء والاستعفاء، مجلة الأستاذ الباحث للدراسات القانونية والسياسية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، جوان2016، ع2، ص124.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص125.

[3] محمد ماهر حمادة، الوثائق الادارية والسياسية العائدة للعصور العباسية المتتالية، ص155.

وعليه، مصطلح القاضي يشير إلى المسؤول عن إدارة القضايا وتنفيذ العدالة وتطبيق الشريعة الإسلامية. وينظرون في الدعاوى المقدمة إليهم واتخاذ القرارات القضائية بناء على الشرع الإسلامي والقوانين المعمول بها، حيث يتم تعيينهم من قبل الخليفة ويتمتعون بمراتب ومواقع مرموقة في جهاز الدولة، وملزوم عليهم المعرفة الواسعة بالشرع الإسلامي وقوانين الدولة. والمصطلح مزال مستعمل حتى يومنا هذا بنفس الصيغة والوظيفة؛ إلا أنه اليوم يطبق قانون الدستور الخاص ببلده؛ ليس تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية كما كان في العصر العباسي.

5.الطبقة الخامسة:

ثم قسم باقي طبقات المجتمع إلى قسمين: العوام، والتجار:

5.1 مصطلح العوام:

استعمل المدبر مصطلح العوام بدلا من العامة، وهذا المصطلح استعمله الجاحظ أيضا، وعرَّفه بقوله: "وإذا سمعتموني أذكر العوامَّ فإني لست أعني الفلاَّحين والحُشوة والصنَّاع، والباعة، ولست أعني أيضا الأكراد في الجبال، وسكَّان الجزائر في البحار، ولست أعني من الامم مثل البير والطيلسان، ومثل موقان وجيلان، ومثل الزنج وأشباه الزنج. وإنَّما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع: العرب، وفارس، والهند، والرُّوم، والباقون همج وأشباه الهمج، وأمَّا العوام من أهل ملتنا ودعوتنا، ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا، فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا"[1].

وعليه، فمصطلح العوام في العصر العباسي يشير إلى الشعب العادي والأشخاص البسطاء من المجتمع، واستعملوا هذا المصطلح للتمييز بينهم وبين الطبقة

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، 137/1.

الحاكمة أو الطبقة العليا في المجتمع، يضم الفلاحيين والحرفيين والعمال والتجار. صحيح لم يتمتعوا بنفس الامتيازات التي تمتعت بها الطبقة العليا؛ إلا أنَّهم كان لهم تأثير قوي على الحكم والسياسية، فكان تأييدهم لأحد القادة قد يكون مفتاحا لنجاحه في الصعود إلى الحكم.

5.2 مصطلح التجار:

جاء في قوله تعالى:﴿...**أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ...**﴾ **(سورة البقرة: الآية 282)**. في لسان العرب: تجر يتجر تجرا وتجارة: باع وشرى، وكذلك اتَّجر وهو افتعل وفي الحديث: إنَّ التجار يبعثون يوم القيامة فجَّارا إلاَّ من اتَّقى الله وبرَّ وصدق؛ قال ابن الأثير: سمَّاهم فجارا كما في البيع والشراء من الأيمان الكاذبة والتدليس والربا الذي لا يتحاشاه أكثرهم أو لا يفطنون له[1]. هم باعة السلع الثمينة التي تقتضيها الحضارة، كالمجوهرات والمصوغات والرياش الثمين والثياب الفاخرة والآنية والرقيق، وأكثر ارتزاقهم من الخليفة وأهله وأهل دولته وسائر الخاصة من جلسائه وأعوانه[2].

قال الجاحظ عن التجار: "فإنَّهم يعترفون بفضيلة التُّجَّار ويتمنون حالهم، ويحكمون لهم بالملائمة في الدين، وطيب الطَّعمة، ويعلمون أنَّهم أودع الناس بدنا وأهنؤهم عيشا، آمنهم سربا، لأنَّهم في أفنيتهم كالملوك على أسرتهم، يرغب إليهم أهل الحاجات، وينزع إليهم ملتمسوا البياعات، لا تلحقهم الذلة في مكاسبهم، ولا يستعبدهم الضَّرع لمعاملاتهم"[3].

---

[1] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 89/4.

[2] ينظر: جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، 44/5.

[3] علي أبو ملحم، الرسائل الأدبية، رسائل الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط01، 2002م، ص240.

التجار، قسمين: قسم ينتمي للطبقة الخاصة، وقسم ينتمي للطبقة العامة؛ فأمَّا الطبقة الأولى فتشمل التجار من ذووي رؤوس الأموال الكبير، والقسم الآخر من ذووي الأموال المحدودة هم من الطبقة العامة[1]. فيهم جماعة من عامة النَّاس يوصفون بالغفلة، فخدمهم حظهم حتى ارتقوا إلى طبقة الخاصة وجمعوا الأموال الطائلة، كآل الجصاص تجار الجواهر وقد اشتهروا في العصر العباسي[2].

لكن؛ لم تكن مهمتهم البيع فقط، هناك منهم من تولَّى بعض المناصب الإدارية وغيرها من الأعمال المعروفة، نجد أنَّ بعض التجَّار قد تقلدها ومنهم التاجر أبو قاسم محمد أبو السعادات الذي تقلَّد وكالة الباب للخليفة الناصر، كذلك كان لبعضهم من الدعاة إلى الله تعالى فبرز منهم المحدث والفقيه وغير ذلك، إضافة لكون منهم من اشتهر بقراءة القرآن منهم أبو الفتح عبد الوهَّاب بن محمد المالكي التاجر. فبفضلهم زادت الأهمية التجارية لمدينة بغداد، مما مكَّنها من الاتصال بالخارج فتوافدت إليها مختلف البضائع من الشرق والمغرب[3].

رسالة من أحد تجار الرَّي، وهو مجهول الاسم، إلى أصحابه بالموصل سنة 267هـ يحذرهم الاستخفاف بالمغول ويقول لهم: لا تظنوا أنَّ هذه الطائفة التي وصلت إلى نصيبين والخابور. . . كان قصدهم النَّهب، إنَّما أرادوا أن يعلموا هل في البلاد من يردهم أم لا، فلَّما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من ممانع و مدافع . . . فقوي

[1] ينظر: عمار مرضي علاوي، فئة التجار في العصر العباسي(447 . 656)، قسم التاريخ، كلية الآداب، مجلة الجامعة العراقية، ع28، ص03.

[2] جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، 46/5.

[3] ينظر: عمار مرضي علاوي، فئة التجار في العصر العباسي(447 . 656)، ص7-9.

طمعهم وهو في الربيع يقصدنوكم و ما يبقى عندكم مقام، إلاَّ إذا كان في بلد الغرب، فإنَّ عزمهم على قصد البلاد جميعها، فانظروا لأنفسكم[1].

مما سبق، يتضح أنَّ التجارة حظيت بدور هام في الاقتصاد والحياة الاجتماعية، وقد ازدهرت التجارة في هذه الفترة وازدادت قوة التاجر وتأثيره في المجتمع. وكان للطبقة التجارية العليا تمتعت بنفوذ كبير وثروات ضخمة، فكان لهم تأثير في الحكم والسياسة واستخدموا ثرواتهم في دعم الخلافة، حيث تأسست مدن التجارة المزدهرة مثل بغداد وسمرقند والقاهرة فأصبحوا مراكز تجارية رئيسة وملاذا للتجار المحليين والدوليين مما ساهم ارتقاء الدولة العباسية اقتصاديا.

استنادا على ما سبق، كل الشخصيات البارزة في الدولة الإسلامية مثل الخليفة والوزير وغيرهم، كانوا يتمتعون بخبرة في كتابة الرسائل الديوانية، فالخليفة مثلا بصفته رئيس الدولة كان يتلقى رسائل من مختلف المناطق وكان يتوجب الرد عليها، أحيانا يكتبها بنفسه وأحيانا يكتبها له الوزير أو الكاتب اليد اليمنى له، كذلك القضاة والأمراء وقواد الجيوش والتجار كلهم خاضوا تجربة كتابة الرسائل الرسمية لخدمة أمور دولتهم، مما يجعلنا نعترف بحقيقة لا شك فيها تتمثل في كون الرسائل الديوانية فعلا من أهم أجهزة الدولة في العصر العباسي.

[1] محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية العائدة للعصور العباسية المتتابعة، ص80.

المبحث الرابع: حقل مصطلحات أدوات الكتابة الديوانية:

1. أدوات الكتابة الديوانية:

أدوات الكتابة الديوانية تعددت وتنوعت من أقلام وأوراق وتطورت من عصر لآخر، وكان لكل كاتب أدوات يستخدمها حسب ما يحدده له الديوان، وقد فصَّل فيها ابن المدبر، فقال: "واعلم أنَّ أوَّل ما ينبغي لك أن تصلح آلتك التي لا بد لك منها وأدواتك التي لا تتم صناعتك إلاَّ بها وهو دواتك فابدأ بعمارتها واصلاحها وتخير لها الليقة نقية من الشعر والودح لئلا يخرج على حرف قلمك ما يفسد كتابك ويشغلك بتنقيته وخذ من المداد الفارسي خمسة دراهم ومن الصمغ العربي درهما وعفصا مسحوقا نصف درهم ورماد القرطاس المحرف درهمين ثم نسحقهما ونغربلهما وتجمعها ببايض البيض ثم يندقها واجعلها في الظل فإذا احتجت إليها أخذت منها مقدار حاجتك فكسرته وحشوت به دواتك وإذا نقعته في ماء السلق حتَّى ينحل ويذوب ويختمر ثمَّ أمددت من مائه دواتك كان أجود و أنقى"[1].

1.1 مصطلح الدَّواة:

ما يكتب منه معروفة[2]. الدَّواة هي أم آلات الكتابة، فقد شبهها أهل الحرفة سلاح المحارب الذي لا غنى عنه في حروبه دلالة على أهميتها لمحترف الكتابة، فكان على الكاتب أن يتَّخذها من أجود العيدان وأرفعها ثمنا كالآبنوس، والسماسم والصندل وقد اختلفت هيئتها من التَّدوير والتربيع، فأمَّا كتاب الإنشاء فإنَّهم يتَّخذونها مستطيلة مدورة الرَّأسين لطيفة القد طلبا للخفة، وأمَّا كتاب الأموال فإنَّهم يتَّخذونها

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص182.

[2] ابن منظور، لسان العرب، 279/14.

مستطيلة مربعة الزوايا ليجعلوا في باطن غطائها ما استحقوه مما يحتاجون إليه من ورق الحساب الديواني المناسب لهذه الدَّواة[1]

وعليه، فالدواة أداة مهمة في الكتابة العربية والديوانية، وهي عبارة عن فرشاة صغيرة تستخدم لتحديد سمك وعرض الخط في الكتابة العربية، تتكون من مجموعة من الخيوط الرفيعة مثل الشعر، وتستخدم للضغط على الحبر وتحديد السمك والعرض المطلوبين للخط، ويختلف حجمها حسب تفضيلات الكاتب ونوع الخط المستخدم.

1.2 مصطلح المداد الفارسي:

المِداد: النَّقس. الذي يُكتب به، ومدَّ الدَّواة وأمدَّها: زاد في مائها ونِقْسِها؛ ومدَّها وأمَدَّها: جعل فيها مِدادا، وكذلك مدَّ القلم و أمدَّه[2].

المداد الفارسي هو نوع من الأحبار التقليدية المستخدمة في الكتابة العربية والديوانية، يتميز بكثافته بالسواد والتأثير الدائم على الورق، وهو مفضل لدى العديد من الكتاب وهواة الخط العربي الديواني، ويستغرق وقتا قليلا لجفافه بعد الكتابة؛ إلا أنه يعطي نتائج متميزة في النهاية.

1.3 مصطلح الليقة:

ليقة الدَّواة: هي ما اجتمع في وقبتها من سوادها بمائها[3]

---

[1] ينظر: بدر الدين شعباني، أدوات الخط و آلات الكتابة . دراسة في سيميولوجية آلات فنون الخط العربي والزخرفة الإسلامية، ملف العدد، جامعة قسنطينة، عبد الحميد مهري الجمهورية الجزائرية، ص171-172.

[2] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 398/3.

[3] ينظر: المرجع نفسه، 330/10.

الصوفة في الدَّواة، وتسميها العرب الكرسف، تسمية لها باسم القطن الذي يتَّخذ منه في بعض الأحوال، وتكون الليقة من الصوف والحرير والقطن، والأوَّل أن تكون من الحرير الخشن لأنَّ انتفاشها في المحبرة وعدم تلبدها أعون على الكتابة[1]. فهي أداة تستخدم لتنظيف رأس القلم، مما يساعد في الحصول على كتابة نظيفة وواضحة.

1.4 مصطلح الكواغد:

الكاغد: معروف، وهو فارسي معرَّب[2]، عرَّفه أدى يشير بأنَّه فارسي محض بمعنى القرطاس، والكاغد لغة فيه ومنه الكردي كاغز[3]. المعروف في التاريخ أنَّ أهل الصين هم من أول من عرف صناعة الورق، وكان التُجَّار العرب يستوردون (الورق الصيني)، وكانت صلتهم ببلاد الشرق الأقصى قديمة وعرف العرب الورق بلفظ(الكاغد) بفتح الغين، والكلمة فارسية من أصل صيني، وقد رأى العرب في الورق أو الكاغد مادة حقيقية لينة سهلة الحمل والنقل لا تتطلب حيزا كبيرا، فأكثروا منه إكثارا عظيما، جعل من الكتب أضعافا مضاعفة ففضلوه على الرق والبردي[4].

لما تولَّى أبو جعفر المنصور(754-772) المؤسس الحقيقي لدولة العباسيين، أدرك أهمية الورق، فأمر بالتوسع في صناعته وإنتاجه في سمرقند، وأوعز باستخدامه

[1] يحي وهيب الجبوري، الخط والكتابة في الحضارة العربية، دار الغرب الإسلامي، ط01، 1994م، ص293.

[2] ابن منظور: لسان العرب، 380/3.

[3] ينظر: أدى يشير، الألفاظ الفارسية المعربة، ص136.

[4] ينظر: يحي وهيب الجبوري، الخط والكتابة في الحضارة العربية، ص274.

في الوزارات والمجامع العلمية والدَّواوين، منهيا بذلك المنافسة بين وسيلة اتصال قديمة (ممثلة بالرق أو البردي)، محلا مكانها وسيلة اتصال جديدة تتصف بالوفرة والرخص[1].

وخلاصة القول، الكاغد يعتبر من أهم الأوراق التي تستخدم في صناعة الورق، وهذه الصناعة تعد من الصناعات الراقية في العصر العباسي، وامتلكوا تقنيات متقدمة في إنتاج الورق، فكان يتم استخدام الكاغد في صناعة الكتب والمخطوطات، وعُدت بغداد المركز الرئيسي لصناعته، حيث قامت الدولة العباسية على تطوير هذه الصناعة بتأسيس ورش صناعية في بغداد والمدن الأخرى لإنتاج الكاغد والورق.

1.5 مصطلح الرقوق:

الرق: الصَّحيفة البيضاء؛ غيره: الرق بالفتح: ما يُكتب فيه وهو جلد رقيق، ومنه قوله تعالى: في رقٍّ منشور: أي في صحف[2].

المادة الأساسية التي يكتب بها العرب، وقد كتبت بها المصاحف والمؤلفات في العصور الأموية والعباسية قبل أن يشيع استعمال البردي والورق من بعده[3]، ثم حين صار جعفر بن يحي البرمكي في الوزارة أمر باعتماد الورق ومنع تداول الرق وما نحوها لكونها تقبل المحو والتزوير[4].

---

[1] ينظر: عصام سليمان الموسى، الورق وتطور صناعته في العصر العباسي كوسيلة اتصال فاعلة، مجلة جامعة دمشق، جامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا ـ قسم الإعلام ـ عمان، الأردن، ع 3+4، 2011م، مج27، ص229.

[2] ابن منظور، لسان العرب، 123/10.

[3] يحي وهيب الجبوري، الخط والكتابة في الحضارة العربية، ص256.

[4] عصام سليمان الموسى، الورق وتطور صناعته في العصر العباسي كوسيلة اتصال فاعلة، ص230.

وعليه، فالرقوق نوع آخر من الورق التي استخدمت في العصر العباسي في صناعة الورق، فيشير إلى أوراق الشجر التي تستخدم في صنع الورق، وتختلف من حيث مصدرها ونوع الشجرة التي تأتي منها، وكذلك عدت بغداد مركزا رئيسيا لإنتاجه.

2. أقلام كتابة الرسائل الديوانية:

ذكر ابن المدبر، أنواعا للأقلام التي يحتاجها الكاتب في صناعته:

القلم المحرف الكوفي: يستخدم لكتب الملوك والسجلات، يتميز بخطه الواضح والمستقيم، مما يجعله مناسبا للوثائق الرسمية.

قلم اللاَّزورد: المعتمد عليه المقصود إليه في النوائب والمهمات. يتميز بجودة عالية في الكتابة ودقة الحروف.

قلم البرجس: ورأيت كثيرا من الكُتَّاب يختارون قلم النَّرجس لتجعده وتجانسه ومن اللاَّزورد أبسط منه وأقوم حروفا.

الأقلام الأخرى: وأمَّا الموشع والمولَّع والمدبج والمنمنم والمسهم فعلى قدر رشاقة خط الكُتَّاب وحلاوة قلمه، كلها تختلف في شكلها وتصميمها لتناسب أساليب الكتابة المختلفة[1].

المصطلحات الفارسية المعربة: قلم اللازورد: من المصطلحات الفارسية المعربة، معدن مشهور تعريب لازورد بثلاث نقاط على حرف الزاي[2]، قلم البرجس، النشاستج، الابريسم: من المصطلحات الفارسية المعربة، هو الحرير تعريب ابريشم وبالكردية

[1] ينظر: محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص183.

[2] أدي يشير، الألفاظ الفارسية المعربة، ص141.

هَوْريشم[1]. نستنتج إذا، التخصصية والدقة في اختيار أدوات الكتابة المناسبة لكل نوع من أنواع الكتابات. مما يؤكد على مدى تطور فن الكتابة والاهتمام بتفاصيلها في حضارتنا الإسلامية، كذلك من خلال استخدام المصطلحات الفارسية المعربة يعكس تأثير الحضارة الفارسية على الفنون الإسلامية. إضافة إلى تنوع الأقلام وأساليبها يُظهر مدى الإبداع والابتكار في فنون الخط والكتابة، مما كان يعبر عن شخصية الكاتب ومهاراته.

وعليه، التطور المصطلحي الواضح في رسالة ابن المدبر هو نتاج لتوسع الدولة ودواوينها، فظهرت الحاجة إلى مصطلحات جديدة لوصف الأنواع المختلفة من الأقلام، الأوراق، الخطوط، الرسائل، وكتابها، لتلبية حاجات تنظيمية دقيقة لم تكن موجودة في العصور السابقة. مما يعكس تطور اللغة في ضوء التغيرات الاجتماعية والسياسية، مما يجعل المصطلحات الجديدة عنصرا أساسيا في فهم التاريخ الإداري، فمن خلال تتبع هذا التطور المصطلحي خلال العصر العباسي يستطيع الدارس فهم طبيعة الحكم الإداري والسياسي في تلك الفترة.

المبحث الخامس: المرجعية الفكرية لابن المدبر في وضع مصطلحات خاصة بالرسائل الديوانية:

ابن المدبر من أشهر الكتاب في العصر العباسي، أنتج للكتاب رسالة كما رأينا وضح فيها كل ما يخص كتابة الرسائل، معتمدا في ذلك على تجربته في مجال الكتابة الديوانية، وعلى رسائل من سبقوه خلال عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وعصر الخلفاء الراشدين والاموي كذلك فاتخذ منهم مرجعا رئيسا في وضع كل المناهج

[1]أدي يشير، الألفاظ الفارسية المعربة، ص06.

الأساسية التي يجب على الكاتب اعتمادها في صناعة رسائله؛ لذلك سأتطرق لمرجعيته في الأفكار التي حملتها لنا رسالته، ثم مرجعيته في اختيار المصطلحات. لكن قبل ذلك من هو **ابن المدبر: (279هـ/893م):**

إبراهيم بن محمد بن عبيد اله بن المدبر، أبو إسحاق: وزير من الكتاب المترسلين الشعراء. من أهل بغداد تولى ولايات جليلة واستوزره المعتمد العباسي لما خرج من سامراء يريد مصر سنة 269هـ. وتوفي ببغداد متقلدا ديوان الضياع للمعتضد[1].

فكما قلنا، فالكاتب لم يكن فقط من يتولى مهمة الكتابة، بل كان وزيرا وعالما وشاعرا ووالیا وصاحب ديوان، وأكبر مثال على ذلك الكاتب الوزير ابن المدبر الذي أنتج لنا رسالة وضح لنا فيها كل ما يخص رسوم صنعة الرسالة الديوانية أو الرسمية، لذلك نفسر لماذا حظي الكاتب في زمنهم بأهمية كبيرة واهتموا بتعليمه.

أولا: المرجعية الفكرية لابن المدبر في تأسيس مبادئ الكتابة الديوانية:

من خلال دراسة الرسالة والأفكار التي تضمنتها، توصلت إلى أن ابن المدبر متأثر في وضعه للمبادئ الخاصة بالكتابة والكاتب بمن سبقوه في هذا الموضوع منهم، عبد الحميد الكاتب نجد أثر أفكاره واضح في نصائحه للكتاب وصفاتهم؛ أما الثاني، فليس له علاقة بكتابة الرسائل الديوانية فهو معتزلي صاحب صحيفته البلاغية الغنية عن التعريف، ألا هو بشر ابن المعتمر(ت 209هـ)، أفكاره متطابقة تماما بل حتى بنفس العبارات؛ لكن ابن المدبر لم يشر في رسالته لكليهما، وهذا مما يتنافى مع سبب تسميته للرسالة بالعذراء التي ختم بها رسالته، فقال: " وهذه الرسالة عذراء، لأنَّها بكر

[1] محمد علي جمَّاز، معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م، 75/1.

معان لم تفترعها بلاغة الناطقين، ولامستها أكف المفوَّهين، ولا غاصت عليها فطن المتكلمين، ولا سبق إلى ألفاظها أذهان المنشئين، فاجعلها مثالا بين عينيك، ومصورة بين يديك، ومسامرة لك في ليلك ونهارك، تهطل عليك شآبيب منافعها، وتظلك بركاتها، وتوردك مناهل بلاغتها، وتدلك على مهيع رشدها، وتصدرك وقد نُقع ظمؤك ينابيع بحر إحسانها إن شاء الله عزَّ وجل، والحمدلله وحده، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم"[1]. لقد بالغ قليلاً في وصفه للرسالة خاصة عندما وصفها بأنَّها لم يسبق لا مثل في الألفاظ، وسنلاحظ هذا عند المقارنة بين أفكاره وبين كلٍ من عبد الحميد الكاتب وابن بشر.

نقد الشكعه تسميته للرسالة بالعذراء فقال: "إذ أني لم ألمس في طبيعتها أو أسلوبها وأفكارها شيئا من العذرة إلاَّ القليل، فكلمة العذراء تساوي كلمة بكر، والمعنى الذي تفيده العذرة والبكارة هنا هو الجدَّة المطلقة في الغرض والمعنى والمحتوى والهدف والأسلوب"[2]. وفعلاً رأيه صحيح فالمطلع على رسالة عبد الحميد وصحيفة ابن بشر يتأكد من ذلك. سنعرض مقابلة بينهما.

1. تأثر ابن المدبر برسالة عبد الحميد الكاتب:

من موضوعات رسالته، صفات الكُتَّاب وهذا الأمر تطرَّق له عبد الحميد الكاتب بالتفصيل من صفات ونصائح للكتاب من جميع الجوانب (فصلنا فيها في الفصل السابق)؛ لكن ابن المدبر لم يشر حتى له كما قال الشكعه عن هذا الامر: "روح عبد الحميد الكاتب وأفكاره ومناهجه التي ضمنَّها رسالته المشهورة إلى الكُتَّاب،

[1] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص176.

[2] مصطفى الشكعه، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، 347/2.

لكن لو صرَّح بذلك لحمدنا له صنعه وصنيعه، ولكنَّه أخذ نصائح عبد الحميد الكاتب وأوردها مجملة ومفصلة دون الإشارة إلى إمام الكُتَّاب ومعلمهم"[1].

فعلاً، ابن المدبر ذكر بعضا من النصائح من عبد الحميد الكاتب، وتكاد تتطابق مع الصفات التي حددها عبد الحميد والقارئ لرسالتين يستطيع ملاحظة ذلك فمثلا عندما نصح عبد الحميد باعتماد بعض المصادر في صناعة الرسالة في قوله: "تفقهوا في الدين وابدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية فإنها ثقاف ألسنتكم ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها... "[2]، نجد هذه المصادر نفسها اعتمدها ابن المدبر في تعليماته لتعلم صنعة الرسالة فقال: " أن تتوسط في علم النحو والتصريف واللغة والوثائق والشروط ككتب السجلات والأمانات فإنه أول ما يحتاج إليه الكاتب وتمهر في نزع آيات القرآن في مواضعها واجتلاب الأمثال في أماكنها واختراع الألفاظ الجزلة وقرض الشعر الجيد..."[3]. لكن؛ لا يمكن المبالغة والقول بأنَّ نصائح عبد الحميد الكاتب متطابقة مع ابن المدبر، فابن المدبر بمجرد قراءة الرسالة سوف تلاحظ كيف فصَّل في نصائحه لمن يتولى مهمة صنعة الرسالة من الناحية الفنية للكتابة؛ عكس عبد الحميد الكاتب ركز على الجانب الشخصي والأخلاقي للكاتب.

2. تأثر ابن المدبر بصحيفة ابن بشر المعتزلي:

تأثر به في مجموعة من المبادئ الخاصة بالكتابة منها:

---

[1] المرجع السابق، 2/351-350.

[2] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص174.

[3] المرجع نفسه، ص177.

2.1 مراعاة الوقت المناسب للكتابة:

قال ابن المدبر: "وارتصد لكتابك فراغ قلبك وساعة نشاطك فتجد ما يمتنع عليك بالكد والتَّكلف لان سماحة النفس ممكونها وجود الأذهان بمخزونها إنما هو مع الشهوة المفرطة في الشر والمحبة الغالبة فيه أو الغضب الباعث منه ذلك"، يبدو أنه تأثر بقول ابن بشر : "خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إيَّاك، فإنَّ قليل تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرف حسبا، وأحسن في الأسماع"[1].

فنلاحظ كيف أنَّه تأثر بفكرة ابن بشر بشكل واضح، فكلاهما حرص على تخير الوقت المناسب للكتابة أو الخطابة. بالمناسبة، يجب أن نشير لأمر مهم، وهو أنَّ ابن بشر المعتزلي وجه صحيفته للخطيب، نظرا إلى أنَّ العصر الذي عاش فيه اشتهر بالخطابة والمنازعات السياسية والدينية بين الفرق الدينية التي ظهرت في ذلك العصر، ومنها فرقة المعتزلة والخوارج وغيرهما من الفرق المشهورة في تاريخ الحضارة الإسلامية. وقد ازدهر فن الخطابة في ذلك الوقت، واتخذوه وسيلة أولى للدفاع عن أفكارهم ومعتقداتهم. أمَّا ابن المدبر، فرسالته موجهة للكاتب في صناعة الرسالة، ولا فرق كبير بين الخطبة والرسالة، فالخطبة قد تكتب وتصبح رسالة، والرسالة قد تُلقى وتصبح خطبة، وكما حرص ابن بشر على أن يختار الخطيب الوقت الذي يكون فيه مرتاح البال، حتى لا يتوتر ويُوصل المعاني بأفضل صورة، نجد ابن المدبر أيضا يوصي الكاتب باختيار ساعة راحته وفراغ باله، ليكتب بوضوح وسلامة، ويختار الألفاظ بدقة وفق معانيها.

2.2 تقسيم الكلام حسب طبقات المجتمع ومراعاة قدر المكتوب إليه:

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، 136/1.

كذلك في كلامه عن مراعاة قدر المكتوب إليه، وتقسيمه للطبقات بين عامة وخاصة كما رأينا، كذلك قسم ابن المعتمر بين الخاصة والعامة في قوله: "أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا، وقريبا معروفا، إمَّا عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، إمَّا عند العامَّة وإن كنت للعامَّة أردت... مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال"[1]. فابن بشر قسم قبل ابن المدبر المجتمع إلى طبقتين، طبقة عامة و طبقة خاصة؛ أمَّا الخاصة فيقصد بها: أعلاها مرتبة الخليفة ووزيروه، ومن كان نظير الوزر عنده، ثم مرتبة الأمراء ومن جرى مجراهم، ثم مرتبة الرؤساء وبعد هؤلاء من العمال وأصحاب الدواوين؛ أمَّا **الطبقة العامة:** يقصد بها، من لك رياسة عليه أو وُليت عملا هو من رعيتك فيه، ثم طبقة الحاشية وممن جرى مجراهم من الخدم والأولياء[2]. ذهب ابن المدبر نفس المجرى فقال: "وخاطب كلا على قدر أبهته، وجلالته، وعلوه، وارتفاعه، وتفطنه وانتباهه، واجعل طبقات الكلام على ثمانية أقسام فاربعة منها للطبقة العلوية وأربعة دونها ولكل طبقة منها درجة ولكل قسمة حظ لا يتسع للكاتب البليغ أن يقصر بأهلها عنها. ويقلب معناها إلى غيرها"[3]. (تطرقنا لهذه الطبقات بالتفصيل فيما سبق). فنلاحظ مدى تأثره بأفكار ابن بشر، فقسم مثله الكلام إلى طبقات حسب المتكلم له أو المكتوب إليه، ففصل ابن المدبر أكثر في طبقات المجتمع، طبعا لتطورات التي شهدها المجتمع العباسي.

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، 136/1.

[2] ينظر: بن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تح: حنفى محمد شرف، مطبعة الرسالة، دط، دت، ص271-272.

[3] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص 178.

2.3 مناسبة درجات الكلام والمتلقي:

قال ابن بشر: "وأن تكلم العامة السخفاء بما تكلم به الخاصة الأدباء، وإنَّما مثل من يكلم إنسانا بما لا يفهمه، وبما يحتاج إلى تفسيره له كمثل من كلَّم عربيا بالفارسية، لأنَّ الكلام، إنَّما وُضع ليعرف به السامع مراد القائل[1]، فحدد للخطيب مراعاة مستوى المستمعين من الناحية الفكرية والمعرفية، فالعامي طبعا مستواه في الفهم والتفكير ليس كالأديب، فلا تخاطب عاميا بأفكار تفوق حجم فهمه، وفي هذا المسار أو الاتجاه ذهب ابن المدبر كذلك، فقال:" ولكل طبقة من هذه الطبقات معان ومذاهب يجب عليك أن تراعيها في مراسلتك إليهم في كتبك وتزن كلامك في مخاطبتهم بميزانه وتعطيه قسمه وتوفيه نصيبه ... وأن إلباسك المعنى وإن شرف وصلح لفظا مختلفا عن قدر المكتوب إليه لم تجر به عادتهم تهجين للمعنى واخلال بقدره وظلم لحق المكتوب إليه ونقص مما يجب له"[2].

فنلاحظ، مرة أخرى كيف نقل ابن المدبر فكرة ابن بشر في مراعاة الكلام وفق المتلقي، وحرصه على اختيار الألفاظ ومعانيها بما يتناسب مع المقام الذي يكتب إليه. وهذا كله دليل واضح على حضور أفكار ابن بشر في رسالة ابن المدبر، وربما كان من الأفضل أن يشير إليه؛ لكنه اختار أن ينسب كل هذه الأفكار إليه وأنها عذراء لم تمسها عقول المفكرين قبله كما قال هو هذا.

[1] ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص163.

[2] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص178.

ثانيا: المرجعية الفكرية لابن المدبر في وضع مصطلحات خاصة بالرسالة الديوانية:

من خلال دراستي للمصطلحات التي استعملها ابن المدبر في رسالته وتتبع أصلها ومعناها، استطعت الوقوف على ثلاث مرجعيات رئيسة للمصطلحات المستعملة في الرسالة: عربية، إسلامية، فارسية. بناءً على أصلها، فإنَّ منها ماهو عربي مذكور في المعاجم العربية، لذلك سميتها بـ "**مصطلحات ذات مرجعية عربية**"، ومنها مصطلحات مذكورة في القرآن الكريم، لذلك سميتها بـ "**مصطلحات ذات مرجعية إسلامية**"، ومنها مصطلحات بمجرد قراءتها تعرف أنها دخيلة من حيث بنيتها وتركيب حروفها ومن خلال البحث وجدتها في المعاجم التي تضمنت المصطلحات المعربة الفارسية التي دخلت على اللغة العربية، وهذا امر طبيعي لكون الفرس في العصر العباسي تمتعوا بسلطة ونفوذ خاصة في قيادة الدواوين والتولي على شؤونها، لذلك سميتها بـ "**مصطلحات ذات مرجعية فارسية**"، سأوضح هذه المرجعيات بصورة أوضح من خلال الجدول التالي:

مصطلحات مرجعيتها عربية:	مصطلحات مرجعيتها إسلامية:	مصطلحات مرجعيتها فارسية:
الاختتام الأدباء الافتتاح الأمير التاريخ الختم الخط	الأمانات أمير المؤمنين التاجر الخليفة الرسالة السادات العلماء	الابريسم. البرجس الديوان القرطاس الكاغد اللازورد النشاشتج

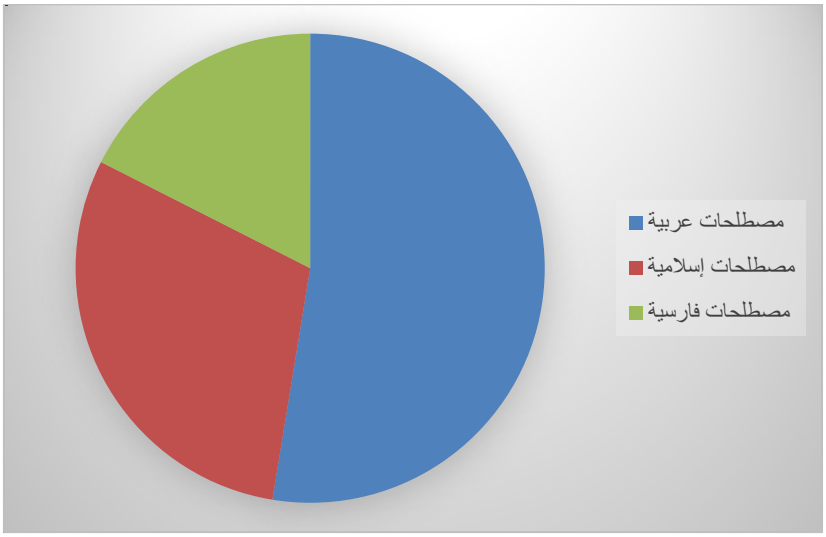
الدواة الرسوم الرقوق صنعة الرسالة الظرفاء العوام الفصول القاضي قائد الجيش الليقة المداد الفارسي، المكتوب إليه	العهود الكاتب الملك الوزير	

جدول رقم 07: يوضح المرجعيات الفكرية للمصطلحات المستعملة من قبل ابن المدبر.

قراءة تحليلية للجدول:

المصطلحات المذكورة في الجدول تعكس التنوع الثقافي واللغوي الذي تأثر به ابن المدبر في وضع مصطلحات الرسالة الديوانية، فالمصطلحات ذات المرجعية العربية الموضحة في الجدول ضمت مصطلحات خاصة بالكتابة الرسمية كالافتتاح والاختتام وغيرها، ومصطلحات تعبر عن فئات اجتماعية مثل الأدباء والعوام وغيرهم، ومصطلحات تعبر عن أدوات الكتابة. أما المصطلحات ذات المرجعية الإسلامية عكست لنا تأثير الدين الإسلامي على اللغة والمصطلحات الإدارية مثل مصطلح الخليفة، أمير المؤمنين مرتبطة بالسلطة الدينية في الإسلام. ثم المصطلحات ذات

المرجية الفارسية أشارت إلى التأثير الفارسي الكبير على اللغة العربية خاصة العصر العباسي كما موضحة الجدول أعلاه. من خلال هذه المصطلحات أبرز لنا المدبر التنوع الثقافي واللغوي الذي كان سائدا في العصر العباسي، حيث تداخلت الثقافة العربية مع الفارسية والإسلامية فأنتجت تطورا مصطلحيا متأثر بعوامل ثقافية ودينية وإدارية، بالتالي ليس تطورا لغويا فحسب بل عكس تفاعل الحضارات وتأثيرها في توليد المصطلحات ووضعها.



شكل رقم 12: يوضح نسبة مرجعيات المصطلحات المستعملة من قبل ابن المدبر بين العربية والإسلامية والفارسية.

قراءة تحليلية للشكل:

نلاحظ أن المرجعية العربية للمصطلحات قد شكلت نسبة قُدرت ب 53%، والمصطلحات ذات المرجعية الإسلامية قُدرت بنسبة 29%؛ أمَّا المصطلحات الفارسية فحصلت على أقل نسبة حيث قُدرت ب18%. وعليه، نتأكد من كون مرجعية ابن المدبر في اختيار المصطلحات الخاصة بالكتابة الديوانية عربية إسلامية بالدرجة

الأولى؛ أمَّا المصطلحات الفارسية، فقد استعملت في بعض المجالات الخاصة بأدوات الكتابة التي ربما لم يكل لها مقابل عربي مناسب. كذلك يتضح تأثير المرجعيتين العربية والإسلامية من خلال النصائح التي وجهها ابن المدبر للكتاب (وقد فصلنا غي هذا الأمر فيما سبق).

الفصل الخامس:

قراءة القلقشندي للتطور المصطلحي خلال العصر العباسي

المبحث الأول: حقل مصطلحات كتابة الانشاء.

المبحث الثاني: حقل مصطلحات المكاتبات.

المبحث الثالث: حقل مصطلحات الخط وأدوات الكتابة الديوانية.

المبحث الرابع: حقل مصطلحات أنواع المكاتبات في العصر العباسي.

المبحث الخامس: المرجعيات الفكرية للقلقشندي في وضع المصطلحات الخاصة بالرسائل الديوانية.

الفصل الخامس: قراءة القلقشندي للتطور المصطلحي في الرسائل الديوانية خلال العصر العباسي:

لم يعمل القلقشندي في دواوين الدولة العباسية بل عمل في دولة المماليك؛ لكنه كتب عن جميع رسائله في موسوعته الضخمة التي سماها بـ "صبح الأعشى في كتابة الإنشاء" والتي تضم أربعة عشر جزءً. تناول في كل الأجزاء الكتابة الخاصة بالرسائل الديوانية منذ عهد الخلفاء الراشدين، والأموي والعباسيين. ويمكن القول إنَّه من أشهر الدارسين لهذا الموضوع، وأكثر فيه عن كل مملكة على حده، من رسائلها ودواوينها وكتابها وأساليبها. أخذنا من بعض أجزائه ما كتبه عن الرسائل الديوانية خلال العصر العباسي وهذا ما يهمنا في دراستنا، متجاوزين العصر المملوكي برغم تطور الكتابة الديوانية فعلا فيه بشكل كبير؛ لكن نترك المجال للدارسين من بعدنا. بالنسبة لطريقة الدراسة فستكون كدراسة الرسالتين السابقتين، سنقسم كل ما يخص الرسالة الديوانية في العصر العباسي إلى حقول مصطلحية طبعا معتمدين في ذلك على ما كتبه القلقشندي، من خلال أقواله وأفكاره، مدعمين أفكاره ببعضٍ من الدراسات التي درست موسوعة القلقشندي، وبعضا من المعاجم اللغوية في تعريف المصطلحات، وكذلك مستشهدين ببعض من الرسائل العائدة إلى العصر العباسي.

المبحث الأول: حقل مصطلحات كتابة الأنشاء:

بدأنا مع الجزء الأول الخاص بالموسوعة، ضمَّ كل ما يخص الكتابة الديوانية، التي اصطلح عليها القلقشندي بمصطلح كتابة الإنشاء، وعالج كل ما يخص هذا النوع من الكتابة، من ناحية كتابها ألقابهم وصفاتهم ووظائفهم، من ناحية الديوان المتولي لها وصاحبه ووظائفه، نبدأ مع تعريفه لمصطلح كتابة الإنشاء.

1. مصطلح كتابة الإنشاء:

كما رأينا، مع كل من عبد الحميد الكاتب وابن المدبر، فاصطلحوا على كتابة الرسائل الديوانية بالصناعة، فعبد الحميد اصطلح عليها بصناعة الكتابة؛ أمَّا ابن المدبر فاختار أن يصطلح عليها بصناعة الرسالة؛ أمَّا القلقشندي فاصطلح عليها بكتابة الإنشاء، فنلاحظ أنَّه مصطلح مركب من كلمتين، الأولى كتابة؛ أمَّا الثانية الإنشاء، نبدأ مع مصطلح الكتابة.

1.1 مصطلح الكتابة:

عرَّفها القلقشندي: "الكتابة في اللغة مصدر كتب يكتب كتبا وكتابا وكتابة ومكتبة وكِتبة فهو كاتب ومعناها الجمع، يقال تكتَّبت القوم إذا اجتمعوا، ومنه قيل لجماعة الخيل كتيبة، وكتبت البغلة إذا جمعت بين شُفريها بحلقة أو سير ونحوه، ومن ثمَّ سمى الخط كتابة لجمع الحروف بعضها إلى بعض كما سمى خرز القربة كتابة لضم بعض الخُرز إلى بعض"[1].

[1] القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشا، 51/1.

إلاَّ أنَّ العرف فيما تقدم من الزمان قد خصَّ لفظ الكتابة بصناعة الإنشاء حتى كانت الكتابة إذا أطلقت لا يراد بها غير كتابة الإنشاء والكاتب إذا أطلق لا يراد به غير كاتبها"[1]. فيقصد بالعرف القديم العصرين الأموي والعباسي وكلامه صحيح، كما وضحنا هذا مع عبد الحميد وابن المدبر. فاتفق في تسمية الكتابة بمصطلح الصناعة تماما كما اصطلح عليها عبد الحميد الكاتب في قوله: "أنَّ الكتابة هي الصناعة التي لا تليق بطالب العلم من المكاسب سواها. ولا يجوز له العدول عنها إلى ما عداها. وجنحت فيها إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها. وتقديمها على كتابة الأموال وترشيحها"[2]. فصرَّح بأهمية هذا النوع من الكتابة لطلاب العلم، وأنَّه يفضلها على كتابة الأموال يقصد بذلك الكتابة الخاصة بديوان الخراج كما ذكرها عبد الحميد الكاتب.

1.2 مصطلح الإنشاء:

عرفه ابن منظور: الانشاء في اللغة من أنشأ، يحكي حديثا: جعل وأنشأ يفعل كذا ويقول كذا، ابتدأ وأقبل، وفلان ينشئ كلاما أي يضعه[3]. بمعنى تأليف الكلام وترتيب المعاني في نصوص مكتوبة.

1.3 مصطلح كتابة الانشاء:

عرَّفه القلقشندي بقوله: "المراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعاني: من المكاتبات والولايات والمسامحات والاطلاقات ومناشير

[1] القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشا، 52/1.
[2] المرجع نفسه، 09/1.
[3] ابن منظور، لسان العرب، 171/1.

الاقطاعات والهدن والأمانات والأيمان وما في معنى ذلك ككتابة الحكم ونحوها"[1]، فاستعمل في تعريفه للمصطلح، مصطلحًا مرادفًا له ألا هو صناعة الكتابة الذي استعمله عبد الحميد الكاتب في العصر الأموي، فتضم هذه الصناعة كل أنواع المكاتبات والرسائل(ذكر أنواعا يبدو أنَّها موجودة في العصر الذي عاش فيه). وطبعا هذه الصناعة صادرة عن ديوان خاص بها، اصطلح عليه بمصطلح ديوان الإنشاء.

مدح القلقشندي هذا النوع من الكتابة بقوله: "لا سيما كتابة الانشاء التي هي بمنزلة سلطانها. وإنسان عينها بل عين إنسانها. لا تلتفت الملوك إلاَّ إليها. ولا تعول المهمات إلاَّ عليها يُعظمون أصحابها ويُقربون كُتَّابها"[2]. فنتأكد من قوله استمرار تعظيم مهمة الكاتب وقربه من الملوك، تماما كما صرَّح عبد الحميد الكاتب وابن المدبر قبله.

2. مصطلح ديوان الإنشاء:

لا خفاء في أنَّه مركب من مضاف وهو ديوان ومضاف إليه وهو الإنشاء، أمَّا الديوان فاسم للموضع الذي يجلس فيه الكتاب وهو بكسر الدال. وأما الانشاء مصدر أنشأ الشيء ينشئه إذا ابتدأه واخترعه، وحينئذ فإضافة الديوان للإنشاء تحتمل أمرين:

أنَّ الأمور السلطانية من المكاتبات والولايات تُنشأ عنه وتبتدأ منه.

[1] القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشا، 54/1.

[2] المرجع نفسه ، 06/1.

أنَّ الكاتب ينشئ لواقعه مقالا. وقد كان هذا الديوان في الزمن المتقدم يعبر عنه بديوان الرسائل تسمية له بأشهر الأنواع التي تصدر عنه لأنَّ الرسائل أكثر أنواع الانشاء وأعمُّها[1].

فديوان الإنشاء، يقابل مصطلح ديوان الرسائل الذي وضعه ابن معاوية في العصر الأموي كما رأينا في الفصل الأول، مسؤول عن إصدار الرسائل الديوانية وتوثيقها، فنفهم إذا أنَّ وظيفة هذا الديوان مستعملة منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ورأينا كيف أنَّه اتخذ كتابا له، لكل منه اختصاصه، وتواصل الأمر بعده مع الخلفاء الراشدي، ثم مع العصر الأموي وهكذا حتى العصر العباسي؛ إلا أنَّه ليس بنفس المصطلح، في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم لم يُستعمل مصطلح الديوان، ثم استعمله أول مرة عمر بن الخطاب كما فصلنا في الأمر في الفصل الأول؛ ومع العصر الأموي اصطلح عليه بديوان الرسائل؛ أما ديوان الإنشاء فاستعمله القلقشندي، فالمصطلح صحيح تغير في تركيبه؛ لكنه بقي يحمل نفس المفهوم الذي ظهر عليه في بداية نشأته مع ابن معاوية في العصر الأموي. وطبعا هذا الديوان كغيره من الدواوين يشتغل فيه كتاب مهمتهم كتابة هذه الرسائل والاشراف على إرسالها وغيره، اصطلح عليه القلقشندي بمصطلح كاتب ديوان الإنشاء. بل لديه صاحب يشرف عليه سماَّه القلقشندي بصاحب ديوان الإنشاء.

[1] ينظر: المرجع السابق، 1/90-89

3. مصطلح صاحب ديوان الإنشاء:

صاحب ديوان الإنشاء هو المتولي عن تسيير شؤونه، ويتمتع بالعديد من الوظائف كلها تدور حول إنتاج الرسائل الديوانية، وقدد حددها القلقشندي في عشر وظائف في الجزء الأول من موسوعته، سنوضحها في المخطط التالي:



شكل رقم13: يوضح مهمات صاحب ديوان الإنشاء

قراءة تحليلية للشكل:

بالنسبة للمهمة الأولى، تتمثل في التوقيع على الرسائل والشكاوي، وقد وُكلت له هذه المهمة، أما المهمة الثانية النظر في الكتب الواردة عليه واعداد الأجوبة عن هذه الكتب واختص بها لكون الخليفة لا يملك الوقت الكافي لقراءة جميع الرسائل القادمة إليه من جميع الأقطار، والمهمة الثالثة النظر فيما يتعلق برده الأجوبة عن الكتب

الواردة على لسانه، فيقترح عليه الردود المناسبة والصائبة، المهمة الرابعة النظر فيما تتفاوت به الرتب في الرسائل والمكاتبات من الافتتاح والدعاء والألقاب ونوع الورق وقطعه ونحو ذلك، فيضع لكل أحد من المكاتبين لقبا يناسبه، المهمة الخامسة النظر في كل ما يخرج من الديوان من مكاتبات وتصفحها قبل خروجها، فيتولى تصفح ما يكتب من ديوانه من الولايات والمناشير والمكاتبات، فيجب أن يكون كل ما يكتب عن الملك كاملا خاليا من الخطأ واللحن فربما يخطئ الكاتب في شيء فيلحق الضرر بصاحب الديوان والخليفة بل الدولة بأسرها، و المهمة السادسة النظر في أمر البريد ومتعلقاته، وهو من أعظم مهمات السلطان، لذلك وجب عليه أن يكون فطنا لما يرد على السلطان من نواحي ممالكه لكونه المعتمد عليه الأول في هذا الأمر، المهمة السابعة نظره في أمر أبراج الحمام ومتعلَّقاته، وهو ما يعرف باسم الحمام الرسائلي يحمل البطائق في أجنحته من مكان إلى مكان، المهمة الثامنة نظره في الأمور الفداوية، طائفة من الشيعة سموا كذلك لأنهم يفادون بالمال على من يقتلونه، المهمة التاسعة النظر في أمر العيون والجواسيس، فيتولى صاحب الديوان اختيار رجاله وتصريفهم واشترطوا له شروطا من الثقة والصدق بالنصيحة، والحدس الصائب والفراسة التامة، عارفا بلسان أهل البلد الذي يتوجه إليه، المهمة العاشرة نظره في أمور القُصَّاد الذين يسافرون بالملطفات من الكتب عند تعذر وصول البُرُد إلى ناحية من النواحي، حيث ينتدب صاحب الديوان بأمر من السلطان شخصا يعرفه بسرعة المشي وشدة العدو للسفر ليوصل ذلك الملَّطف إلى المكتوب إليه والإتيان به في حيل انقطاع خيل البريد من المركز السلطانية، و المهمة الحادية عشر النظر في أمر المناور والمحرقات، هذه المهمة كانت وقت المعارك بين ملوك مصر وملوك التتار، والمهمة الأخيرة النظر في الأمور العامة مما يعود نفعه على السلطان والمملكة، فيطلع على

جميع الأخبار الجالبة للنفع أو دفع الضر عن المملكة وإخبارها للسلطان في أسرع وقت[1].

4. مصطلح أرباب الوظائف الديوانية:

الوزارة: قال عنها القلقشندي: "وهي أجَّلُ الوظائف وأرفعها رتبة في الحقيقة لو لم تخرج عن موضوعها ويعدل بها عن قاعدتهما"[2].

كتابة السر: قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها، وتصريف المراسيم ورودا وصدرا، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها.

نظر الجيش: التحدث في أمر الإقطاعات بمصر والشام والكتابة بالكشف عنها ومشاورة السلطان عليها وأخذ خطه.

نظر الدواوين: هو ما عرف باسم ناظر الدولة مهمته التحدث في كل ما يتحدث فيه الوزير، وكل ما يكتب فيه الوزير كتب فيه هو.

صحابة ديوان الأحباس: صاحبها يكتب في كل ما يكتب فيه ناظر الأحباس[3]. هذه المناصب تعكس تنظيم الدولة الإسلامية في تنفيذ وصناعة القرارات والتوثيقات.

---

[1] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشاء، 129/1-110.

[2] المرجع نفسه، 28/4.

[3] ينظر: المرجع نفسه، 34/4.

5. مصطلح أرباب الأقلام:

أطلق القلقشندي مصطلح أرباب الأقلام وعبر به عن كل من أنشأ وكتب المكاتبات؛ أي لم يربط هذه الصناعة بالكاتب فقط، فعلا فالكاتب يكون في الغالب وسيطا فقط ويكتب للمسؤولين في الدولة والدواوين، حددهم القلقشندي وهم:

القاضي عرفه القلقشندي وهو عبارة عمن يتولى فصل أمور بين المتداعين في الأحكام الشرعية.

المحتسب: عبارة عمن يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتحدث في أمر المكاييل والموازين ونحوهما[1].

الكاتب: تم تعريفه فيما سبق.

وأطلق على بعض المصطلحات من مثل الخليفة، السلطان إلى غير ذلك مصطلح أرباب السيوف، صحيح كانوا هم المسؤولون عن تولي شؤون الدولة وقيادتها وحمايتها بالسلاح وبكل الوسائل الممكنة؛ لكن من ناحية أخرى يوجد العديد من المكاتبات الرسمية التي حررها الخلفاء في العصر العباسي وكل من كان في رتبهم أو من يتبعهم كالأمراء والوزراء وغيرهم، كمكاتبات الفتوحات والبيعات وغيرها في بعض الحالات كان الخليفة من يكتبها بنفسه دون العودة لكاتبه الخاص، وهكذا عرفهم القلقشندي:

الخليفة: هو لقب على الزعيم الأعظم القائم بأمور الأمة.

الملك: هو الزعيم الأعظم ممن لم يطلق عليه اسم الخلافة.

[1] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، 451/5.

السلطان: اسم خاص في العرف العام بالملوك أول من لقب به خالد بن برمك، وزير الرشيد لقبه به الرشيد تعظيما له.

الوزير: المتحدث للملك في أمر مملكته.

الأمير: زعيم الجيش أو الناحية ونحو ذلك ممن يوليه الإمام[1]. فرق بين أرباب الأقلام وأرباب السيوف للإشارة إلى الوظائف العسكرية والسياسية العليا في الدولة. يعكس هذا التمييز بين من يتولى القيادة العسكرية والسياسية ومن يتولى الكتابة والتوثيق. مما يوضح التنظيم الدقيق للإدارة في الدولة الإسلامية ويبرز أهمية كل منصب في تسيير شؤون الدولة والحفاظ على نظامها.

6. مصطلح كاتب الانشاء:

مصطلح مركب من جزئين، الأول كاتب، والثاني إنشاء(سبق تعريفهما).

يختص كاتب الانشاء بالسلطان وقربه منه وإعظام خواصه واعتمادهم في المهمات عليه، وقد قال بعض الحكماء: الكُتَّاب كالجوارح كل جارحة منها ترفد الأخرى في عملها بما به يكون فعلها، وكاتب الإنشاء بمنزلة الروح الممازجة للبدن المدبرة لجميع جوارحه و حواسه[2].

رصد القلقشندي، مسار تطور مصطلح الكاتب عبر عصور مختلفة، حددهم في المصطلحات التالية:

[1] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشا، 5/444-450.

[2] المرجع نفسه، 1/56.



شكل رقم14: يوضح وظائف كُتَّاب الإنشاء.

أول ما يجب الإشارة إليه، هو أنه كما لاحظنا في مصطلح "الكاتب" خلال العصور التي سبقت القلقشندي، كان كاتب الرسائل أو المكاتبات يُطلق عليه فقط باسم الكاتب. أمَّا مع تطور الدواوين، وخاصة ديوان الإنشاء الذي كان يُعرف كما قلنا فيما ما سبق بديوان الرسائل، توزعت مهمة كتابة المكاتبات على ثلاث كُتَّاب اصطلح عليهم القلقشندي باسم كُتَّاب الإنشاء لكل واحد منهم وظيفة مختص بأدائها.

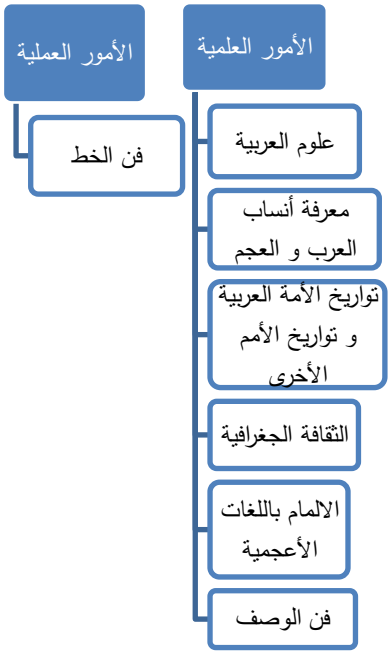
بالنسبة لمصطلح الكاتب، ربط استعماله بعصر بني أمية؛ أمَّا مصطلح كاتب الدَّست كانوا يلقبونه بالديار المصرية(فترة الحكم العباسي بالقاهرة من 1261م إلى غاية 1517م)، وكاتب الدَّرج عبروا استعملوه أوائل الدولة التركية، أما بخصوص مصطلح كاتم السر، هو صحيح المعنى، حيث استبدل العامة حرف الباء بميم فأصله كاتب السر، فسموه كاتم السر إما لأنَّه يكتم سر الملك، أو من باب إبدال الباء بالميم على لغة ربيعة[1].

[1] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشا، 1/104-103.

نشير كذلك لكون مصطلح الدَّست فارسي معرب، فارسيتها دَسْت أخذتها العرب وتصرفت بها، حيث قال الحريري في مقامته الشعرية: " نشدتك الله ألست الذي أعاره الدَّست (الثوب). فقلت له لا والذي أحلَّك في هذا الدَّست(المجلس)[1].

6.1 ثقافة كاتب الإنشاء:

نظر أبو العباس إلى ثقافة الكاتب الديوانية على أنَّها قسمان كبيران هما:



شكل رقم15: يوضح احتياجات كاتب الإنشاء من ثقافة علمية وعملية[2]

قراءة تحليلية للشكل:

حرص القلقشندي، كالكتاب الذين سبقوه في مجال الكتابة الديوانية على حرص الكاتب التعلم والالمام بمعارف عدة، كما هي موضحة في المخطط أعلاه، وقد أطال

[1] ادَّى يشير، الألفاظ الفارسية المعربة، ص63.

[2] ينظر: عبد اللطيف حمزة: القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1977م، ص 89-85.

القلقشندي الحديث كثيرا بخصوص هذه العلوم، سنلخص كل علم وسبب حرصه على تعلمه واتقانه من طرف الكاتب:

اللغة العربية: هي رأس مال الكاتب، وأسُّ كلامه، فيحتاج لمعرفة كل ما يخصها من الأسماء والأفعال والحروف، ووضعها في مواضعها اللائقة لكون الألفاظ قوالب للمعاني التي يقع التصرف فيها بالكتابة، وفصَّل لكل علم من علوم اللغة العربية على حده تمثلت في: **معرفة اللغات العجمية من تركية وفارسية ورومية** وفرنجية وغير ذلك، لكون الكاتب هو من يتولى الاطلاع على الرسائل الواردة للملك فمن الضروري أن يعلم لغة هذه الكتب دون العودة لترجمان ليحفظ بذلك أسرار الدولة. **المعرفة بالنحو:** لكونه قانون اللغة العربية وميزان تقويمها فبمعرفته له يأمن من اللحن. **المعرفة بالتصريف:** فيجب على الكاتب معرفة أصل الكلمة وزيادتها وحذفها وإبدالها فيتصرف فيها بالجمع والتصغير والنسبة وغير ذلك، حتى لا يدع مجالا للطعن والشك في كتابه. **المعرفة بعلوم المعاني والبيان والبديع:** فكل هذه العلوم يحتاجها في صناعة كتابته لكونها عمود الفصاحة والبلاغة فبتمكن الكاتب منها سيتوصل لفهم الخطاب وإنشاء الجواب.

حفظ كتاب الله العزيز: فيجب على الكاتب أن يكون ملازما لحفظ القرآن الكريم وتدبر معانيه ليستشهد بآياته في رد أجوبته. **حفظ الأحاديث:** فلا بد عليه من الإكثار من حفظ الأحاديث النبوية الشريفة خاصة ما تعلق منها بالسير والمغازي والأحكام ليستشهد بكل شيء في موضعه. **حفظ خطب البلغاء:** لكونها من مستودعات سر البلاغة وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة، وعلى طريق الخطباء مشت الكُتَّاب. **حفظ الأشعار:** كذلك للاستشهاد بها وتضمينها ضمن ردوده حسب المقام الذي يكتب فيه لما بتمتع به الشعر من فصاحة الألفاظ وبلاغة المعاني وقوة الإقناع. **حفظ الأمثال:** واستعمالها هي

أيضا للاستشهاد. قد فصَّل كثيرا القلقشندي في كل علم من علوم اللغة العربية مع التمثيل والاستشهاد، وكيف يستفيد الكاتب من كل علم وكيف ينتفع به في صناعة رسائله(للاستزادة أكثر يمكن العودة للجزء الأول من الكتاب من المقالة الأولى).

6.2 وظائف كتاب الإنشاء:

حدد الوظائف في الزمن المتقدم(العصر الأموي، العصر العباسي)، إلى سبع وظائف رئيسة:

كاتب المكاتبات والولايات: يتولى إنشاء المكاتبات والولايات، فتتصدى للإنشاء ملكته وغريزة طبعه فهو أجَّل كُتَّاب الديوان وأرفعهم درجة لأنَّه يتولَّى الإنشاء من نفسه.

كاتب الملوك: يكتب مكاتبات الملوك، ومن شروطه أن يكون على دين الملك الذي يكتب عنه ومذهبه لما يحتاج إليه في مكاتبة الملك المخالف من الاحتجاج على صحة عقيدته.

كاتب أهل الدولة وكبارئها: يكتب مكاتبات أهل الدولة وكبارئها، وولاتها، ووجوهها من النُوَّاب والقضاة والكتاب والمشارفين والعمال.

كاتب المناشير: يكتب المناشير والكتب اللطاف والنَّسخ وهذه الوظيفة مرتبطة بالكاتب السابق ومن شروطه الأمانة وكتم الأسرار.

كاتب مبيض: يبيض ما ينشئه المنشئ مما يحتاج إلى حسن الخط، كالعهود والبيعات ونحوها، من شروطه أن يكون حسن الخط مع كتمان السر ونزاهة النفس.

كاتب متصفح للمكاتبات: مهمته تصفح ما يُكتب في الديوان من إنشاءات وتقاليد ومكاتبات وسائر ما ينشئ في ديوانه.

كاتب التذاكر والدفاتر: يكتب التذاكر والدَّفاتر المضمنة لمتعلقات الديوان عبارة عن تذاكر تشمل على مهمات الأمور التي تنهى في ضمن الكتب(من كتاب فلان الوالي، بتاريخ كذا، مضمونة كذا، أجيب عنه بكذا أو لم يجب، إضافة إلى ترتيب أسماء الولاة ومخاطبتهم ومكاتبتهم[1].

فنلاحظ تطور مفهوم مصطلح الكاتب مع أول نشأة ديوان الرسائل، بعدما كان كاتب واحد يكتب الرسائل ويُشرف عليها، ويتولى تسيير شؤون الديوان، فأدَّى تطور ديوان الإنشاء إلى تزايد الحاجة إلى الكتاب وكل واحد منهم يتولى أداء وظيفة خاصة به، وظهور وظائف جديدة خاصة بكاتب الانشاء من غير إنشاء المكاتبات، وظيفته الأصلية، كاتب يتصفح هذه المكاتبات لكي يضمن سلامتها من الخطأ واللحن لكونها صادرة عن ديوان خاص بمراسلات الدولة، وكاتب يزين هذه المكاتبات بحسن خطه، فالخط أول ما يُلاحظ على المكاتبة حتى قبل قراءتها، وكاتب يُجمل كل معلومات المكاتبة من المكتوب، والمكتوب إليه، والتاريخ، وترتيب المكاتبات حسب التاريخ وغير ذلك في دفاتر خاصة بها، مما يسهل على الخليفة الاطلاع على مضمون المكاتبات الواردة إليه حتى دون قراءة مضمونها كاملة، وكلُّ وظائف هؤلاء الكتاب من أهم شروطهم النزاهة، الأمانة، حسن الخط، كتمان السر، وهذه الصفات كلها وضعها عبد الحميد الكاتب كما رأينا في رسالته للكتاب. يعكس لنا تطور دور الكاتب أهمية

[1] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشا، 1/134-130.

المكاتبات في الإدارة الحكومية والدور الحيوي للكتاب في حفظ دقة وسلامة المراسلات الرسمية.

6.3 صفات كتاب الأنشاء:

وضع القلقشندي كغيره ممن كتب في صناعة الكتابة، صفات يجب على الكاتب التحلي والالتزام بها، تمثلت فيما يلي:

أن يكون مسلما لكونه لسان المملكة فلا يجوز أن يولى أحد من أهل الكفر، هذا الأمر أوجبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص يأمره أن لا يستعمل في عمل من أعمال المسلمين كافرا. وذكرا ليس أنثى، حرا ليس عبدا، مكلفا لا صبيا، عادلا لا فاسقا لكونه ذو مرتبة كبيرة يحكم بها في أرواح الناس وأموالهم، فلو زاد كلمة أو حذف أو كتم شيئا وأول لفظا غير معناه أدَّى ذلك إلى وقوع ضرر يمس الدولة. بليغا لأنه لسان السلطان الذي ينطق به، ويده التي يكتب بها، فيأتي بالمعاني الجزلة مع الألفاظ السهلة. جزيل العقل لأنه من لا عقل له لا انتفاع به، فبتمام عقله ورأيه يضع الألفاظ في المكاتبات في مواضعها. عالما بالأحكام الشرعية والفنون الأدبية. قوي العزم وعلو الهمة وشرف النفس، فيظهر أثر ذلك مكاتبته للملوك. كافيا لما يتولاه لكي لا يدخل الضرر على المملكة[1].

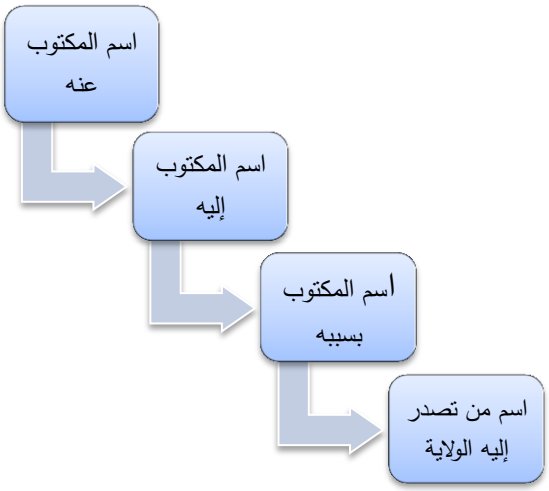
كل هذه الصفات التي أوردها، وضعها قبله عبد الحميد الكاتب كما رأينا في الفصل السابق، باختصار الكاتب يجب أن يتحلى بكل الأخلاق التي جاءت بها الشريعة الإسلامية، هذا مما يدل على قوة الوازع الديني وجعله المصدر الأول لاختيار الكتاب

[1] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشا، 1/61-67.

ومنحهم مناصب رائدة في قيادة أمور السلاطين في دولتهم. هذا يظهر كيف أن الدين كان له دور كبير في تشكيل الأخلاقيات المهنية في ذلك الوقت.

المبحث الثاني: حقل مصطلحات المكاتبات:

أول ما نشير إليه، استعمل القلقشندي مصطلح المكاتبات بدلاً من مصطلح الكتاب أو الرسالة كما رأينا ذلك مع عبد الحميد وابن المدبر، في كل أجزاء موسوعته، وحدد أطراف صناعة المكاتبة، سنوضحها في المخطط التالي:



شكل رقم16: يوضح أطراف صناعة المكاتبة عند القلقشندي

قراءة تحليلية للشكل:

هذا التقسيم حسب ما حدده القلقشندي، فالقلقشندي إذا قسَّم أطراف المكاتبة على أربع أشخاص، بدأ مع:

1. **اسم المكتوب عنه:**

يذكر في أول المكاتبة إذا كانت المكاتبة من صورة من فلان إلى فلان. فيكون ذكره في موضع الخضوع والتواضع. كما كان يُكتب منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من محمد رسول الله إلى فلان كذا.

2. اسم المكتوب إليه:

فيكتب في ابتداء المكاتبة كما يُكتب في بعض المكاتبات من فلان إلى فلان أو إلى فلانٍ من فلان، وفي بعض المكاتبات قد لا يصرَّح باسمه تعظيما عن التفوه بذكره، فترك ذكر الاسم في زمانهم دليل التعظيم والتوقير، أو يُكتب في عنوان بعض المكاتبات مطالعة المملوك فلان. [1] مثل كتاب المتوكل(ت 247هـ) بولاية العهد لبنيه: " هذا كتاب كتبه عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين، وأشهدَ على نفسه بجميع ما فيه، من حضَر من أهل بيته وشيعته وقُوَاده وقضاته وكُفاته وفقهائه وغيرهم من المسلمين، لمحمد المنتصر بالله ولأبي عبد الله المعتز بالله، وإبراهيم المؤيد بالله بني أمير المؤمنين"[2]. ففي هذه المكاتبة(المكتوب عنه هو المتوكل على الله، والمكتوب إليه هو المنتصر بالله).

3. اسم المكتوب بسببه:

لا بد من التصريح باسم ليعرف، إلاَّ في حالة إذا كان مشهورا تغني شهرته عن ذكر اسمه، وله حالتان: فيكتب هذا ما عهد به الخليفة فلان في خلافته، أو يذكر في صدر الولاية حيث يقال: هذا ما عهد به عبد الله ووليه فلان[3]. مثلما جاء في عهد الموفق(ت

[1] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشا، 5/428-427.
[2] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 4/144.
[3] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشا، 5/429.

278هـ) إلى أحد الولاة: "هذا ما عهد به أبو أحمد الموفق بالله ولي عهد المسلمين، إلى فلان، حين ولاَّه الصلاة بأهل كورة الري ودونباوند ونواحيها والحرب والأحداث بينهما... "[1].

4. اسم من تصدر إليه الولاية:

وله محلان، إمَّا في العهود هذا ما عهد فلان إلى فلان، أو أثناء الولاية فيكتب أن يُفوَّض إلى فلان[2]. مما يعكس دقة وتنظيم القلقشندي في تناول موضوعات المكاتبات الرسمية، ويبرز أهمية ترتيب المعلومات وفق تقاليد ثابتة لضمان وضوح الرسائل الرسمية وتقدير الأطراف المعنية بها. كذلك فصَّل في العناصر التشكيلية لبنية الرسالة الديوانية.

5. مصطلح الفواتح:

استخدم هذا المصطلح ابن المدبر؛ لكن على وزن افتعال(افتتاح، تم تعريفه)، أي ما تتفتح بها الرسالة أو المكاتبة، اتفقوا على استخدام العبارات التالية:

البسملة: من قبل البعثة كانت قريش تكتب باسمك اللهم، ولازالت الكتب تفتح باسمك اللهم حتى نزل قوله تعالى: " إنَّه سليمان وإنَّه بسم الله الرحمن الرحيم" كما قلنا سابقا افتتح بها الرسول صلى الله عليه وسلم وبعده أصبحت سنة، وقد حثَّ الرسول صلى

[1] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 334/4.

[2] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، 430/5.

عليه وسلم على تحسينها تعظيما لله تعالى، كما يجب تقديمها في أول الكلام تبركا بها[1].

كما جاء في رسالة الخليفة العباسي المدعو بالمعتز(ت255هـ): "بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أشهد عليه الشهود المسمَّوْن في هذا الكتاب، شهدوا أن أبا عبد الله ابن أمير المؤمنين المتوكل على الله أقرَّ عندهم وأشهدهم على نفسه، في صحة من عقله، وجواز من أمره، طائعا غير مكره، أنَّه نظر فيما كان تقلَّده من أمر الخلافة والقيام بأمر المسلمين، فرأى أنَّه لا يصلح لذلك ولا يكمل له... "[2].

الحمدلة: اصطلح الكتاب على الابتداء به في الكثير مما يكتبونه من المكاتبات والولايات والبيعات والعهود والتقاليد. لقوله صلى الله عليه وسلم: "كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم"، وتستعمل بثلاث صيغ: " يحمده أمير المؤمنين" إذا كان صادرا عن الخليفة في مكاتبة أو غيرها، " نحمده" تستعمل في بيعة خليفة، أو بصيغة "أحمده" إذا كان صادرا عن واحد فقط. وقد يضاف لها التشهد " نشهد"[3]. مثلما كتب محمد بن مكرم إلى إبراهيم بن المدبر: " الحمدلله رب العالمين، حمدا يجوز حمد الحامدين"[4].

[1] ينظر: المرجع السابق، 217/6.

[2] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 311/4.

[3] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشا، 226/6. 225.

[4] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 242/4.

في الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه في أوائل الكتب: تكون أيضا في أوائل الكتب وصدور المكاتبات، فإن أتى الحمد في أول الكلام ناسب أن يؤتي بعده الصلاة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم[1].

في السَّلام: جعل في أول صدور الكتب لأنَّه تحية الإسلام المطلوبة لتأليف القلوب، قد تأتي في أول الكتاب أو آخره[2]. مثلما كتب المعتصم الخليفة العباسي حين صارت له الخلافة سنة 218هـ، إلى عبد الله بن طاهر: "عافانا الله وإياك، قد كانت في قلبي منك هفوات غفرها الاقتدار، وبقيت حزازات أخاف منها عليك، عند نظري إليك، فإن أتاك ألف كتاب أستقدمك فيه فلا تقدم، وحسبك معرفة بما أنا منطوٍ لك عليه، إطلاعي إيَّاك على ما في ضميري منك والسَّلام"[3].

في أمَّا بعد: تستعمل في صدور المكاتبات وربما تستعمل مباشرة في ابتدائها، وتقع في كلام العرب لتوكيد الخبر[4]. مثل كتاب عن المنتصر إلى طاهر بن عبد الله: "أمَّا بعد، تولَّى الله توفيقك وحياطتك، وما يرتضيه منك و يرضاه عنك... "[5].

6. مصطلح الخواتيم:

أطلق القلقشندي على الجزء النهائي للرسالة مصطلح الخواتيم، كما استعمله قبله ابن المدبر لكن بصيغة اختتام(تم تعريفه فيما سبق). بالنسبة لخواتيم المكاتبة حدد لها العبارات التالية:

---

[1] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشا، 227/6.

[2] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشا، 229/6.

[3] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 1/4.

[4] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشا، 231/6.

[5] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 180/4.

إن شاء الله: يرى القلقشندي أنَّه يستحب للكاتب عند انتهاء ما يكتبه، من مكاتبة وغيرها أن يكتب إن شاء الله تعالى تبركا وورغبة في نجاح الكتاب، فهي أول خاتمة من خواتم المكتوب، فمحلها من الدَّرج أسفلُ المكتوب، في وسط الوصل مكتنفة ببياض عن يمينها وشمالها، وبينها وبين السَّطر الآخر من المكتوب كما بين سطرين أو من دونه[1]. مثل كتاب المعتز(ت255هـ) ولي العهد إلى طاهر بن عبد الله: "(...)، واستصحب في أمورك كلها نية الشاكر عند النعمة، والراضي عند المحنة، تزد وتُكْفَ إن شاء الله"[2].

7. مصطلح التاريخ:

يُكتب التاريخ بعد الاختتام مباشرة، فتؤرخ المكاتبة ولا غنه للكاتب عن ذلك وخاصة إذا كانت المكاتبة صادرة عن خليفة أو ملك أو أمير أو نائب أو وزير. فكتب السلطان والكبراء تؤرخ بالليالي والكتب الصادرة من الأدنى إلى الأعلى تؤرخ بالأيام فتقول كتب في أوَّل ليلة من ضهر كذا أو لنصف شهر كذا. وعلى الكاتب أن يعرف الشهور العربية التي تبدأ بشهر ربيع الأول وتنتهي بذي القعدة وأن يعرف الشهور الفارسية والرومية والسريانية والقبطية ويعرف كيف يحول التواريخ العربية إلى هذه الشهور[3].

بالنسبة لموضع التاريخ، في الكتب السلطانية عندما يكون الحدث عظيما كالفتوحات والمواسم يؤرخ في صدره فيكتب كتاب أمير المؤمنين إليك يوم كذا من سنة كذا؛ أمَّا عند الحدث العادي فيؤرخ في آخره وفي الغالب يكتب بعد ان شاء الله فيكتبون

[1] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشا، 232/6.

[2] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 181/4.

[3] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، 192/6. 193.

كذا من شهر كذا في سطر ثم يكتبون سنة كذا[1]. مثل كتاب المتوكل إلى عماله في النصارى وأهل الذمة، فكتب التاريخ في أول وآخر المكاتبة، وفي سنة 235هـ كتب المتوكل إلى عُماله في الآفاق، بشأن النصارى وأهل الذمة، ثم أرَّخ في نهاية الكتاب وكتب إبراهيم بن العباس في شوَّال سنة خمس وثلاثين مائتين[2]. قد يأتي التاريخ أيضا على هذه الصيغة: "وكُتب يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذي القعدة 253هـ"[3].

كان الكتاب الذي لا يُكتب فيه التاريخ يعد مبهما كما الفضل بن حباب إلى إبراهيم بن العباس لما كاتبه فأغفل التاريخ، فكتب له: "وصل كتابك ـ أعزَّك الله ـ مبهم الألوان، مظلم المكان، فأدَّى خبرا ما القُرب فيه بأولى البعد، فإذا كتبت ـ أكرمك الله تعالى ـ فلتكن كتبك موسومة بتاريخ، لأعرف أدنى آثارك، وأقرب أخبارك، إن شاء الله تعالى"[4].

8. مصطلح المستند:

مصطلح جديد، أضافه القلقشندي لعناصر صناعة المكاتبة، يقال" قد سند إلى الشيء يسنده سنودا واستند وتساند وأسندْ وأسندَ غيره"[5]. والمستند إذا أن تُسند الرسالة إلى صاحبها، يكتب بعد التاريخ مباشرة يُضاف المستند، فيقول كُتب في تاريخ كذا حسب الأمر الشريف أو بالإشارة الفلانية . قد يُضاف بعد المستند الحمدلة عن يمنة الدَّرج، كذلك كتابة الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم تُكتب عادة بعد الحمدلة،

[1] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، 261/6.
[2] ينظر: أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 139/4. 143.
[3] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 311/4.
[4] المرجع نفسه، 192/4.
[5] ابن منظور، لسان العرب، 220/3.

فيفصل بياض بينهما فتكون الحمدلة في أول السطر والتَّصلية في آخره، وقد يكتبون حسبي يا الله ونعم الوكيل بعد الحمدلة والتصلية[1]. مثلما كتب المعتز في نهاية كتابه عندما خلع نفسه عن الخلافة: " أقرَّ أبو عبد الله بجميع ما في هذا الكتاب وكتب بخطه"[2].

بناءً على ما تقدم، فيكون شكل الرسالة حسب ما قدمه القلقشندي هكذا:

قد تفتح المكاتبة بـ " بسم الله الرحمن الرحيم أو السلام عليكم"، ثم يحمد كاتب الرسالة الله تعالى ويصلي ويسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم. بعدها تأتي عبارة "أما بعد"، ويتبعها ذكر الأطراف المتبادلة للرسالة، مثل " من فلان إلى لفلان" أو "هذا ما عهد به الخليفة فلان في خليفته". في نهاية الرسالة، تُختم بعبارة "إن شاء الله"، ويُذكر التاريخ، مثل" كتب في شهر كذا من سنة كذا"، مشيرًا إلى أن الرسالة تمت كتابتها وفقًا للأمر الشريف من الخليفة.

9. أصول المكاتبات:

في المقدمات:

أول ما اشترطه القلقشندي في هذا الأمر حسن الافتتاح، إما بالحمدلة أو بالسلام لكون أمر المكاتبات مبني على تألف القلوب، مما يقتضيه حسن الافتتاح أيضا سهولة اللفظ وصحة سبكه ووضوح معناه وتجنب الحشو[3]. مثلما جاء في رسالة المهتدي: " بسم الله الرحمن الرحيم، والحمدلله وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم

[1] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، 270/6.

[2] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 311/4.

[3] ينظر القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، 274/6.

تسليما كثيرا، أرشدنا الله وإياكم، وكان لنا ولكم وليا و حافظا. . . "[1]. والبعض من المُكاتبات فُتحت بالحمدلة نذكر منها كتاب إبراهيم بن المهدي إلى المعتصم: " الحمدلله الذي تمَّم لأمير المؤمنين غَزْوتَه، فأذلَّ بها رقاب المشركين، وشفى بها صدور قوم مؤمنين"[2].

براعة الاستهلال:

فيسهل كلامه حسب الموضوع الذي يكتب فيه فإذا يكتب في التهنئة أتى أول ما يدل على التهنئة ليعلم من بداية الكتاب ما المراد منه وفي التعزية كذلك يأتي بما يدل عليها[3]. مثل كتاب الحسن بن وهب إلى القاسم بن الحسن بن سهل، يعزيه: " مدَّ الله في عمرك، موفورا غير منتقصٍ، وممنوحا غير ممتحنٍ، ومعطىً غير مستلبٍ"[4].

نجد كذلك براعة الاستهلال في كتاب المعتصم بالله يهدده: " بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع، وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار"[5].

معرفة مواقع الدعاء في المكاتبات: فيدعو بكل دعاء في موضعه، ويأتي الدعاء على صيغ عديدة ويجب على الكاتب أثناء الكتابة يراعي طريقة الدعاء المناسبة لقدر المكتوب إليه، يمكن تلخيصها فيما يلي:

---

[1] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 313/4.

[2] ينظر: أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 8/4.

[3] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، 276/6.

[4] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 28/4.

[5] المرجع نفسه، 8/4.

الدعاء بإطالة البقاء والسلطان للملوك[1]. مثل في كتاب المتوكل في الاعلان عن لقبه فكتب عنه محمد بن عبد الملك الزيات، فكتب إلى الناس: "بسم الله الرحمن الرحيم: أمر ـ أبقاك الله ـ أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ أن يكون الرسم الذي يجري به ذكره على أعواد منابره، وفي كُتبه إلى قضاته وعماله وأصحاب دواوينه وغيرهم من سائر من تجرى المكاتبة بينه وبينه: "من عبد الله المتوكل على الله أمير المؤمنين"[2].

الدعاء بعز الأنصار للأمراء، الدعاء بسبوغ النعمة إلى الوزراء وأرباب الأقلام، الدعاء بعز الأحكام وتأييدها إلى القضاة والحكام، الدعاء بمزيد من الإقبال للتجار؛ أمَّا أهل الكفر فقد اصطلحوا على الدعاء لهم بطول البقاء وما في معناه.

وقد كرهوا استعمال بعض الأدعية من مثل: جعلني الله فداك، قدمني إلى السوء دونك، بما في ذلك من التصنع والتَّملق الذي لا يرضاه السلطان لأنَّ نفس الدَّاعي لا تسمح باستجابته[3].

مراعاة مواقع آيات القرآن والسَّجع في الكتب وذكر أبيات الشعر في المكاتبات: بالنسبة أولا لآيات القرآن تذكر في صدر الكتاب؛ فيختار الآية المناسبة للوقائع أثناء الكتابة[4]. مثلا في كتاب المتوكل إلى عماله في النصارى وأهل الذمة، يعلمهم الإسلام وحدوده وكيف ينهي عن المنكر وما يجوز وما لا يجوز فاستعمل الآيات المناسبة لهذا الموضوع فكتب قوله تعالى: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ويعظكم لعلكم تذكرون"، كذلك كتب لهم الآية التي حرم

[1] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشا، 284/6.
[2] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 138/4.
[3] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشا، 287/6-285.
[4] ينظر: المرجع السابق، 306/6.

الله فيها رديء المطعم والمشرب ليطهر بها عباده المسلمين، فكتب قوله تعالى: "حرمت عليكم الميتة والدَّم ولحم الخنزير وما أُهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلاَّ ماذكيتم وما ذُبح على النُّصب وأن تستسقموا بالأزلام ذلكم فسق"[1].

الشعر يورد حيث يحسن إيراده ويمنعه حيث يحسن منعه فليس كل مكاتبة يحسن فيها إيراد الشعر بل يختلف الحال بحسب المكتوب عنه والمكتوب إليه[2]. مثلما كتب رجل إلى المتوكل، وقد أهْدى إليه قارورة من دهن الأترج، فقال له بعد:

ما قصَّرت همةٌ بَلَغْتُ بها بَابك يا ذا النداء والكرمِ

حسبي بودك إنْ ظَفَرْتُ به ذُخرا و عزا يا واحد الأمم[3]

المبحث الثالث: حقل مصطلحات الخط وأدوات الكتابة الديوانية:

1. مصطلح الخط:

الخط، كما رأينا مع عبد الحميد وابن المدبر، من أهم الأمور التي حرص على تعلمها الكتاب، وكل من يخوض هذه الصناعة من أهم الشروط التي لا يمكن للكاتب التهاون فيها، وقد رأينا كيف مدحه ابن المدبر مطولا، ولم يخالفهما القلقشندي في هذا الأمر، جرى نفس مجراهما على توكيده لأهميته في كتابة المكاتبات. فقال عنه القلقشندي: "لا خفاء أن حسن الخط من أحسن الأوصاف التي يتصف بها الكاتب،

[1] ينظر: أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 139/4.

[2] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشا، 307/6.

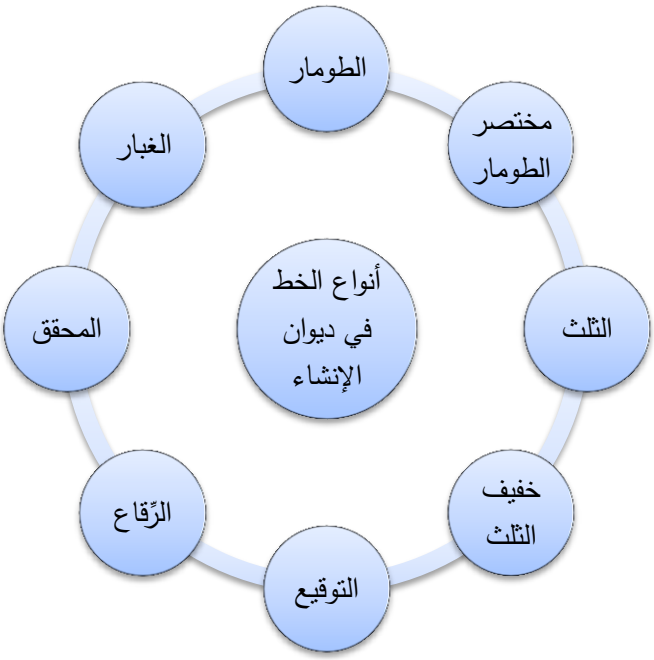
[3] ينظر: أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 193/4

وأنَّه يرفع قدره عند الناس، ويكون وسيلة إلى نُجْح مقاصده، وبلوغ مآربه؛ مع ما ينضم إلى ذلك من الفوائد التي لا تكاد تحصى كثرة"[1]. وفعلا، كما قال فالخط الوسيلة الأولى التي تُمَّكن الكاتب من الحصول على منصب في الدواوين التابعة للدولة وتعلي من قدره ومن يتتبع تاريخ الخط العربي يلاحظ من تفننوا في صناعة الخط، فكما أطلقوا على الكتاب والإنشاء صناعة فالخط كذلك لما يحتاج من تعلم مهارات بكتابة أشكال الحروف المختلفة، وكيف تنوعت مواد صنعه من أقلام وأوراق، رأينا ذلك مع أدوات الكتابة مع ابن المدبر؛ إلاَّ أنَّ القلقشندي فصَّل في موضوع صناعة الخط كثيرا في الجزء الثالث من الموسوعة، من أنواع الخط، وأنواع الأوراق وحجمها، وكل خط وما يناسبه من الأوراق، وكيفية كتابة كل حرف على حده حسب نوع الخط. أمور لو فصلنا فيها جميعها ستحتاج كتابا لوحده؛ لكن اخترنا مجموعة من أنواع الخطوط، مع أنواع الأوراق والأقلام، ومن يريد الاستزادة حول هذا الموضوع يستطيع العودة للجزء الثالث من الكتاب. بالنسبة لأنواع الخطوط حدد القلقشندي أنواع الخط المستعملة في ديوان الإنشاء ثمانية: الطُّومار، مختصر الطُّومار، الثلث، خفيف الثلث، التوقيع، الرقاع، المحقق، الغُبار[2].

قد فصَّل في كل خط على حده في كيفية الكتابة به وأعطى نماذج لشكل كل خط؛ لكن سنركز على مايهمنا الخطوط واستعمالاتها فقط من خلال تلخيصها من خلال الشكل التالي:

[1] القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، 24/3.

[2] القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، 52/3.



شكل رقم16: يوضح أنواع الخط في ديوان الإنشاء

قراءة تحليلية للشكل:

أول ما يجب الإشارة إليه، هو أن كل خط لديه قلم خاص به ويُكتب به، ويحمل اسمه. فمثلا خط الطومار يكتب به في ورق الطومار، ومختصر الطُّومار يكتب به في قطع البغدادي الكامل، وقد كَتب به كتاب الإنشاء في عهود الملوك عن الخلفاء، والمكاتبات إلى القانات العظام من ملوك بلاد الشرق، قلم الثُّلث يكتب به في قطع الثلثين، والثلث الخفيف يكتب به في قطع النصف، قلم التوقيع سمي بذلك لأنَّ الخلفاء والوزراء كانت توقع به على ظهور القصص، قلم الرقاع جمع رقعة المراد الورقة الصغيرة التي تكتب فيها المكاتبات اللطيفة والقصص وما في معناها، وقلم الغُبار سمي بذلك لدقته، كأنَّ النظر يضعف عن رؤيته لدقته كما يضعف من رؤية

الشيء عند توازن الغبار وتغطيته له وهو الذي يكتب به بطائق الحمام التي تحمل على أجنحتها في ورق الطَّير بعضهم يسميه قلم الجناح لذلك[1].

2. القلم ومستلزماته:

قال القلقشندي: "واعلم أنَّ القلم أشرف آلات الكتابة وأغلاها رتبة، إذ هو المباشر للكتابة دون غيره"[2]. فعلا، احتل القلم في تلك العصور مكانة عظيمة خاصة في الدواوين فهو الآلة الأهم لإصدار تلك المكاتبات الديوانية، فتنوعت الأقلام واختلفت حسب نوع الورق المعتمد عليه في الكتابة، فكان لكل ورق قلم خاص به، حددها القلقشندي كالتالي:

الأقلام الصخرية أجرى في الكواغد، وأمرَّ في الجلود، والأقلام البحرية أساس في القراطيس، وألين في المعاطف، وأشد لتصرف الخط فيها؛ أمَّا وصف الأقلام على اختلاف أنواعها فطولها من سته عشر إصبعا إلى اثني عشر، وامتلاؤه بين غَلِظ السبابة إلى الخِنصر[3].

ونظرا لأهمية القلم ومكانته في الدواوين والآلة الأولى التي لا يستغني عنها الكاتب، حظي بمستلزمات خاصة به، حددها القلقشندي في مجموعة من الآلات مع تعريفها وكيفية صنعها، وطال الحديث عليها كثيرا في الجزء الثاني من الكتاب، فلخصناها في الجدول التالي كل آلة ووظيفتها:

[1] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشا، 3/53-52.
[2] القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، 2/435.
[3] ينظر: المرجع السابق، 2/444.

الآلة	وظيفتها
المقلمة	المكان الذي يوضع فيه القلم.
المُدية	السكين وسميت مدية أخذا من مدى الأجل وهو آخره.
المقط	تكون من عود صلب كالعاج، مسطحا ليس مستديرا.
الجونة	الظرف الذي فيه الليقة والحبر.
الليقة	تصنع من الحرير والصوف والقطن.
المداد	حبر أسود قاتم أجوده ما اتخذ من سِخام النفط.
الملواق	ما تُلاق به الدَّواة أي تحرك به الليقة.
المرملة	تسمى أيضا المِتربة جعلا لها آلة للتراب.
المنشأة	تشمل على الظرف واللصاق.
المنفذ	تتخذ لخرم الورق.
الملزمة	تتخذ من النحاس ليمنع الدَّرج من الرجوع على الكاتب.
المفرشة	تتخذ من خرق كتان تفرش تحت الأقلام.
الممسحة	تسمى الدفتر يمسح القلم بباطنها عند الفراغ من الكتابة لئلا يجف عليه الحبر فيفسد.

المسطرة	آلة من خشب مستقيمة الجنبين يسطر عليها ما يحتاج إلى تسطيره في الكتابة.
المصقلة	التي يُصقل بها الذهب بعد الكتابة.
المسن	آلة تتخذ لإحداد السكين.
المسقاة	آلة تتخذ لصب الماء في المحبرة وتسمى الماوردية أيضا لأنَّ الغالب أن يجعل في المحبرة عوض الماء ماء ورد لتطيب رائحتها.

جدول رقم08: يوضح مستلزمات أقلام الكتابة الديوانية خلال العصر العباسي

قراءة تحليلية للجدول:

مثلما اعتنوا بالخط، اعتنوا بالقلم بنفس الدرجة كما رأينا جعلوا له سبعة عشر آلة ولكل آلة وظيفة هذا كلها للحصول على خط جميل ومتناسق مع نوع القلم والورق. والذي نلاحظه في مصطلحات هذه الآلات أنَّه وضعها كلها من خلال طريقة الاشتقاق وهي من الطرق التي عُرفت عن العرب في وضع مصطلحاتهم قديما فيضعون المصطلح وفق وظيفته بالعودة للمعاجم القديمة واستخراج منها معنى يتلاءم والمصطلح الجديد، الذي يعد " الوسيلة الثانية لنمو اللغة العربية ولا سيما من حيث الألفاظ والصيغ و هيما يسمى بالاشتقاق"[1].

فكانت طريقة الاشتقاق بهذا الشكل:

[1] إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط02، 1966م، ص46.

جذر(قلم) + صيغة صرفية (مفعلة) + أصوات: مسطرة = مفهوم مصطلح خاص بأدوات الكتابة.

جذر (مسح) + صيغة صرفية (مفعلة) + أصوات: ممسحة = مفهوم مصطلح أداة خاصة بالقلم.

جذر(فرش) + صيغة صرفية(مفعلة) + أصوات: مفرشة = مفهوم مصطلح أداة خاصة بالقلم.

جذر (رمل) + صيغة صرفية (مفعلة) +أصوات: مرملة = مفهوم مصطلح أداة خاصة بالقلم.

جذر (لزم) + صيغة صرفية (مفعلة) + أصوات: ملزمة = مفهوم مصطلح أداة خاصة بالقلم.

جذر (صقل) + صيغة صرفية (مفعلة) + أصوات: مصقلة = مفهوم مصطلح أداة خاصة بالقلم.

جذر (سقي) + صيغة صرفية (مفعال) + أصوات: مسقاة = مفهوم مصطلح أداة خاصة بالقلم.

جذر (لاق) + صيغة صرفية (مفعال) + أصوات: ملواق = مفهوم مصطلح أداة خاصة بالقلم.

جذر (نفذ) + صيغة صرفية (مفعل) + أصوات: منفذ = مفهوم مصطلح أداة خاصة بالقلم.

بالنسبة لهذه المصطلحات السابقة، جذورها اللغوية وجدتها في المعاجم اللغوية العربية؛ لكن ليس بنفس هذه المصطلحات وهذه المفاهيم، كما عرَّفها القلقشندي انطلاقا من كونها أدوات كتابة تحمل مفاهيما دلالية كلها تتمحور حول حقل دلالي واحد ألا هو أدوات الأقلام ويُحتاج لها في الخط والكتابة، نذكر مثلا مصطلح المفرشة ذكره ابن منظور بمعنى مغاير بأنَّه الوطاء الذي يُجعل فوق الصُّفة؛ أمَّا القلقشندي فذكر تعريفها باعتبار قماش يوضع تحت الأقلام، والممسحة في اللغة من المسح أي تزيل أمرا بيدك مثلا عن وجهك أو تزيل شيئا متلطخا، لذلك سمَّاها القلقشندي بالممسحة فتُمسح بها الأقلام قبل أن تجُف فيفسُد الخط، وهكذا مع باقي المصطلحات الأخرى.

مصطلح الجَونة مصطلح أصله فارسي مشتق من الجون وهو معرب كُوْن ومعناه اللون[1]. والذي نشير إليه هنا بالنسبة لهذين المصطلحين، وضعهما بطريقة الاقتراض التي عرفها القدماء في الزمن القديم، " التي تعد من الوسائل المسئولة عن نمو اللغة وتطورها، ولا تقل قدرا عن القياس والاشتقاق ولا سيما من حيث الألفاظ"[2].

3. أنواع الأوراق:

الورق بفتح الراء اسم جنس يقع على القليل والكثير، واجة ورقة، وجمعه أوراق، و جمع الورقة ورقات. وقد نطق القرآن الكريم بتسميته قِرطاسا وصحيفة، ويسمى أيضا الكاغد وكذلك يقال للصحيفة طِرس، ويجمع على طُروس، ومُهْرَقٌ ويجمع على مهارق وهو فارسي معرَّب[3]. نلاحظ، في تعريف القلقشندي للورق أنَّه جمع فيه كل من الكاغد

[1] ادَّى يشير، الألفاظ الفارسية المعربة، ص49.

[2] إبراهيم أنيس، أسرار اللغة، ص 94.

[3] القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، 476/2.

والقرطاس والصحيفة كلها تحت مصطلح واحد هو الورق. فعلاً فالمُهرق مصطلح فارسي معرب بمعنى الصحيفة تعريب مُهْرَه[1].

كما رأينا أنه لكل خط قلم خاص به، كذلك لكل قلم ورق يتناسب معه، وهذا ما جاء به القلقشندي" فمثلا القطع البغدادي قلم مختصر الطومار، لقطع الثلثين قلم الثلث الثقيل، ولقطع النصف قلم الثلث الخفيف، ولقطع الثلث قلم التوقيعات، ولقطع العادة قلم الرقاع من ذلك يعلم ما يناسب كل قطع من مقادير القطع المستعملة"[2]. استنادا على هذا، اهتموا اهتماما خاصا بالأدوات الكتابية، مما يعكس مستوى عاليًا من التخصصية والاحترافية في فن الكتابة، فلكل قلم خط يناسبه، وورق خاص به أيضا، مما يؤكد على الاهتمام الكبير بفن الكتابة لتوثيق المعلومات بدقة وجمال.

المبحث الرابع: حقل مصطلحات أنواع المكاتبات في العصر العباسي:

1. المكاتبات في العصر العباسي:

قسَّمها القلقشندي حسب دراسته لمكاتبات الخلفاء وغيرهم في العصر العباسي، إلى أربع أنواع رئيسة:

أولا: ما كان يكتب لوزراء الخلافة:

كان رسمهم فيه أن يُفتح بلفظ "أمَّا بعد فالحمدلله" ويؤتى فيه بثلاث تحميدات، وربما اقتصر على تحميدة واحدة وعلى ذلك كانت تقاليد وزرائهم من أرباب السيوف والأقلام. يضم كلً من:

[1] المرجع السابق، ص147.

[2] المرجع نفسه، 194/6.

1.1 مصطلح التقاليد:

التقاليد نوع من الرسائل الديوانية مشتقة من الفعل قلَّد، فيقال قلَّد الأمرَ: احتمله، وقلَّد فلان فلانا عملا تقليدا[1]. كذلك تقليد الوُلاَّة الأعمال[2]. وصفها القلقشندي بأنَّها ما يكتب من ديوان الخلافة لأرباب السيوف وهي لمن دون أرباب العهود في الرتبة وليس لافتتاحها عندهم ضابط.

ثانيا: ما كان يُكتب لأرباب الوظائف من ديوان الخلافة ببغداد ما كان يكتب لأرباب الوظائف من أصحاب السيوف[3]، تشمل كلا من:

1. مصطلح العهود:

تم تعريفه فيما سبق، بالنسبة لهذا النوع من المكاتبات، وضح القلقشندي كيف تفتتح، فقال: " أن يفتتح العهد بلفظ "هذا" مثل: " هذا ما عهد به فلان لفلان، أو هذا ما أمر به فلان فلانا أو هذا عهد من فلان لفلان أو هذا كتاب اكتتبه فلان لفلان وما أشبه ذلك"[4]. يُكتب في قطع البغدادي الكامل، بقلم مختصر قلم الطومار المناسبة له، فيبدأ بكتابة الطُّرة في أعلى الدَّرج من أول عرض إلى آخره سطورا متلاصقة من غير هامش، وفي أعلاه قدر إصبع بياضا، ثم يترك ستة أوصال، ثم تكتب البسملة وهكذا يسترسل في كتابة بقية العهد[5].

---

[1] ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 3/366-367.

[2] الفيروزآبادي، قاموس المحيط، ص312.

[3] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشاء، 10/242-234.

[4] المرجع السابق ، 10/08.

[5] المرجع نفسه، 10/153-154.

ما كان يكتب لأرباب الوظائف من ديوان الخلافة ببغداد ما كان يُكتب لأرباب الوظائف ببغداد من أصحاب الأقلام، تشمل كلا من العهود والنوع الآخر:

2. مصطلح التواقيع:

تمَّ تعريفه فيما سبق؛ أمَّا القلقشندي فقال عنها: هي ما كان يُكتب بديوان الخلافة ببغداد لأرباب الوظائف من أصحاب الأقلام، وطريقهم فيها أن يفتتح التوقيع بلفظ" أحق" أو " أولى"، أو " أقمن من أبيضت عليه النعم" أو " من فوض إليه كذا"، أو من "أسند إليه كذا و كذا"[1].

ما كان يكتب من ديوان الخلافة ببغداد ما كان يُكتب لزعماء أهل الذمة:

طريقهم فيه أن يفتتح بلفظ: "هذا كتاب أمر بكتبه "فلان أبو فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين لفلان" ثم يُقال: "أمَّا بعد فالحمدلله" ويؤتى فيه بتحميدة أو ثلاث تحميدات إن قصد المبالغة في قهر أهل الذمة بدخولهم تحت ذمة الإسلام وانقيادهم إليه ثم يذكر نظر الخليفة في مصالح الرعية حتى أهل الذمة، ثم يوصي بما يناسب من الوصايا[2].

مما يعكس النظام الدقيق للمكاتبات في ديوان الخلافة العباسية، فتعددت أشكالها وطريقة كتابتها وفقًا للمنصب أو الفئة المستهدفة، مما يؤكد على أهمية الكتابة والمراسلات الرسمية في إدارة الدولة وتنسيق الشؤون الداخلية والخارجية.

[1] ينظر: القلقشندي، صبح الاعشى في كتابة الانشا، 10/292-290.

[2] ينظر: المرجع السابق، 10/294.

المبحث الخامس: المرجعية الفكرية للقلقشندي في وضع مصطلحات خاصة بالرسائل الديوانية:

القلقشندي: ولد أبو العباس القلقشندي في سنة ست وخمسين وسبعمائة للهجرة، وذلك في مدينة (قلقشندة)، نشأ نشأة علمية سليمة. تربَّى تربية صحيحة ثم توجه إلى الاسكندرية وأقام بها مدة من عمره في طلب العلم. واشتغل بفنون اللغة العربية والأدب. ثم بعد ذلك توجَّه للتدريس، فانتفع به كثيرون، وبدا للناس فقيها يميل إلى الاجتهاد، فألف في الفقه مجموعة من الكتب من بينها: شرح لجامع المختصرات في فروع الشافعية، ثم من بعد العناية بالفقه توجه للاهتمام بفن الأدب، فألَّف طائفة من الكتب والرسائل الأدبية منها: رسالة حلية الفضل والكرم في المفاضلة بين السيف والقلم أنشأها لأبي يزيد الظاهري، لذلك أُختير لفضله وعلمه وأدبه صاحبا لديوان الإنشاء سنة 791هـ، وأنتج في هذه الفترة العديد من الكتب من أشهرها كتابه صبح الأعشى في كتابة الانشا الذي استغرق وقتا طويلا في وضعه[1].

وعليه، من خلال سيرة القلقشندي التي فصَّل فيها حمزة عبد اللطيف، في كل محطات حياته، نفهم كيف أنَّ هذا الكاتب المعروف باسم القلقشندي استطاع أن يكتب موسوعة كاملة عن كل ما يخص كتابة الانشاء منذ أول عصورها حتى غاية عصره العصر المملوكي، فهو كان كاتبا، عالما، فقيها، أديبا، جمع كل الصفات المعرفية التي استحقها لينال اسم الكاتب، ويعد الأول والأخير الذي اهتم بكل ما يخص المكاتبات الرسمية، كتابة الانشاء، وتتبعها عبر عصور زمنية مختلفة عبر وفي كل منطقة على حده، فأنتج لنا موسوعة كاملة شاملة تُمكن الباحث في مجال الرسائل الديوانية من

[1] ينظر: حمزة عبد اللطيف، القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، 40-43-44-46.

الحصول على كافة المعلومات بخصوصها وهذا ما رأيناها مع بعض نماذج المصطلحات الخاصة في الرسائل الديوانية خلال العصر العباسي، ويمكن الاطلاع على باقي العصور التي عالجها بالتفصيل في كل مقالة من مقالات موسوعته التي استمرت لأجزاء وآلاف الصفحات.

صرَّح عبد اللطيف حمزة بموضوع مهم كون عالم وكاتب مهم في مسيرة التاريخ العربي لم يهتم به الدارسون في كتبهم، حتى سيرته كانت عبارة عن مقتطفات لا تتعدى الأسطر، فقال: " غير أن ما قصَّرت فيه العصور السابقة استطاعت أن تنهض به العصور اللاحقة، فها نحن في هذا العصر الحديث ـ و في النصف الثاني من القرن العشرين ـ نصلح ما أفسدته القرون الغابرة، وننهض بما لم تنهض به الأزمان القديمة، فنرد الأمر إلى نصابه، ونعطي الحقوق إلى مستحقيها"[1].

مؤلف الكتاب، يبدو في كتابه بأنَّه ذو ثقافة عالية جدا فقد أحس بما يلزم الكاتب من ثقافة عامة، فحاول أن يقدمها بكل يسر وسهولة، وهو ليس ممن يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وإنَّما يأخذ نفسه بهذه المعارف أولا، إضافة إلى أنَّه مغرم بمهنته ومعتز بها[2].

1. المرجعيات الفكرية للقلقشندي في تأسيس مبادئ الكتابة الديوانية:

1.1 تأثر القلقشندي بأفكار عبد الحميد الكاتب:

[1] حمزة عبد اللطيف، القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، ص56.

[2] عصام طلعت، صبح الأعشى للقلقشندي، الاثنين أكتوبر 25، 2010، 2. 59 pm، تاريخ الاطلاع: 2023/12/5، الساعة: 7.54، https://30dz.yoo7.com.

تأثر كذلك بمن سبقوه في هذا الأمر، خاصة من ناحية ثقافة الكاتب وصفاته؛ لكن الجديد الذي أضافه هو أنَّه حدد ثقافة كاتب الإنشاء بصفة خاصة، عكس مثلا عبد الحميد حدد صفات الكتاب وثقافتهم بمختلف أنواعهم من كتاب الرسائل، لكتاب الخرج وغيرهم، فنجد القلقشندي يؤكد على الجانب الأخلاقي لكاتب الإنشاء من صدق، وعفاف، وأمانة وغيرها من الصفات الأخلاقية التي حددها قبله عبد الحميد الكاتب، مما يدل على مرجعيته الإسلامية في وضع الصفات الأخلاقية التي يُلزم على كل كاتب إنشاء التحلي بها وكلها نابعة من شريعتنا الإسلامية التي دوما تؤكد على الصدق والأمانة و تجنب سيء الصفات في كل المعاملات، وهذا الأمر كما رأينا أكدَّ عليه حتى ابن المدبر كما رأينا.

تأكيده على ضرورة إتقان اللغة العربية بكل علومها، وقد فصَّل في كل علم على حده، وهذا ليس بالجديد سبقه له كلا من عبد الحميد وابن المدبر، فكما رأينا فيما سبق كلاهما أكدَّا على ضرورة تعلم اللغة العربية بكل علومها وفنونها؛ لكن القلقشندي لم يكتفِ مثلهما بذكر هذه العلوم دون تعريف لكل علم ولماذا يجب على كاتب الإنشاء إتقانه، ففصَّل في هذه العلوم في صفحات طويلة فسَّر فيها سبب ضرورة تعلم كاتب الإنشاء لهذه العلوم.

إضافة، تأثر بهما أيضا في ضرورة أن يحفظ كاتب الإنشاء الشعر والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، للاستشهاد به في مكاتباته، وأكدَّ أيضا على ضرورة إتقان الخط، تماما كما فعل عبد الحميد الكاتب وابن المدبر؛ لكن دوما القلقشندي يفصل عليهما كثيرا في كل أمر، فذكر كل ما يخص الخط من أنواعه، أقلامه، أوراقه، فمن خلال كل وصاياه لكاتب الإنشاء يؤكد لنا ثقافته العربية الإسلامية، أبرزها في

ثنايا موسوعته من أفكار ومصطلحات كلها نابعة من التراث العربي والإسلامي بالدرجة الأولى.

1.2 تأثر القلقشندي بأفكار ابن المدبر:

تأثَّر به في مجموعة من الأفكار التي عالجنها مع ابن المدبر منها:

مناسبة الألفاظ مع موضوع المكاتبة: يأتي مع كل كلمة بما يليق بها ويتخير لكل لفظة ما يشاكلها مثلا في موضوع ذكر البلوى: نسأل الله رفع المحذور وصرف المكروه، في المصيبة: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، إذا ذُكر الرئيس أثناء المُكاتبة، دعا له مثل أن يقول: خلَّد الله ملكه(عند ذكر السلطان) وعند ذكر الأمير الكبير: عزَّ نصره[1]. هذا المقصد سبقه إليه ابن المدبر في رسالته العذراء في قوله: وليكن ما تختك به فصولك في موضع ذكر البلوى بمثل الله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل. وفي موضع ذكر المصيبة بمثل إنا لله وإنا إليه راجعون[2]. فيمكن القول أنَّه أخذ عبارات ابن المدبر بشكل حرفي؛ لكنه لم يشر إليه.

معرفة مقدار كل طبقة من المخاطبين: تستعمل في المكاتبة لكل فريق على مقدار طبقتهم في الكلام وقوتهم في المنطق، مثال ذلك إن كانوا من الأدباء البلغاء العارفين بنظم الكلام وتأليفه، فليستعمل كتابة الألفاظ الجزلة[3]. مثل كتاب لابن المدبر: " وصل كتابك المفتتح بالعتاب الجميل، والتقريع اللطيف، فلولا ما غلب عليَّ من السرور بسلامتك، لتقطَّعت غمًّا بعتابك، الذي لطُفَ حتى كاد يخْفى عن أهل الرقة والفِطنة،

[1] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، 6/294-295.

[2] ينظر: محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص181.

[3] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشا، 6/292.

وغلظ حتى كاد يفهمه أهل الجهل والبَلَه، فلا أعدمني الله رضاك مجازيا به على ما استحقَّه عتبك، فأنت ظالم فيه، وعتابك وليٌّ المخرَج منه"[1].

إن كانوا ممن لا يفرق بين خاص الكلام وعامه فليضمن كتابه الألفاظ التي يتساوى سامعوها في إدراك معانيها فالكلام البليغ يكون مع البلغاء والفصحاء، أمَّا العوام فيستعمل الكاتب أدنى رتب في البلاغة. كل هذه الأفكار عالجها ابن المدبر كما رأينا عندما قسم المجتمع إلى طبقات وكل طبقة حدد لها العبارات المناسبة لمقامها. في قوله: " لكل مكتوب إليه قدر ووزن ينبغي للكاتب أن لا يتجاوز به عنه ولا يقصر به دونه"[2].

مراعاة رتبة المكتوب عنه والمكتوب إليه في المكاتبة: إذا كان خليفة جرت العادة من الكُتَّاب بالتعبير عنه في صدور الكتب بأمير المؤمنين فجرى أمر المؤمنين في كذا على كذا وكذا[3]. مثل كتاب البيعة للمعتز بالله: " بسم الله الرحمن الرحيم، تبايعون عبد الله الإمامَ المعتز بالله أمير المؤمنين، بيعة طوع و اعتقاد... "[4]. إذا كان ملك جرت العادة أن يعبر عنه بنون الجمع للتعظيم فيقال: فعلنا كذا وأمرنا بكذا وبرزت مراسمنا.

إن كان المكتوب عنه مرءوسا بالنسبة إلى المكتوب إليه كالتابع ومن في معناه فيقال: وجدت صواب الرأي كذا ففعلته ورأيت السياسة تقتضي كذا فأمضيته بدلا من أمرت بكذا أو نهيت عن كذا.

---

[1] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 199/4.

[2] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص 180.

[3] ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الانشا، 293/6.

[4] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 268/4.

معرفة قدر المكتوب إليه: من الرؤساء والنظراء والوكلاء ليفرق بين من يكتب إليه أنا أفعل كذا ومن يكتب إليه نحن نفعل كذا ويفرق بين من يكتب إليه فإن رأيت أن نفعل كذا وبين من يكتب إليه فرأيك[1]. نجد مثلا، كتاب ابراهيم بن العباس لعامل له، فبدأ كتابه مباشرة دون مقدمات: "يا هذا، لست أشُك أن لك أثرا في التوقير، كان من تقدَّمك مقصرا عنه، وأنك معنيٌّ ومحتاط، غير أنك عفَّيْتَ على ما أحمدت منك، بما يتناهى إليَّ عنك(...)، وتا الله لأكوننَّ الباحث عليك، والمكالب لك دونه، لإقدامك على شيخ ابن ستين سنةً، بما أقدمت به عليه، وأفٍّ لدنيا اضطرَّت إليكم، فكنتم خِيارَ من يعمل فيها! وأبرأ إلى الله من أعمالكم التي رجعتم بها إلى أنفسكم ونيَّاتكم"[2].

هذا نفسه ما ذهب إليه ابن المدبر عندما حدد العبارات الدعائية الملاءمة حسب مكانة المكتوب إليه، نذكر منها: "جعلوا أكرمك الله وأبقاك حسن منزلة في كتب الظرفاء والأدباء"[3]. (وغيرها من الأدعية مفصلة في الفصل السابق).

وعليه، يمكن القول إنَّ القلقشندي جمع لنا موسوعة ضخمة تضم كل ما يخص المكاتبات الرسمية؛ إلاَّ أنَّ الأفكار التي كتبها بخصوص الكاتب وأخلاقه، صفاته، معارف، قد سبقه إليها عبد الحميد الكاتب منذ العصر الأموي، وقد رأينا تأثره الواضح به، كذلك كل ما يخص رسوم المكاتبات والمكتوب إليه، سبقه إليه ابن المدبر الكاتب من العصر العباسي، لهذا يمكن التأكيد على تأثره بمنهج عبد الحميد الكاتب وابن المدبر، حيث أخذ عنها المنهج الرئيسي الذي يحتاجه الكاتب في صياغة مكاتبته. إلاَّ أنَّه توسَّع وفصَّل في الموضوع بشكل كبير، فكأنَّما عبد الحميد نظرَّ لكل ما يتعلق

[1] القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشا، 302/6. 301.

[2] ينظر: أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، 188/4.

[3] محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص179.

بالكاتب، ووضع ابن المدبر الخطوات الأولى لرسوم الرسائل الديوانية والمكتوب إليه، ثم جاء القلقشندي استفاد من كلامها وفصَّل في المكاتبات من جميع النواحي في موسوعته، ونشير هنا إلى أن هاتين الرسالتين، رغم قلة صفحاتهما، وضعتا المنهج الأساسي للكاتب والمكاتبات، لتصبحا المصدر الأول الذي استند إليه الدارسون لاحقا في هذا النوع من الرسائل الديوانية، وساروا على نهجهما.

2.مرجعية القلقشندي في وضع المصطلحات الخاصة بالرسائل الدَّيوانية:

أول ما يجب الإشارة إليه، هو أن هذه المصطلحات تم أخذها كنماذج، إن موسوعة القلقشندي لدراسة جميع المصطلحات المتعلقة بالرسالة الديوانية، تحتاج إلى تأليف معاجم خاصة. لذا، تم الاكتفاء بذكر بعض المصطلحات ذات الصلة بالرسالة الديوانية في العصر العباسي. وقد تقسيم هذه المصطلحات إلى نوعين، من خلال الجدول التالي:

مصطلحات ذات مرجعية عربية	مصطلحات ذات مرجعية فارسية
مكاتبة	ديوان
مكتوب إليه	المَهرق
مكتوب عنه	الجَونة
مكتوب بسببه	الطُّومار
كاتب الإنشاء	الدَّست
كاتب السر	
كاتب الدَّرج	

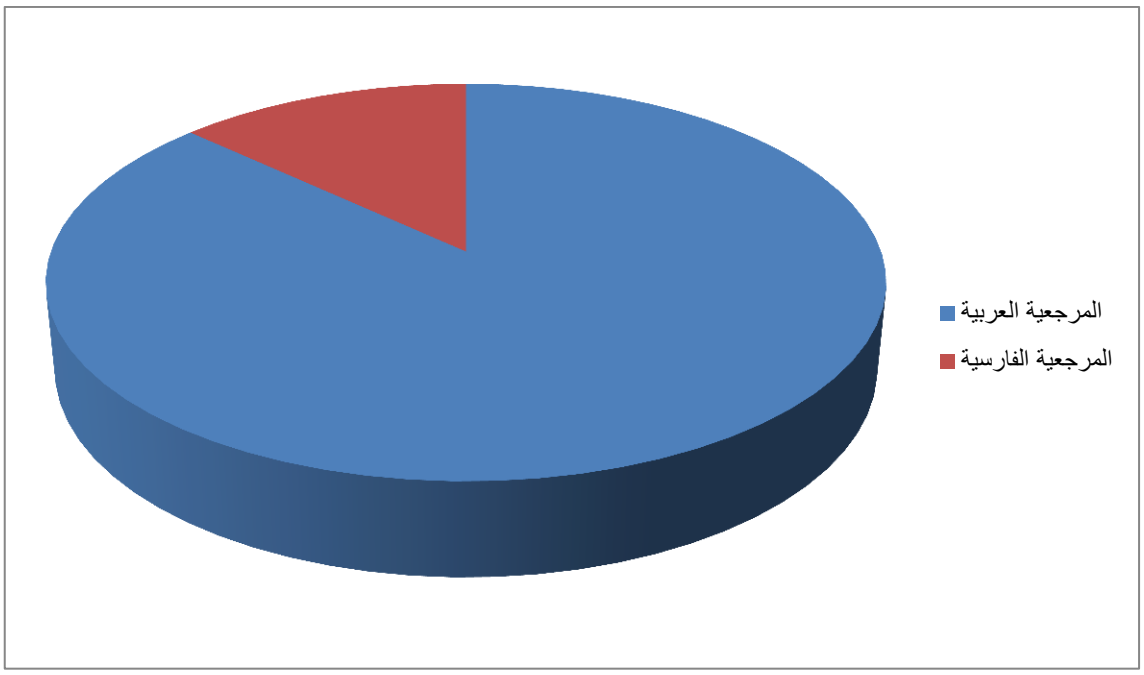
أرباب الأقلام	
مقلمة	
المدية	
الملواق	
المرملة	
الملزمة	
المنفذ	
المفرشة	
الممسحة	
المصقلة	
المسطرة	
المسقاة	
المسن	
المحقق	
الغبار	
الثلث	
المقدمات	
المحتسب	
الفواتح	
الخواتيم	
الخط	
التاريخ	
المستند	
العهود	

التقاليد التواقيع	

جدول رقم 09: يوضح المرجعية الفكرية للمصطلحات المستعملة من قبل القلقشندي

قراءة تحليلية للجدول:

وعليه، يكون مجموع المصطلحات ككل ثمانية وثلاثون مصطلحا، من بينها خمس مصطلحات فارسية الأصل والباقي عربية، فتكون نسبتها كالتالي:



شكل رقم 17 : يوضح نسبة مرجعية المصطلحات المستعملة من قبل القلقشندي بين العربية والفارسي.

قراءة تحليلية للشكل:

وعليه، قُدرت نسبة المصطلحات ذات المرجعية العربية ب86%؛ أمَّا المصطلحات الفارسية فقدرت بنسبة 13%، فنفهم من ذلك أنَّ مرجعيته مثل عبد الحميد الكاتب وابن المدبر عربية في اختيار المصطلحات الخاصة بالرسالة الديوانية، مع نسبة قليلة من المصطلحات الفارسية، فنرى كيف كانت اللغة العربية حاضرة بقوة في وضع المصطلحات دون العودة للتعريب والترجمة، حيث اعتمدوا على آلية الاشتقاق، في تنمية لغتهم العربية، عكس العصور الحديثة التي غزتها المصطلحات المترجمة والمعربة، وسبب ذلك طبعا مكانة اللغة العربية في العصور الأولى واهتمام العلماء بها فرأينا كيف كل من عبد الحميد الكاتب، وابن المدبر، والقلقشندي أكدُّوا على ضرورة تعلم اللغة العربية بكل علومها.

وعليه، يتجلى التطور المصطلحي من خلال توسع المصطلحات التي استخدمها القلقشندي، مثل الأوراق والأقلام والخطوط، إلى جانب مصطلحات أخرى تتعلق ببنية الرسالة الديوانية كالمكاتبة والمكتوب إليه وغيرها. مما يعكس تطور الكتابة الديوانية واحتياجها إلى مصطلحات أكثر دقة وتخصصا، في إطار التطور المستمر للرسائل الديوانية عبر العصور، وتطور مصطلحاتها لتشمل العديد من المجالات.

في نهاية هذا الفصل وبعد إحصاء كل المصطلحات الخاصة بالرسالة الديوانية، سنضع معجما مختصا بمصطلحات الرسالة الديوانية، من ديوانها، أنواعها، كتابها، أوراقها، خطوطها، أقلامها. ترتيبها ألفبائيا. (سيوضع كملحق).

خاتمة

خاتمة:

في الختام، توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج، سيتم تقسيمها إلى قسمين: الأول يتناول الرسائل الديوانية والتطور المصطلحي فيها، والثاني يركز على مرجعيات الكتاب في صياغة المصطلحات الديوانية:

البداية الفعلية للرسالة الديوانية كانت مع رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم الرسمية التي أرسلها إلى ملوك الفرس والروم لأغراض دينية وسياسية. فقد كانت تلك الرسائل تحمل جميع العناصر الشكلية للرسالة الديوانية، إلا أنهم لم يطلقوا عليها مصطلح "الرسالة الديوانية" الذي ظهر في العصور اللاحقة؛ بل كانوا يستخدمون مصطلح "الكتاب". ومن يطَّلع على رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم يلاحظ هذا الأمر بوضوح.

تميزت الرسائل الديوانية عن غيرها من الرسائل باستعمال مجموعة من المصطلحات الخاصة. شملت هذه المصطلحات ما يتعلق بهيكل الرسالة الشكلي، وكتابها، وأوراقها، وخطوطها، وأقلامها، وأنواعها، وقد أسهمت هذه المصطلحات في إثراء المعجم العربي بمصطلحات متنوعة في مجالات الكتابة، والإدارة، والسياسة، تطورت من عصر لآخر، سنوضح هذا من خلال مايلي:

مصطلح الرسالة الديوانية، استعمل عبد الحميد الكاتب مصطلحي **الكتاب** و**الجواب**، تنوعت تسميات ابن المدبر بين **الكتاب**، **المراسلة**، و**الرسالة**. في حين استعمل القلقشندي مصطلح **المكاتبة** للتعبير عن ذات المفهوم، مما يظهر تغير المصطلحات بتغير العصور وتطور المجتمعات. بدأ الاهتمام المتزايد بالرسائل الرسمية في العصر الأموي على يد معاوية بن أبي سفيان، الذي أسس ديوان الرسائل ليكون مسؤولا عن الرسائل السياسية الرسمية. ثم تطور واستمر في العصر

العباسي ليصبح من أهم أجهزة الدولة، وأطلق عليه القلقشندي في موسوعته ديوان الإنشاء.

وصف كل من عبد الحميد الكاتب، وابن المدبر، والقلقشندي كتابة الرسائل الديوانية بأنها صناعة تتطلب صفات محددة ومهارات خاصة، فقد أكدوا على أن هذا العمل لا يليق به سوى كاتب يتحلى بصفات أخلاقية ومعرفية رفيعة، ليكون جديرا بحمل لقب كاتب الديوان. أطلق عبد الحميد على هذا الفن صناعة الكتابة، بينما أشار إليه ابن المدبر بمصطلح صنعة الرسالة، في حين سماه القلقشندي صناعة الإنشاء، فنلاحظ كيف تطور المصطلح من العام إلى الخاص إلى الأخص. فيتضح أن الرسائل الديوانية لم تكن مجرد مراسلات رسمية تؤدي أغراضا سياسية أو إدارية ـ كما في وقتنا الحالي ـ ، بل كانت فنا متكاملا يعكس ثقافة الكتاب وفهمهم العميق للغة العربية وأصول الكتابة.

مصطلحات أطراف الرسالة تطورت بشكل ملحوظ، حيث لم يستعمل عبد الحميد ولا ابن المدبر مصطلح المرسل بينما استعمل القلقشندي مصطلح المكتوب عنه. بالنسبة للمرسل إليه اتفق ابن المدبر والقلقشندي على تسميته المكتوب إليه، انسجاما مع مصطلحي الكتاب والمكاتبة(لم يستعمله عبد الحميد). كما أن مصطلح الكاتب اسْتعمل في العصر الأموي، إذ استعمله عبد الحميد الكاتب وابن المدبر، بينما أضاف القلقشندي له بعدا وظيفيا باطلاق مصطلح كاتب الإنشاء، مشيرا إلى اختلاف الكتاب بحسب نوع الديوان. أما على المستوى المصطلحي للكاتب، فقد كان المصطلح السائد في العصر الأموي هو الكاتب، في حين أطلق عليه في الديار المصرية في العصر العباسي كاتب الدست، وفي بداية الدولة التركية كاتب الدرج.

خاتمة

فيما يخص مضمون الرسالة، استعملت عدة مصطلحات تشير إلى مقدمة الرسالة؛ فقد استعمل عبد الحميد الكاتب مصطلح الابتداء، بينما استعمل ابن المدبر الافتتاح، وأطلق عليها القلقشندي الفواتح. أما الموضوع، فقد استعمل ابن المدبر مصطلح الفواصل نسبة لكونه يفصل بين افتتاح الرسالة واختتامها وهو مصطلح لم يستعمله عبد الحميد والقلقشندي. وفيما يتعلق بالخاتمة، عبر ابن المدبر عنها بمصطلح الاختتام، بينما استعمل القلقشندي مصطلح الخواتم، ليشيرا بذلك إلى نهاية الرسالة. وتجدر الاشارة إلى أن ابن المدبر والقلقشندي قد حرصا على تحديد تاريخ الرسالة وختمها، وقد استمدوا ذلك من أول الرسائل النبوية. إضافة لمصطلح المستند الذي استعمله إلا القلقشندي.

وفيما يخص مصطلحات الخط وأدوات الكتابة الديوانية، أكد عبد الحميد وابن المدبر والقلقشندي على ضرورة إتقان الكاتب لفن الخط، حيث تناول القلقشندي بشكل مفصل أنواع الخطوط في العصر العباسي. وبالنسبة للقلم، لم يشر إليه عبد الحميد، في حين ذكر ابن المدبر أنواعه، ثم أفاض القلقشندي في شرح تفاصيل الأقلام والخطوط المستعملة في العصر العباسي. أما الورق، فلم يرد ذكره لدى عبد الحميد، بينما تناوله ابن المدبر والقلقشندي موضحين أنواعه مثل الكاغد والقرطاس والرق، وملاءمته لكل نوع من الخطوط والأقلام. بالتالي، يتضح كيف ساهمت الرسائل الديوانية في ظهور مصطلحات جديدة ارتبطت بأدوات الكتابة كما ذكرنا، هذا التطور المصطلحي يعكس التفاعل بين اللغة والواقع الإداري والديواني في تلك العصور، حيث أدى هذا التفاعل إلى إثراء اللغة بمصطلحات دقيقة تخدم أغراض التواصل الرسمي وتُظهر التقدم في فنون الكتابة والتدوين.

خاتمة

تطورت مصطلحات أنواع الرسالة الديوانية بشكل ملحوظ خلال العصرين الأموي والعباسي، خصوصا في العصر العباسي. ورغم أن عبد الحميد الكاتب لم يذكر أنواع الرسائل، فإن ابن المدبر والقلقشندي اتفقا على استعمال مصطلحات موحدة مثل العهود، الأمانات، التوقيعات، التقاليد، البيعات. اكتفى ابن المدبر بذكر هذه الأنواع دون الخوض في تفاصيلها، بينما قدم القلقشندي نماذج توضيحية لكتابة كل منها، موضحا عناصرها وكيفية كتابتها. ونفسر هذا التطور في مصطلحات أنواع الرسائل الديوانية بسبب توسع الجهاز الإداري، مما تطلب تصنيف الرسائل وفق وظائفها ومضامينها المختلفة، مما أوجب إلى مصطلحات دقيقة تعبر عن هذه الأنواع بوضوح.

وعليه، يُبرز التطور المصطلحي في الرسائل الديوانية خلال العصرين الأموي والعباسي تفاعل اللغة مع متطلبات السلطة والإدارة، حيث شهدت هذه الحقبة ظهور مجموعة من المصطلحات التي تعكس تنوع المجالات التي شملتها الدواوين. فقد برزت مصطلحات سياسية وألقاب رسمية مثل الخليفة والكاتب، كما اتسعت المصطلحات لتشمل أنواع الورق، مثل القرطاس والرق، وأساليب الخطوط والأقلام المستخدمة، مما يؤكد أن الرسائل الديوانية لم تكن مجرد وسيلة تواصل رسمية، بل أداة حيوية لنقل السلطة وتنظيمها، مما يعكس استجابة اللغة العربية لمتطلبات العصر.

تعد ثقافة الكاتب واحدة من المؤثرات الثقافية البارزة التي ساهمت في تطوير مصطلحات الرسائل الديوانية، إضافة إلى مرجعياتهم الفكرية التي أطرت الرسائل الديوانية التي تجلت في مرجعية عربية إسلامية، سنوضح هذا من خلال مايلي:

خاتمة

تمتاز مرجعيات الكُتَّاب في العصرين الأموي والعباسي بأنها تستند إلى أصول إسلامية وعربية واضحة في صياغة مصطلحاتهم الديوانية، فقد ارتبطت مبادئ الكاتب وصفاته بالتشريع الإسلامي حيث كان الالتزام به ضرورة، إلى جانب التأكيد على أهمية تعلم اللغة العربية وفنونها لتقوية البلاغة والقدرة التعبيرية، وهذا يعكس استنادهم إلى مرجعية ثقافية عريقة في صياغة مصطلحات الرسائل الديوانية. بدأ هذا التوجه مع عبد الحميد، الذي كانت رسالته في توجيه الكتاب تحمل هدفا تعليميا بالدرجة الأولى، ثم جاء ابن المدبر ليعطي اهتماما خاصا لرسوم صنعة الرسالة، مختتما مع القلقشندي الذي جمع بين مختلف هذه الجوانب بأسلوب موسوعي، مفصلا في جميع المصطلحات الديوانية مع إضافته الخاصة، ليعكس تطور الفكر الإداري وتوسع الدولة الإسلامية عبر الزمن.

ويظل هذا العمل محاولة للإسهام في ميدان علم المصطلح، من خلال تسليط الضوء على المصطلحات الواردة في الرسائل الديوانية خلال العصرين الأموي والعباسي. وهو مفتوح أمام الباحثين لاستكمال هذا المسار، من خلال دراسة المصطلحات في العصور اللاحقة، كعصر المماليك، والأندلس، والدولة العثمانية، وغيرها. كما يمكن الاستفادة من المنهجية المعتمدة في هذا البحث لصياغة معجم متخصص بمصطلحات الرسائل الديوانية، يُبرز تطورها عبر مختلف الحقب الزمنية، ويُسهم في خدمة اللغة والتراث العربي.

ملحق:

معجم مصطلحات الرسالة الديوانية خلال العصرين الأموي والعباسي:

المصطلح	تعريفه
أديب	الأشخاص المتميزون في مجال الأدب والكتابة.
إبريسم	مصطلح معرب أصله فارسي، نوع من الحرير.
اختتام	مصطلح أُطلق على إنهاء الرسالة في العصر العباسي.
أمانات	نوع من أنواع الرسائل الديوانية.
أمير	الحاكم في منطقة معينة.
أمير المؤمنين	لقب إسلامي يُطلق على خليفة المسلمين.
أرباب الأقلام	الكتاب المحترفون(أطلقه القلقشندي على من يتقن صناعة المكاتبات).
تاجر	الشخص الذي يعمل في البيع والشراء.
تاريخ	من العناصر التشكيلية للرسالة الديوانية، يتم كتابته في آخر الرسالة، باليوم، الشهر، السنة.
تقاليد	نوع من أنواع الرسائل الديوانية ظهرت خلال العصر العباسي.
توقيعات	نوع من أنواع الرسائل الديوانية.
ثلث	نوع من الخط العربي، تم استخدامه في كتابة الرسائل الديوانية.
جواب	مرادف لمصطلح الرسالة.
جونة	فارسي معرب، حافظة الحبر.
حساب	مصطلح يختص بكاتب الخراج في العصر الأموي، لحساب الموارد القادمة من موارد الخراج.
حكم	القضاء والفصل بين الناس أو الأشياء.
ختم	الطابع المستخدم لختم الرسائل مستخدم منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.

خادم	استعمله عبد الحميد الكاتب لوصف الكاتب بأنه خادم الخليفة والدولة.
خراج	الضريبة التي تفرض على الأراضي الزراعية (مصطلح إسلامي). من يشتغل في خزانة الدولة الأموية المسؤولة عن إدارة المال العام للدولة.
خلافة	نظام الحكم الإسلامي الذي يتولى فيه الخليفة إدارة شؤون المسلمين.
خليفة	المسؤول عن تولي أمور الخلافة.
خط	ارتبط بصناعة الرسالة الديوانية، فعرف بفن الكتابة بأسلوب جميل ومتقن، حيث كان شرطا للكاتب الذي سيتولى منصبا في ديوان الرسائل.
دواة	أصلها فارسي، الحبر المستخدم في الكتابة.
ديوان	أصله فارسي، المكان الذي يجتمع فيه الكتاب.
ديوان رسائل	يُقابل رئاسة الوزارة في العصر الحالي، عبارة عن اتحاد منظم يتكون من مجموعة كتاب بتدوين الرسائل بأمر من الخليفة، بدأ مع ابن معاوية في العصر الأموي. (نفسه ديوان الرسائل)، حدث له تطور في صيغته خلال العصر العباسي.
ديوان إنشاء	يقابل مصطلح ديوان الرسائل لكنه حدث له تطور على مستوى المصطلح مع الحفاظ على مفهوم واحد.
رسالة	كلام ينقل بين مرسل ومرسل إليه لتأدية غرض معين أو إيصال خبر ما.
رسالة ديوانية	نوع من أنواع الرسائل رسمية الغرض عُرفت منذ العصر الأموي مع إنشاء ديوان الرسائل، صادرة عن خليفة الدولة، يكتبها كاتب مختص، وفق رسوم معينة.

رعية	عامة الناس، الذين يخضعون لحكم الملك.
سجلات	كتب يتم فيها تسجيل موارد الخراج وغيرها في العصر الأموي.
سادات	الأشخاص ذوو المكانة العالية والنسب الرفيع.
سياسة	إدارة شؤون الدولة والمجتمع.
سلطان	الحاكم أو الملك في النظام الإسلامي.
ظرفاء	الأشخاص الذين يمتازون باللباقة وحسن المعاملة.
طومار	يطلق على نوع من الورق، ويطلق أيضا على نوع من الخطوط.
علماء	الأشخاص المتخصصون في العلوم والمعرفة.
عهود	نوع من أنواع الرسائل الديوانية، بمعنى الاتفاقيات.
عوام	عامة الشعب.
الكتاب	مرادف للرسالة خلال العصر الأموي وقبله.
الكاتب	من يتولى كتابة الرسائل للخليفة.
كاتب الإنشاء	الشخص الذي يشتغل في ديوان الرسائل ويقوم بكتابة الرسائل الديوانية بمختلف أنواعها للخليفة.
كاتب السر	الشخص المسؤول عن كتابة الرسائل الرسمية (ظهر في العصر العباسي).
كاتب الدرج	الشخص المسؤول عن حفظ الأسرار وكتابة الرسائل الخاصة.
كاتب الخراج	الشخص الذي يكتب الوثائق الرسمية. الكاتب الذي يكتب في ديوان الخراج.
مجلس	المكان الذي يجتمع فيه الأشخاص لمناقشة الأمور الخاصة بإدارة شؤون الدولة والمجتمع.
محتسب	كان يشغل منصبا رسميا في الدولة الإسلامية، مسؤوليته الرئيسية كانت الإشراف على الأسواق والتأكد من التزام التجار بالمعايير الشرعية.
مداد فارسي	نوع من الحبر الفاخر المستخدم في الكتابة.

مكاتبة	مرادف للرسالة، مصطلح استعمله القلقشندي.
مكتوب إليه	الشخص الذي توجه إليه الرسالة.
مكتوب عنه	الشخص الذي تُكتب الرسالة بشأنه.
مكتوب بسببه	الشخص أو الأمر الذي يكون السبب في كتابة الرسالة.
ملك	الشخص الذي يحكم الدولة.
ملواق	أداة تستخدم لتحريك الليقة.
مرملة	أداة تستخدم **للكتابة**.
مسن	آلة تتخذ لإحداد السكين.
مصقلة	يصقل بها الذهب بعد الكتابة.
محقق	نوع من أنواع الخطوط العربية خلال العصرين الأموي والعباسي.
مفرشة	تُفرش تحت الكتان.
مقلمة	المكان الذي يوضع فيه القلم.
مسقاة	آلة لصب الماء في المحبرة.
مسطرة	آلة التسطير.
مستند	إسناد الرسالة إلى صاحبها، يكتب في آخر الرسالة.
منفذ	آلة لخرم الورق.
نشاشتج	فارسي معرب، نوع من الورق الفاخر.
وزير	عون الخليفة في تسيير شؤون أمور خلافته.
والي	الحاكم المحلي لإدارة إحدى الأقاليم التابعة للدولة الإسلامية.
ولاية	الإقليم الذي يتم تعيين والي لإدارته.

قائمة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

أولا- القرآن الكريم برواية ورش قراءة نافع.

ثانيا- المصادر:

1. الجهيشاري أبو عبد الله محمد بن عبدوس بن عبد الله، الوزراء والكتاب، تح: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة الباني الحلبي وأولاده، ط01، 1938م.

2. القلقشندي شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد، صبح الأعشى في كتابة الانشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، دط، 1340هـ/1922م، ج01.

3. محمد كرد علي، رسائل البلغاء، دار الكتب العربية، ط01، 1913م.

ثالثا-المعاجم والقواميس والموسوعات:

1. إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، الجمهورية التونسية، ع01، 1986م.

2. ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، دط، دت.

3. أبو البقاء الكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق، مؤسسة الرسالة، ط02، 1419هـ/1998.

4. أبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقي، المعرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت.

5. أحمد مختار عمر، معجم اللُّغة العربية المعاصرة، مكتبة لسان العرب، ط1، 1429هـ/2008م، مج1.

6. أحمد مطلوب، معجم مصطلحات النقد العربي القديم، مكتبة لبنان ناشرون، ط01، 2001.

7. الجرجاني أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوى، دار الفضيلة، د.ط، د.ت.

8. خير الله سعيد، موسوعة الوراقة والوراقين في الحضارة العربية الإسلامية، مؤسسة الانتشار العربي، ط01، 2011 مج1/ج2.

9. الرازي محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر، مختار الصِحاح، مكتبة لبنان، بيروت، د.ط، 1986م.

10. الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1419ه /1997م.

11. سعيد علُّوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتب اللبناني، بيروت، ط02، 1405ه/1985م.

12. طوبيا العنيسي الحلبي اللبناني، تفسير الألفاظ الدَّخيلة في اللُّغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه، مكتبة العرب، ط02، 1932م.

13. الفراهيدي أبي عبدالرحمن الخليل بن أحمد، معجم العين، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السَّامرائي، سلسلة المعاجم والفهارس، ج7.

14. الفيروزآبادي محمد بن يعقوب بن إبراهيم الشيرازي، القاموس المحيط، تح: مكتبة تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط08، 1426ه/2005م.

15. محمد التنوجي، المعجم المفصل في الأدب، دار الكتب العربية، ط02، 1999م، ج02.

16. محمد الجماز، معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 2003م.

17. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط04، 1425 هـ/2004م.

18. نوَّاف نصَّار، معجم المصطلحات الأدبية، دار المعتز، ط01، 1432هـ/ 2011م.

رابعا- الكتب العربية:

1. إبراهيم أيوب، التاريخ العباسي السياسي والحضاري، دار الكتاب العالمي، ط01، 1989م.
2. إبراهيم عوض، مدخل إلى الأدب العربي لهاملتون جب قراءة نقدية (مع النص الإنجليزي)، المنار للطباعة، دط، 2008م.
3. ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، تح: أ. م. كاترمير، مكتبة لبنان، (د. ط)، 1858م، ج02.
4. ابن عبد ربه أبو عمر أحمد بن محمد، العقد الفريد، تح: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط01، 1983م، ج4.
5. ابن وهاب الكاتب: البرهان في وجوه البيان، تح: حنفى محمد شرف، مطبعة الرسالة، دط، دت.
6. أحمد أمين، ضحى الإسلام، كلية الآداب للجامعة المصرية، ط01، 1933، ج01.

7. أحمد أمين، فجر الإسلام، موسوعة أحمد أمين الإسلامية، ط10، 1969م.
8. أحمد عبد الباقي، معالم الحضارة العربية في القرن الثالث هجري، سلسلة التراث القومي، ط01، 1991.
9. أحمد محمد الحوفي، الأدب العربي وتاريخه، دار المعارف، القاهرة، دط، دت.
10. أحمد محمد الحوقى، أدب السياسة في العصر الأموي، دار القلم، بيروت، لبنان، دط، دت.
11. أسيمة العظم، المجتمع في العصر الأموي، دار العلم للملايين، ط01، 1996م.
12. أمينة بيطار، تاريخ العصر العباسي، جامعة دمشق، دط، دت.
13. البلاذرى أحمد بن يحي بن جابر بن داود ، فتوح البلدان، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، دط، 1997م.
14. الجاحظ أبو عثمان بن بحر، الحيوان، تح: عبدالسلام محمد هارون، ط2، 1384ه/1965م، 01.
15. جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، دط، دت، ج01.
16. جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، مؤسسة الهنداوي للتعليم والثقافة، دط، 2012، ج01.
17. جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم، ط02، 2003م.
18. جواد علي، المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط2، 1413ه/1993م، ج1.

19. حسَّان حلاَّق، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، ط02، 1419هـ/1999م.

20. حسان عبد المنعم عبد الهادي سمارة، النظام السياسي في الاسلام ـ نظام الخِلافة الراشدة ـ ط01، 2000م.

21. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، بيروت، ط14، 1416هـ/1996م.

22. حسن باشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية، دط، 1979م.

23. حسين بيوض، الرسائل السياسية في العصر العباسي الأول، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، دط، 1996م.

24. حسين نصار، نشأة التدوين التاريخي عند العرب، مكتبة النهضة المصرية، دط، دت.

25. حسين نصَّار، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، مكتبة الثقافة الدينية، ط01، 1422هـ/2002م.

26. حمادي الزنكي، عبد الحميد الكاتب آثاره وحياته، دار سحر، كلية الآداب والعلوم الانسانية بالقيروان، ط01، 2007.

27. خالد إبراهيم يوسف، النثر العربي أيام المماليك ومن عاصرهم من ذوي السلطان، دار النهضة العربية، بيروت ـ لبنان، ط01، 2008م.

28. رمضان عبد التواب، التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط03، 1997م.

29. سامي يوسف أبوزيد، الأدب العباسي النثر، دار الميسرة، الأردن، ط01، 1432هـ/2011م.

30. السباعي البيومي، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي بغير الأندلس والمغرب، مطبعة العلوم بشارع الخليج، ط02، 1356هـ/1937م.

31. سهيلة ياسين الجبوري، الخط العربي وتطوره في العصور العبَّاسية في العراق، مطبعة الزهراء، بغداد، دط، 1962م.

32. السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب العصر العباسي الأول، مؤسسة شباب الجامعة، دط، 1993م.

33. شوقي جمل، علم التاريخ نشأته وتطوره ووضعه بين العلوم الأخرى ومناهج البحث فيه، المكتب المصري، دط، دت.

34. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، مكتبة الدراسات الأدبية، ط10، دت.

35. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني، دار المعارف، مصر، ط02، دت.

36. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي ـ، دار المعارف، مصر، ط07، دت.

37. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، دار المعارف، ط11، دت.

38. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي –العصر العباسي الأول–، دار المعارف، ط08، دت

39. صلاح الدين المنجد، دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، دار الكتاب الجديد، ط02، 1979م.

40. الطبري أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد، تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل القرآن، ج3.

41. طه حسين وآخرون، التوجيه الأدبي، عالم الأدب، بيروت، ط01، 2016م.

42. طه حسين، في الأدب الجاهلي، مطبعة فاروق القاهرة، ط3، 1933/1352.

43. طه حسين، من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، ط01، دت.

44. عبد الحكيم بلبع: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، مكتبة الأنجلو المصرية، دط، دت

45. عبد الرزاق علي الأنباري، منصب قاضي القضاة في الدولة العباسية منذ نشأته حتى نهاية العصر السلجوقي، الدار العربية والموسوعات، ط01، 1987م.

46. عبد العزيز الدوري، النظم الإسلامية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، دط، 2008.

47. عبد العزيز عبد الله سلومي، ديوان الجند، نشأته وتطوره في الدولة الاسلامية حتى عصر المأمون، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ط01، 1406هـ/1982م.

48. عبد اللطيف حمزة، القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1977م.

49. عبد المنعم خفاجي، الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، دار الجيل، بيروت، دط، دت.

50. عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأموال، دار الشروق، ط01، 1989م.

51. عز الدين إسماعيل، المصادر الأدبية واللغوية في التراث، مكتبة غريب، دط، دت.

52. علي أبو ملحم، الرسائل الأدبية، رسائل الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط01، 2002م.

53. علي بن حسين علي الأحمدي، مكاتيب الرسول، مكتبة المصطفوي، دط، 2007م.

54. علي بن محمد، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس "مضامينه وأشكاله"، دار الغرب الإسلامي، بيروت . لبنان، ط01، 1990.

55. علي حب الله، المقدمة في نقد النثر العربي . مشروع رؤية جديدة في تقنيات البحث والكتابة، دار الهادي، ط01، 2001م/1421هـ.

56. علي محمد الصلابي، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، دار المع، دط، دت.

57. عمر الدقاق، مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم، ط3، بيروت 1972.

58. غازي طليمات، النثر في عصر النبوة والخلافة الراشدة، دار الفكر، ط01، دت.

59. فيلاق الرياشي اللبناني، عهد الرسول العربي، المطبعة الوطنية، دط، 1939م.

60. القاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت . لبنان، دط، 1979م.

61. قدامة بن جعفر، الخراج وصناعة الكتابة، تح: محمد حسين الزبيدي، سلسلة كتب التراث، دط، دت.

62. قدامة بن جعفر، تح: طه حسين، عبد الحميد العبادى، دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط 15، 1933م.

63. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، ط05، 1975م.

64. محمد عبد الغني الشيخ، النثر الفني في العصر العباسي الأول اتجاهاته وتطوره، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1983.

65. محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام، دار الجيل، بيروت، دط، 1410هـ/ 1990م.

66. محمد عجاج الخطيب، السنة قبل التدوين، مكتبة وهبة، ط02، 1988م.

67. محمد كرد علي، أمراء البيان، مكتبة الثقافة الدينية، ط01، 2012، ج01.

68. محمد ماهر حمادة، الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة، مؤسسة الرسالة، ط02، 1985م.

69. محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)، دار المدار الإسلامي، ط01، 2004.

70. محمد نبيه حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط02، 1406هـ/1986م، رفة، بيروت، لبنان، ط02، 1429هـ/2008م.

71. محمد يونس عبد العال، في النثر العربي قضايا وفنون ونصوص، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، دط، دت.

72. محمود مصطفى، الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي، مطبعة مصطفى البابا الحلبي وأولاده بمصر، ط2، 1937م.

73. محي الدين عبد حسين عرَّاب، التدوين التاريخي في العصر اليوناني وصدر الإسلام، الإعصار العلمي، مكتبة طريق العلم، ط01، 2016/1437.

74. مصطفى الشكعه، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، كتاب النثر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط02، 1974، 02.

75. مصطفى الشكعه، مناهج التأليف عند العلماء العرب، دار العلم للملايين، بيروت، ط06، 1991م.

76. مصطفى فايدة، تأسيس عمر بن الخطاب للديوان، تر: مِعد بن سويلم الشامان، جامعة الملك سعود، ط01، 1418ه/1997م.

77. مي يوسف خليف، النثر الفني بين صدر الإسلام والعصر الأموي دراسة تحليلية، دار قباء، القاهرة، دط، دت.

78. نبيل خالد رباح أبو علي، نقد النثر في تراث العرب النقدي حتى نهاية العصر العباسي 656ه، دار المقداد للطباعة، دط، 2005م.

79. نجدة خماش، الإدارة في العصر الأموي، دار الفكر، ط01، 1980م.

80. وليد عبد الله المنيّس، فضل الخط والتوزيع الجغرافي لنساخ القرآن الكريم، جامعة الكويت، دط، 2016م.

81. ياسر سهيل، تصميم الخط العربي الابتكار والابداع، دار الكتاب الحديث، دط، 1435ه/2014م.

82. يحي بن آدم القرشي، كتاب الخراج، تح: أحمد محمد شاكر، ط02، 1384م.

83. يحي وهيب الجبوري، الخط والكتابة في الحضارة العربية، دار الغرب الإسلامي، ط01، 1994م.

84. يوسف العث، الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان، دار الفكر، دمشق، ط02، 1965م.

خامسا: الكتب المترجمة:

1. فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي في علوم القرآن، تر: فهمي حجازي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، دط، 1411 هـ/1991م.

2. يوهانس فريديريش، تاريخ الكتابة، تر: سليمان أحمد الضاهر، وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتَّاب، دمشق، ط1، 2004م.

سادسا: المراجع باللغة الأجنبية:

1. Dr Christine Cuskley, Language Evolution A BRIEF OVERVIE, Centre for Behaviour and Evolution Linguistics Section, Newcastle University, p02.

2. Collins English Dictionary, Terms definition and meaning, https://www.collinsdictionary.com.

3. Dictionary Cambridge, Meaning of evolution in English, https://dictionary.cambridge.org.

4. Dr. Refnaldi, M.litt, Langauge Change, Sociolinguistics And Language Teaching, MODULE 8, Unit01, p01.

سابعا: أطروحات الدكتوراه:

1. أسماء عبد الرؤوف عطية الله، الرسائل في العصر العباسي أنواعها وخصائصها الفنية، أطروحة الدكتوراه في الأدب والنقد، جامعة أم درمان الإسلامية، قسم الدراسات الأدبية والنقدية، 2009م.

ثامنا: المجلات:

1. ملف العدد، جامعة قسنطينة عبدالحميد مهري، الجمهورية الجزائرية.

2. مجلة الفتح، ع41، كلية التربية (الأصمعي)، جامعة ديالي.

3. مجلة جامعة دمشق، ع4/3، جامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا ـ قسم الإعلام ـ
4. مجلة الجامعة العراقية، ع28، قسم التاريخ، كلية الآداب.
5. مجلة الدراسات الإسلامية، ع03.
6. مجلة الآداب والعلوم الإجتماعية، جامعة السلطان قابوس.
7. مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، ع01، جامعة الجزائر02.
8. مجلة الأستاذ الباحث للدراسات القانونية والسياسية، ع02، جامعة الأمير عبدالقادر للعلوم الإسلامية.
9. مجلة كلية الآداب، ع13 جامعة بغداد (عراق).
10. مجلة الحضارة الإسلامية، مج19، ع2.
11. مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)، ع04.

تاسعا: مواقع الانترنت:

1. https://www. aldiwan. net.
2. https: //pulpit. alwatanvoice. com
3. https: //30dz. yoo7. com
4. https: //ketabonline. com
5. https://quranpedia.net

فهارس المحتويات

فهارس المحتويات

أولا: فهرس الموضوعات:

الموضوع	الصفحة
المقدمة	أ
الفصل التمهيدي: نشأة التدوين عند العرب منذ العصر الجاهلي إلى غاية العصر العباسي.	
أولا: تعريف التدوين.	11
ثانيا: نشأة التدوين عند العرب.	12
1. التدوين في العصر الجاهلي.	13
2. التدوين في العصر الإسلامي.	22
3. التدوين في العصر الأموي.	27
4. التدوين في العصر العباسي.	32
ثالثا: الفرق بين الكتابة في العصر الأموي والكتابة في العصر العباسي.	34
الفصل الأول: الرسالة الديوانية ـ دراسة لغوية واصطلاحية ـ	
المبحث الأول: نشأة النثر الفني العربي القديم.	39
أولا: تعريف النثر الفني وفنونه	39
ثانيا: نشأة النثر الفني القديم.	41
1. النثر في العصر الجاهلي.	41
2. النثر في صدر الإسلام.	44
3. النثر في العصر الأموي.	46
4. النثر في العصر العباسي.	48
ثالثا: خصائص النثر الفني في كلا العصرين الإسلامي والعصر العباسي.	52
رابعا: آراء حول أصالة النثر العربي.	53

المبحث الثاني: تعريف مصطلح الرسالة الديوانية.	56
أولا: تعريف مصطلح الرسالة.	56
1. في اللغة.	56
2. في الاصطلاح.	58
ثانيا: تعريف مصطلح الديوان.	60
1. في اللغة.	60
2. في الاصطلاح.	62
ثالثا: مصطلح الديوان بين الأصل الفارسي والأصل العربي.	64
رابعا: تعريف مصطلح الرسالة الديوانية.	65
خامسا: تاريخ نشأة الديوان في الحضارة العربية	69
1. الديوان في عهد الرَّسول صلى الله عليه وسلم ـ هل كان موجودا أو لا؟ ـ	69
2. نشأة الديوان مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه	70
3. الدَّواوين في العصر الأموي	72
الفصل الثاني: الرسالة الديوانية من البداية الأموية إلى النضج العباسي.	
المبحث الأول: تطور الدواوين في العصر العباسي.	89
1. ديوان الجند في العصر العباسي	90
2. ديوان النفقات	91
3. ديوان المصادرة	92
4. ديوان المظالم	92
5. ديوان الرسائل في العصر العباسي	93
6.ديوان الأعمال والجبايات	94
7. ديوان البريد	95

8. ديوان الزمام	97
المبحث الثاني: الرسالة الديوانية النشأة والتطور.	100
1. الرسالة في العصر الجاهلي.	101
2. الرسالة في صدر الإسلام.	105
3. الرسالة الديوانية في العصر الأموي.	113
4. الرسائل الديوانية في العصر العباسي.	119
5. دراسة نموذج من رسائل ابن العميد الديوانية خلال العصر العباسي.	124
المبحث الثالث: أنواع الرسائل الديوانية.	127
1. المراسيم.	128
2. البيعات.	129
3. العهود.	130
الفصل الثالث: التطور المصطلحي في رسالة عبد الحميد الكاتب خلال العصر الأموي.	
التطور المصطلحي ـ مفاهيم وتمهيدات ـ	133
المبحث الأول: حقل مصطلحات الرسالة.	136
المبحث الثاني: حقل مصطلحات بنية النظام السياسي.	157
المبحث الثالث: حقل مصطلحات كاتب الخراج.	172
المبحث الرابع: المرجعية الثقافية لعبد الحميد الكاتب في وضع مصطلحات خاصة بالرسالة الديوانية.	180
1. المرجعية الفكرية لعبد الحميد الكاتب في تأسيس مبادئ الكتابة الديوانية.	182
2. المرجعية الفكرية لعبد الحميد الكاتب في وضع مصطلحات خاصة بالرسالة الديوانية.	186

الفصل الرابع: التطور المصطلحي في الرسالة العذراء لابن المدبر خلال العصر العباسي.	
المبحث الأول: حقل مصطلحات رسوم صنعة الرسالة.	192
المبحث الثاني: حقل مصطلحات أنواع الرسالة الديوانية.	207
المبحث الثالث: حقل مصطلحات صُنَّاع الرسائل الديوانية.	212
المبحث الرابع: حقل مصطلحات أدوات الكتابة الديوانية.	231
المبحث الخامس: المرجعية الفكرية لابن المدبر في وضع مصطلحات خاصة بالرسالة الديوانية.	236
أولا: المرجعية الفكرية لابن المدبر في تأسيس مبادئ الكتابة الديوانية	237
ثانيا: المرجعية الفكرية لابن المدبر في وضع مصطلحات خاصة بالرسالة الديوانية.	242
الفصل الخامس: قراءة القلقشندي للتطور المصطلحي في الرسائل الديوانية خلال العصر العباسي.	
المبحث الأول: حقل مصطلحات كتابة الإنشاء.	250
المبحث الثاني: حقل مصطلحات المكاتبات.	266
المبحث الثالث: حقل مصطلحات الخط وأدوات الكتابة الديوانية.	276
المبحث الرابع: حقل مصطلحات أنواع المكاتبات في العصر العباسي.	286
المبحث الخامس: المرجعية الثقافية للقلقشندي في وضع مصطلحات الخاصة بالرسائل الديوانية.	288
أولا: المرجعية الفكرية للقلقشندي في تأسيس مبادئ الكتابة الديوانية.	290
ثانيا: المرجعية الفكرية للقلقشندي في وضع المصطلحات الخاصة بالرسائل الديوانية.	293
خاتمة.	300
ملحق: معجم مصطلحات الرسالة الديوانية خلال العصرين الأموي والعباسي (معجم ألفبائي).	302

قائمة المصادر والمراجع.	308
الفهرس المحتويات.	322

ثانيا: فهرس الجداول:

الرقم	العنوان	رقم الصفحة
01	آراء حول وجود التدوين من عدمه في العصر الجاهلي.	21
02	سمات النثر في العصرين الإسلامي والعباسي.	52
03	مصطلح الرسائل الديوانية وما يتصل بها	68
04	مصطلحات الدواوين في العصرين الأموي والعباسي وما يقابلها في العصر الحديث	99
05	صفات الكاتب وفقا لعبد الحميد الكاتب	152
06	مرجعيات مصطلحات الرسائل الديوانية وفقا لعبد الحميد الكاتب	185
07	مرجعيات مصطلحات الرسائل الديوانية وفقا لابن المدبر.	242

08	مستلزمات أقلام الكتابة الديوانية.	278
09	مرجعيات مصطلحات الرسائل الديوانية وفقا للقلقشندي.	292

ثالثا: فهرس الأشكال:

الرقم	العنوان	الصفحة
01	تطور المدونات العربية من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي.	35
02	ديوان الرسائل والدواوين المرتبطة به.	80
03	تتبع تطور مصطلح ديوان الرسائل.	83
04	نظام إصدار الرسالة الديوانية في العصر الأموي.	86
05	مهام موظفي ديوان الأعمال والجبايات.	94
06	أنواع الرسائل في العصر الجاهلي.	103
07	هيكل الرسالة في العصر الإسلامي.	108
08	عناصر الرسالة في العصر الإسلامي.	111
09	مؤهلات الكاتب وفقا لعبد الحميد الكاتب.	179
10	نسبة مرجعيات المصطلحات المستعملة	188

	من قبل عبد الحميد الكاتب بين العربية والإسلامية.	
11	مصادر صنعة الرسالة الديوانية وفقا لابن المدبر.	219
12	نسبة مرجعيات المصطلحات المستعملة من قبل ابن المدبر بين العربية والإسلامية والفارسية.	245
13	مهمات ديوان صاحب الإنشاء.	252
14	وظائف كُتَّاب الإنشاء.	257
15	احتياجات كاتب الإنشاء من ثقافة علمية وعملية.	258
16	أطراف صناعة المكاتبة عند القلقشندي.	263
17	أنواع الخط في ديوان الإنشاء.	275
18	نسبة مرجعيات المصطلحات المستعملة من قبل القلقشندي بين العربية والفارسية.	294

الملخص

الملخص:

تتناول هذه الأطروحة دراسة تطور المصطلحات في الرسائل الديوانية (الرسمية) خلال العصرين الأموي والعباسي، من خلال تحليل وتفسير المصطلحات اللغوية التي استخدمت في المراسلات والوثائق الإدارية. وتُعد الرسائل الديوانية من المصادر التاريخية التي تعكس التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية التي شهدتها الدولة الإسلامية في هذين العصرين، كما تعكس تطور اللغة العربية واستيعابها لمفاهيم جديدة وتوسعها لتلبية احتياجات الدولة المتنامية. تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على كيفية تطور المصطلحات بما يتماشى مع حاجات الدولة الإسلامية المتنامية وكيف أثرت في توثيق هيكل الدولة ومفاهيم الحكم. فتتيح بذلك تتبع تطور اللغة العربية من خلال المصطلحات المستخدمة في الرسائل الديوانية وكيف تباين استعمالها من كاتب لآخر.

الكلمات المفتاحية: الرسائل الديوانية، التطور المصطلحي، الكُتَّاب، التحولات السياسية، ديوان الرسائل.

Abstract :

This thesis explores the development of terminology in official *diwan* letters during the Umayyad and Abbasid eras, It involves an analysis and interpretation of the linguistic terminology found in correspondences and administrative documents. Diwani letters are important historical sources that illustrate the political, social, and cultural shifts experienced by the Islamic state in these times, as well as the evolution of the Arabic language, which adapted to new concepts and expanded to meet the needs of the growing state. This study aspires to highlight how terminology evolved to meet the needs of the growing Islamic state and its effect on the documentation of the state's structure and concepts of governance. It facilitates the exploration of terminological developments related to the creation of diwani letters and examines how their usage varied among different writers during the Umayyad and Abbasid eras

Keywords :

Diwani Letters, Terminological Development, Writers, Political Shifts, Letter's Diwan.